



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



عليه
صلى الله عليه وسلم

www.ghaemiyeh.com
www.ghaemiyeh.org
www.ghaemiyeh.net
www.ghaemiyeh.ir

الملك الاسلامي

حسن المرهبي الشيرازي

قامت بإعادة طبعه
شعبة التراث الثقافي والديني
في قسم الشؤون العسكرية والثقافية
في العتبة الحسينية المقدسة

(١٥٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الوعي الاسلامي

كاتب:

حسن شيرازى

نشرت في الطباعة:

العتبة الحسينية المقدسة

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

5	الفهرس
7	الوعى الاسلامى
7	اشارة
7	اشارة
11	التعريف بشعبة التراث الثقافى والدينى
13	مقدمة:
19	الاقتصاد
21	تصدير:
25	الرأسماليون
89	الرأسمالية الجديدة
99	الاقتصاد الشيوعى
137	حساب الشيوعية
169	الاقتصاد الاشتراكى
195	مناقضات الاشتراكية
247	مذاهب اشتراكية مبتورة
253	الاقتصاد الإسلامى
269	الجزاء بلا عمل
281	برامج العمل
291	الزكاة
309	الخمس
319	خاتمة
323	إعتذارات
325	من المصادر

سرشناسه: حسن شيرازى

عنوان و نام پديدآور: الوعى الاسلامى / تاليف حسن شيرازى

مشخصات نشر: كربلاى معلى - عراق

ناشر: العتبة الحسينية المقدسه، قسم الشؤون الفكرية والثقافية 1436

مشخصات ظاهرى: 321ص

يادداشت: عربى.

يادداشت: كتابنامه.

موضوع: اقتصاد اسلامى

موضوع: احكام اسلامى

ص: 1

تالیف حسن شیرازی

ص: 4

التعريف بشعبة التراث الثقافي والديني

ص:5

مقدمة:

المبدأ - الذى ينبثق منه نظام وعقيدة واجتماع - هو مقياس عظمة الشعب وحضارته وثروته الفكرية والمادية ومدى خلوده ومقاومته للشعوب المناوئة له.. والمبدأ هو شارة الانتصار او الفشل فى كل ميدان والمبدأ اعظم ثروة يرثها الجيل من ابائه، ويخلفه لابنائه.

اما الحضارة والثروة المادية والعلمية، فانها تتبع المبدأ فى تكونها وبقائها على تقدير وجودها قبل ذلك.

فالامة التى لها مبدأ صحيح - تسير على ضوئه - تستطيع ان تحتفظ بما لديها من حضارة وثروة!.. حتى ولو اتفقت الظروف المعاكسة ان تعصف بها وتبدد ثروتها، وتدمر حضارتها وتقوض كيانها من القواعد وتكتسح كل غال ورخيص، فسرعان ما تستعيد قواها المسلوبة وتلملم نشاطها المنهوب بتوجيه من ذلك المبدأ - لتجدد كيانها، وتهتدى الى حضارتها مرة اخرى فتعود الى مقرها الآمن الوديع حتى ولو ابتدأت الامة بلا حضارة، ولا ثروة مادية أو علمية، فمن الهين عليها - بقيادة المبدأ الصحيح - ان تكوّن الحضارة والثروة وكل شىء وأن تتخذ البرامج - التى تساعد على التوسعة والاختراع، واصهار الشعوب

الآخري في بوتقتها بكل سهولة وبساطة.

كما ان الامة الاسلامية في ابتداء بعثة الرسول الاعظم لم تكن تملك حضارة ولا ثروة ولكنها حيث سارت على خطط الاسلام والقرآن حكمت في ربع المعمورة وانشأت الحضارة والثروة الهائلتين.

اما الامم التي تدين بمبدأ فاسد فإنها وان سنحت لها الظروف المؤاتية و فراغ الميدان ان تملك الحضارة والثروة، وتصل الى الاكتشافات العلمية والمخترعات الصناعية.. لكنها ستنتهي في اشواطها الى حروب طاحنة تخسر فيها كل شيء حتى شخصيتها وكيانها.

والتاريخ يحدثنا: ان (الفراعنة) رغم حضارتهم وثرواتهم الزاخرة كيف اندحروا امام النبي العظيم موسى بن عمران وهو يشرح لنا انهزام (بنى اسرائيل) تجاه الرسول الاقدس عيسى بن مريم...

ويبين لنا ان (الفرس) و (الروم) وما شيدوها من حضارة و ثروة كانت تلفظ انفاسها الاخيرة في نفس المجازر الشاسعة التي ارصدتها للوقوف في طريق ثورة النبي الاعظم صلى الله عليه وآله.. كما يحدثنا عن فشل المغول و (اللويسيين) و (النازيين) وغيرهم من الذين حفل بهم التاريخ وازدهرت الحضارة في وجوههم وزحفت الثروات من اكناف العالم كي تتكدس بين ايديهم.. فلم تغن حضارتهم واموالهم وشعوبهم من واقع الحياة شيئاً..

وذهب مصيرهم الباكر عبرة الاجيال.. حيث لم يكن لهم مبدأ صحيح يسيّرهم وفق نظام يضمن لهم البقاء والخلود.

أما الاشتراكية، والرأسمالية الديمقراطية، فاليوم يتجولان في رحاب الحياة، حيث لا مبدأ ينازلهم الميدان، ولو قُدر للاسلام يوماً - كما هو المقدر انشاء الله تعالى - ان يقبض على زمام الامر ويمسك بخيوط المؤامرات التي يحيكونها ضد الشعوب ويعلن للعالم تناقضاتهم وسيئاتهم وما ينطلون عليه من خداع وتشويه للحقائق لرأى الناس ان الاشتراكية والرأسمالية كيف تتضاءلان امامه وتتهافتان على اعتابه.. ثم يبقى تاريخهم اضحوكة القرون ومهزلة المتفككين والمسلمون - اليوم - يملكون اكبر ثروة مفتتة مجمدة ولديهم مبدأ ومناهج لو نفذوها لأجرى ثروتهم في مسالك الحياة وشيّد لهم حضارة نادرة تنحسر عنها الانظار والافكار - كما جربوه من قبل - غير ان ذلك المبدأ لا وجود له في واقع الحياة وإنما هو مذخور في بعض الكتب والصدور.. وسائر المسلمين يعتبرون مسلمين لانهم يقولون: اشهد ان لا اله الا الله، واشهد ان محمداً رسول الله.

اما الافكار الاسلامية، فيعرفونها فلسفة مثالية فارغة ليس عليهم ان يدرسوها، وانما ذلك شأن الفلاسفة فحسب.. وأما الشعائر الدينية العامة، فيزعمون انها من وظائف رجال الدين.. واما الفرائض الدينية فيؤجلونها الى أوان الشيخوخة والمشيبة، والشباب ما دام في غضون الشباب ف- (كان الله غفوراً رحيماً...).. وأما القسم الآخر من الاسلام، فملفق من قبل اناس نفعيين.. واما الاقتصاد والاجتماع والسياسة وما شاكلها، فلا يربطها الى الاسلام، فيبينها وبين الاسلام شقة واسعة ومن نسبها الى الدين فقد ابتدع في الدين، لانها اطروحة مدخولة في الاسلام وليست من الاسلام.

والبعض الآخر من المسلمين الذى عرف شيئاً من الاسلام فيحسب انه لا ينفعه فى القرن العشرين، وانما كان من صالح القرن العاشر.

هكذا الاستعمار الكافر صوّر الاسلام ضحلاً هزيباً فى اعين المسلمين حتى اصبح ذلك طابعهم الاصيل والمستوى العام لوعيهم الاسلامى، وكذلك اصبحوا فاقدين للفكرة الاسلامية الكاملة، ولأية فكرة أخرى، وانما امسوا أذناً لمن يسودهم، وعيلاً على من يكفلهم ولم يعرفوا غير هذه العيشة المضنية التى اسهر الاستعمار على ان يبقيهم عليها، فهم يبحثون عن من يتبعونه ولا يطلبون من يتبعهم، فكان طبيعياً ان يتلونوا كل يوم بلون وان ينجرفوا مع كل تيار يمر ببلادهم لانهم ذلك المبدأ الذى يسير ثروتهم ويبنى عليها حضارة وكياناً.

اما سياستهم الاقتصادية، فانها - بحكم الاستعمار السافر او المتلصص فى بلادهم - رأسمالية لم تتزحزح منذ ان وضع المستعمر الكافر قدمه فى بلادهم،... ولقد حاول البعض ان يوفق بين احكام الاسلام وبين القوانين الرأسمالية حتى وصل الى حد الشعور بعجز الاسلام عن ايجاد المعالجات للمشاكل المتجددة، ثم حكم بضرورة اتخاذ المعالجات الرأسمالية كما هى الان - دون حاجة الى محاولة التوفيق... ولا ضير فى ترك الاحكام الاسلامية لانها (فى نظره) قاصرة عن مجاراة الرأسمالية والاشتراكية.

وبقى القسم الاخر حتى اليوم يعتقد امكان التوفيق بين الاقتصاد الاسلامى والرأسمالى، ولكنه سينتهى الى ما انتهى اليه صاحبه وسوف يفشل فى هذه المحاولة.

كما ان جماعة من المفتونين بالنظام الاشتراكي، اطلقوا الاحكام الطائشة باتفاق الاقتصاد الاسلامي والاشتراكي على معالجات موحدة للمشاكل الاقتصادية واتخذوا من على عليه السلام وابي ذر بطلين اشتراكيين..

والواقع: ان هؤلاء اناس لم يعرفوا الاسلام - رغم انهم نشأوا في أحضانه - واتفقت الرأسمالية أو الاشتراكية مع ميولهم، ومصالحهم الفردية فحاولوا ان يبرروا موقفهم أو يجرفوا الاخرين معهم بمثل هذه الاكاذيب التي تنم عن الضمائر العفنة، والعقول الاسنة القذرة.

واذا كان ذلك مبلغ المسلمين من الاقتصاد الاسلامي وموقفهم من المبدأ الاسلامي.. فمعناه: ان لا وجود لمبدأهم في واقع حياتهم ومتى كان ذلك فلن يسودوا مهما تعددت منابعهم، وحضارتهم المدنية لانها لاتجد قيادة تسييرها وفق نظام منتج ينقذهم من الجهل والفقر والتشرف ويدراً عنهم المآسى والويلات.

فمتى ضاقوا بهذه الحياة النكدية التعيسة عليهم ان يستسلموا لمبدأهم وينطلقوا في الحياة وفق أوامره وزواجره.

من هنا كان الواجب يحتم علينا.

1 - أن نستعرض صوراً واضحة عن الاقتصاد في النظام الرأسمالي والاشتراكي وننوه الى تناقضهما مع الاسلام في النقاط المركزية التي لاتقبل التأويل والتزوير.. ليعلم المأجورون والمغفلون ان الاسلام ليس رأسمالياً ولا اشتراكياً، ولن يتفق معهما ابداً، اضافة على ما فيهما من اخطاء... واخطاء...

ص:11

2 - ان فصل شرطاً عن الاقتصاد الاسلامى ونشرح كيف انه يستقل بتنظيم الحياة الاقتصادية ويعالج المشاكل الحاضرة وفق نظام دقيق يرفع المستوى الاقتصادى للمجتمع الى درجة لا يمكن ان يتقاربها المجتمع الاشتراكى او الرأسمالى.

كما سنبحث فى الجزءين الاخيرين من هذا الكتاب عن جانبين اخرين للاسلام لنرفع الستار عن وجوه المتنطعين والمستغلين الذين يغالطون ضمائرهم ثم يسرقون ركائز الاسلام ليتباروا بها ويبيعوها على الاسلام فيجلبوا بذلك اكبر عدد ممكن من المؤمنين من حضائهم المقدسة الى مساقط المجرمين.

السيد حسن الشيرازى

كربلاء

1379/8/17 هـ -

ص:12

«... وَلَا تَتَسَّ نَصِيْبِكَ مِنَ الدُّنْيَا...»

القرآن الكريم

... من لا معاش له لا معاد له

رسول الحياة

ليس منا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه.

زين العابدين

ص:13

تصدير:

الاسلام فكرة واحدة، عن الكون والحياة والاجتماع.. فهو يتحدث عن علاقة الكون والحياة بالانسان، وعلاقة الانسان بالكون والحياة، وعن علاقة المجتمع بالفرد، وعلاقة الفرد بالمجتمع، وعلاقة المجتمع بالمجتمع، وعلاقة الفرد بالفرد، ثم علاقة المجتمع والفرد مع الله فيعطى كل واحد من هذه المواضيع حقه من الدراسة والتحقيق ويستنتج من كل ذلك، ثم يقرر احكامه عليها بكل دقة واتقان...

وبذلك يتميز الدين الاسلامى عن الاديان، والمبادئ والدساتير التى تعنى بجانب وتهمل جوانب.

والدين برنامج الانسان فى الحياة ومخططه ووظائفه فى مسيرته الكبرى الى دار الخلد والمقام.. تبعاً لدواعى فطرته، وطبائع الاشياء التى تسير معه...

واذا كان الانسان والاشياء وحدة متكاملة فلا يكون الدين إلا خطة واحدة تلائم غرائزه واشواقه وتساير عواطفه وميوله الاصلية ضمن تحديد وإطلاق يتناسب والمعركة الحامية بين العقل والنفس.

ومتى كان الدين هكذا.. فمن الصعب جداً انتزاع اقتصادياته من غيرها، فما يتحراها الباحث الا وتزدحم عليه الافكار وكلها من صميم الموضوع.. وما ان يجد حيلة إلا ان يفكر طويلاً ليلتقط الاقرب فالاقرب.

وقد حاولنا ان ننظر الى الاقتصاد الاسلامى من الزواية المادية لينسجم مع الاقتصاد الاشتراكى والرأسمالى الماديين حين التقارن.. واهملنا النواحي المعنوية - مؤقتاً - لغير اشعار.

واقصديات الاسلام تدور حول فكرة واحدة هى: تكوين مجتمع متقارب الطبقات, اعنى تأمين المصالح العامة: إلغاء الفقر والمرض.. ولا يفقر الغنى، بل يغنى الفقير.

واقصديات الاسلام فكرة بين الاشتراكية والرأسمالية - او غيرهما تماماً - سبقتها الاشتراكية ففشلت، وتأخرت عنها الرأسمالية فسقطت. وهذا الدستور هو النظام الوسط.. يكون حجة على الناس ومهيماً على النظامين يكشف ما فيهما من مروق وجمود.

طبيعة المال:

طبيعة الثروة ان تتكسد فى جانب وتنحسر عن جانب.. تبعاً لاختلاف الاعمال والافكار والاساليب - الى حيث ترى الكلب المدلل يرفل فى الحرير, ويمرح فى ضياء الكهرباء, وينعم باحدث المدافئ والمكيفات, فى الوقت الذى نجد الطفل البرىء - خلف سياج البيت نفسه - ينفذ حياته تحت وطأة الجوع, ولفحة الهجير, او لدغة الثلوج وفى ذلك فساد المجتمع, فحيثما تكدست ثروة فائضة لا بد ان تبحث عن مسارب ومصارف فتأخذ طريقها الى شهوات الفرد واحلامه الفاجرة, عند ذلك ينفلت التوازن عن المجتمع - ولا تستطيع ان تعيده السلطة والنظام - ويوزع الى حلقات المترفين الجشعين وفريق الامعات

ص:16

والطفيليين وقافلة الرقيق والنحاسين..(1) وموكب الابطال الذين يكيدون لهؤلاء جميعا..

ثم يأتى - بعد ذلك دور السرقات والفقر والجهل والمرض.. والايونات المتطايرة مع الريح فى كل مكان, ثم الثورات!!!

فهذه مشكلة عالمية يجب معالجتها من قبل المسؤولين.

الوصفات:

وقد حاول علاجها الرأسمالية, الاشتراكية, الشيوعية, الاسلام وقام كل منها بدور ايجابى جرى...! فلنتنظر من التائه؟ ومن المصيب؟

ص:17

1- (1) ولعلّ امير المؤمنين (عليه السلام) يرمز الى ذلك، حيث يقول: ((ما رأيت نعمة موفورة إلا والى جانبها حق مضيع، وما جاع فقير إلا بما متع به غنى)).

تتركز فلسفتهم الرأسمالية الديمقراطية العامة على الايمان بالفرد ومصالحه الخاصة ويعتقدون: ان توفير مصالح الافراد خير ضمان لتعديل المجتمع، وحمائته بصورة طبيعية، فالمجتمع ليس إلا الفكرة العامة عن الافراد ويتمون مصالح الافراد يكون تأمين مصالح المجتمع.

اما الدولة فهي عميلة المواطنين وحميتهم، ونائبهم في القيام بخدماتهم العامة.

هذا هو الخط العريض للنظام الرأسمالي الديمقراطي, يتبدىء من الايمان بعصمة الفرد وحاجاته وينتهي بإعلان الحريات الثلاثة: السياسية، الاقتصادية والفكرية(1). أما الحرية الدينية فهي فرع من فروع الحرية الفكرية العامة التي

ص:19

1- (1) هذه الفلسفة - كما تراها - فلسفة مادية كافرة لا تؤمن إلا بالفرد القائم بذاته، والمنفصل عن الله والدين والآخرة كالأشتركية - تماماً - غير انها تجعل الفرد قاعدة يتركز عليها النظام وتعرف الدولة سلاحاً ينتخبه الفرد للدفاع عن حقوقه ويكون المال مقياس قيمة الفرد والسلع والخدمات وحجر الزاوية للاجتماع في جميع المجالات... والأشتركية تعتبر الدولة قاعدة ينبثق النظام منها ولها والشعب جهاز مسخر لخدماتها وحجم الانتاج مقياس قيمة الفرد والعمل.. وحجر الزاوية للدولة! ولكن الأشتركية انفجرت في مجتمع متذبذب مضطرب الايمان والعقائد فاستطاعت ان تعلن الحادها الفاجر بكل صراحة ووقاحة. أما الرأسمالية الديمقراطية، فقد ولدت في

يعنى بها ان يعيش الناس احراراً فى افكارهم وعقائدهم.

ولسنا بصدد عرض النظام الرأسمالى الديمقراطى بما فيه من حريات تؤول الى عبوديات وانما نبحث عن الحرية الاقتصادية بهذا التفسير الذى قرر - للشعوب - المأسى والويلات.

ومتى استعرضنا النظام الاقتصادى لدى الرأسماليين وجدنا الاقتصاد لديهم مجموعة مباحث عن:

1 - حاجات الانسان.

2 - وسائل اشباعها: (السلع والخدمات).

3 - كيفية توزيع وسائل الاشباع على الحاجات(1).

ص:20

1- (1) هذه المباحث الثلاثة تعتبر فصلاً واحداً فى الاقتصاد الرأسمالى يسمى ب - (مشكلة الندرة النسبية للسلع والخدمات بالنسبة للحاجات). ويتلو هذا الفصل فصلان آخران: 1 - قيمة الشئ المنتج.

يقررون ان للانسان حاجات الى اشياء شتى فلا بد من اشباعها بالنسبة الى جميع الافراد, وهذه الحاجات:

1 - قد تكون محسوسة ملموسة للافراد كحاجتهم الى الطعام والكسوة والمسكن...

2 - قد تكون محسوسة ملموسة للافراد كحاجتهم الى الطعام والكسوة والمسكن...

تكون محسوسة غير ملموسة كحاجة الانسان الى الطبيب والنظام...

وبعد ذلك تنقسم الحاجات الى:

1 - الحاجات الضرورية للانسان والتي لا بقاء له إلا بأشباعها، كحاجته الى الغذاء والكساء والدواء...

2 - الحاجات (الكمالية) والتي تتردد وترتقى مع المدنية والحضارة كحاجة الانسان الى السيارة, القصر, الخادم, الفاخرة, العطور,

المنازه...[\(1\)](#)

ص:21

1- (1) انهم يطلقون (الحاجة) على (الرغبة) فكل حاجة رغبة وكل رغبة حاجة, وقد جرينا على

هذه الحاجات تنمو وتتضاعف ولا يمكن اشباعها اشباعاً كلياً حتى ولو وفرنا خيرات العالم لفرد واحد. وبما أن هذا النظام مادى ديمقراطى يرى لكل فرد الحق فى اشباع حاجاته باقصى ما يمكنه السيطرة على وسائل الاشباع وبأى اسلوب يستطيع به من تحصيلها.

وسائل الاشباع:

أما وسائل اشباع هذه الحاجات فيطلق عليها - عند الاقتصاديين الرأسماليين - اسم (السلع) و (الخدمات) فالسلع وسائل الاشباع للحاجات المحسوسة الملموسة كالقمح، الارز، الرمان.. والخدمات وسائل الاشباع للحاجات المحسوسة غير الملموسة كالهندسة التطيب التعليم...

أما الذى يجعل السلع والخدمات صالحة للاشباع فهو - عندهم - (المنفعة) حتى اذا توفرت فى شىء جعلته صالحاً للاشباع، فالشىء النافع - اقتصادياً - كل ما يرغب فيه سواء أكان مضرراً أم نافعاً لدى الرأى العام، وفى نظر الدين والاخلاق فانه يعتبر نافعاً مادام هنالك راغب يبذل بازائه الثمن، ف - (الخمير) سلعة نافعة - من الوجهة الاقتصادية الرأسمالية - كما ان (الزنا) خدمة نافعة فى نظرها - و (الحانات) و (المواخير) لا تختلف - عندها - عن المطاعم والمستشفيات...

فكلها يشبع الحاجات ويؤدى انتاجاً شريفاً - فى رأى الاقتصاد -.

ص:22

فالاقتصادى ينظر الى الاشياء من الزاوية المادية فحسب، ولا يطل على المجتمع من فوق، حيث يشرف على الجميع فى نظرة واحدة حتى يستطيع من مقايسة المنافع بالمفاسد ليضع كل شىء فى موضعه.

هكذا يرى الراقصة والمعلمة تخدمان الاجتماع، وتنتجان ما يجد راعباً يبذل له الثمن، كما يوقف المقامر بجانب الفلاح فكلاهما ينتج ما يشبع رغبة وبعد ذلك فلا يفرق بينهما شىء!.

تلك هى الحاجات ووسائل الاشباع غير ان الاقتصاد الرأسمالى يواجه - الآن - .

مشكلة الندرة:

النسبية للسلع والخدمات بالنسبة الى حاجات الافراد وما دامت السلع والخدمات لا تشبع حاجات الجميع فالنتيجة الحتمية لها: أن تشبع حاجات الاغنياء بأكبر قدر ممكن من وسائل الاشباع، بينما تبقى حاجات الفقراء معطلة يعوزها حتى الخبز. واذا كانت وسائل الاشباع أقل من الحاجات فمن الطبيعى أن يكثر الطلب ويقل العرض فترتفع الاسعار وتقصر عنها الايدى الفقيرة - من هذه الناحية أيضا - فيتضخم عدد ضحايا الخبز وتشيع الجرائم والوفيات والمرض فى سبيله.

فلا بد - إذن - من تقرير مصير للقضاء على هذا القصور الاجتماعى وذلك لا يكون الا بتقوية جهاز الانتاج حتى تتوفر السلع والخدمات وتوسع الجميع،

وتشبع حاجات الاغنياء اشباعاً كلياً، عندما تشبع الحاجات الاساسية - فقط - للفقراء وذلك أقصى ما يبلغه الاقتصاد.

ص: 23

أما توفير السلع والخدمات فلا يكون إلا بأطلاق التجارة الحرة فى الاسواق العالمية، والموضعية، وشتى مجالات الاقتصاد.

ذلك ان المصلحة العامة الفردية أقوى حافز للتفكير، والعمل من أجل تضخيم حجم الانتاج، وتحسينه مع تخفيض المصارف والنفقات فالانسان اذا علم ان فائض أعماله لا تغتصب منه ورأى منافسيه قد احتكروا أكبر ثروة رابية نتيجة الدأب المتواصل عبر الشهور والسنين سوف تعصف فى دمه النخوة، والغيرة على المال ولا يستقر قلبه، ونفسه، وشهوته حتى يبذل فوق المستحيل، ويفرغ امكاناته ومواهبه حتى الثمالة ليسبق أقرانه فى كل مجال فيصبح أوحداً لا يدانيه أحد وذلك لا يكون الا بأشغال أكبر عدد من العمال، واستخلاص الطاقات المعطلة، فيكون فى اطلاق التجارة الحرة علاج ل -:

1 - مشكلة الندرة النسبية للسلع والخدمات بالنسبة الى الحاجات العامة.

2 - مشكلة الايدى العاطلة والفقير الناتج من العطل.

3 - مشكلة الطاقات المعطلة.(1)

ص:24

1- (1) فان أكثر طاقاتنا اليوم معطلة لا تستغل فنحن لا نزرع أراضينا ونحمى المياه التى تنحدر الى بلادنا ونحرسها عن ان تمد اليها يد حتى تنصب فى البحار، كما أننا لا نعرف أن فى استطاعتنا أن نزرع الجوز ونزرع البحار، كما لا نعرف ان لدينا خامات يمكن تحويلها إلى منافع فنوجه الجهود والاموال إلى إفنائها زاعمين انها أوضار وأقذار. ونحن نكتفى الان بهذه الامثلة:

تحسين الموارد:

كما أن التنافس التجارى كفيل بتحسين الانتاج, فكل شركة أفرد يسعى فى تحسين بضائعه ليحلب رغبة المستهلكين فيصرفها بأبلغ ثمن. وكذلك يتم توفير الانتاج وتحسينه.

ميكانيكية الثمن:

والثمن - بواسطة التجارة الحرة - يمارس شوطاً ناجحاً فى معالجة المشاكل الآتية:

1 - تعيين نوع الانتاج.

2 - تقسيم الاعمال

3 - تحديد الاسعار.

4 - توزيع البضائع على المستهلكين.

5 - توفير أجور العمال والمستخدمين.

تعيين نوع الانتاج:

أما الدور الذى يقوم به جهاز الثمن فى تعيين نوع الانتاج وكميته، فهو: أن الحافز الرئيسى للمنتجين فى القيام بأى مجهود أو أية تضحية فى سبيل الانتاج إنما هو مكافأته بما يصلح للاشباع أو الحصول على الثمن - على ما هو الغالب - ومتى كان الثمن العامل الوحيد فى الانتاج فمن حرية المستهلكين ان لا يبذلوا

ص: 26

الثلث إلا بازاء نوع خاص وكمية معينة من الانتاج - فمثلاً - أن المستهلك الذى يرغب عن (التبغ) يمتنع عن شرائه ويعوض أمواله بالفواكه - مثلاً - وإذا أضرب المستهلكون جميعاً عن استهلاك التبغ وأقبلوا على استهلاك الفواكه كان من الطبيعى أن يقف إنتاج التبغ ويهمله المنتجون أيضاً، عندما يتضاعف نشاطهم على إنتاج الفواكه من تلك الانواع الخاصة التى تتوافد اليها الرغبات وتلك الكميات المعينة التى يستهلكها الناس.

هكذا يقرر المستهلكون كمية الانتاج، ونوع الانتاج، ويفرضون على المنتجين تعديل نشاطهم وفق رغبات المستهلكين، وهذه العمليات تنفذ على أثر انجازات من جهاز الثمن.

تقسيم الاعمال:

ومن بنود الاقتصاد الرأسمالى: لا يأكل إلا من ينتج فعلى الفرد أن يسعى فى اشباع حاجاته سوى العجزة وحب الذات يقرر نظاماً طبيعياً يحفز كل فرد على اطلاق غرائزه وميوله بالتنعم بأكبر قدر من المتاع، وهو لا يتوفر إلا عن طريق العمل. فهذان العاملان يفرضان على المرء الدؤوب فى العمل والتفكير المتواصلين لازادة كمية الانتاج وتحسينه مع تقليل تكاليفه ونفقاته. وهكذا ينهض بقسم من الاعمال حسب ما تسمح له مواهبه وامكانياته.

كذلك يقوم كل فرد من الافراد بما يستطيع من العمل كما يستوفى بمقدار عمله من الارباح.

ص: 27

تحديد الاسعار:

لثمن - فى نظر الاقتصاد - مكانة آلية فى الاحتفاظ بالمستوى الطبيعى للبضائع بالنسبة الى القيمة حتى لا يدع للمنتجين حرية تحديد الاسعار حتى لا يرفعوها بوحى من نهمهم القاسى الى ارفع مستوى, وذلك ان المادة الانتاجية متى قلت تكاليف انتاجه وتحسينه, كثر عرضه على المستهلكين, واذا ارتفع سعره عن مقدار اشباعه للحاجة مع الاحتفاظ بكون الحاجة ضرورية أو كمالية فكل الراغبين يمتنعون عن استهلاكه الا بالمقدار الضرورى, فلا بد للمنتج من احد مصيرين بالنسبة الى الباقي إما ان تبقى بضاعته من دون مستهلك حتى تبور ويخسر, أو ان يخفض السعر حتى يبلغ المستوى العادل بالنسبة الى العرض والطلب, ومتى علم المنتج التنافس التجارى الحر ورفض المستهلكين بضاعه إلا بالسعر المعين بادر اليه قبل ان يلحقه الخسران.

كما ان قلة العرض وكثرة الطلب للمادة الاستهلاكية تدعوان الى ارتفاع السعر ليبلغ مستواه الطبيعى العادل بالنسبة الى الحاح الحاجة التى تشبعها هذه البضاعة.

توزيع البضائع:

وحيث ان المنتوجات العامة لا تسع لاشباع الحاجات العامة والثمن معدل المجهودات فالانسان لا يستطيع ان يحصل على الثمن الا بمعدل مجهوداته الانتاجية, كما لا يقدر على استهلاك المواد الا بمقدار ما يحصله من الثمن.

ص: 28

فهو في الحقيقة يستبدل مجهوداته بمجهودات غيره وبمقتضى هذا النظام لا يستطيع احد ان يستهلك اكثر مما ينتج.

هكذا يقدر الاستهلاك بمعدل الانتاج حتى توزع البضائع على الجميع ويتمكنوا من اشباع حاجاتهم.

تحديد الاجور:

والثمن هو القاعدة التي يتواضع عليها المنتجون الفرديون او الشركات مع العمال والمستخدمين بما يضمن لهم اشباع حاجاتهم, فالعامل او المستخدم لا يقوم الا بعمل يتكفل اشباع حاجاته الاساسية - في الحد الادنى - حتى لو اراد الرأسمالي استخدامه بأقل من ذلك أضرب عن العمل والتنافس الحر يحفز المنتج الاخر على استخدامه بما يتفقان عليه فيفصل الرأسمالي الاول عن حلبة الانتاج، ولا تمهد له طريق العودة الى زمرة المنتجين الا بعد ان يوفر للعامل من الاجور ما يستقل بالترفيه عن حاجاته.

غير ان الاجور ربما تختلف تبعاً لاختلاف الجهود التي يبذلها العمال والمستخدمون حسب القوانين الطبيعية للعرض والطلب - فمثلاً - ان الاعمال التي ينفقها الكادحون من العمال كثيرة العرض لكثرة العمال وكثيرة الطلب لكثرة المنتجين ايضاً -، لذلك تقابل بأثمان ضئيلة. أما الخدمات التي يتقدم بها المهندسون فقليلة العرض لندرة المهندسين وكثيرة الطلب لازدياد عدد المنتجين الذين تعوزهم الهندسة لهذا تعادل بأجور طائلة حتى ان ارباح المهندس تدر عليه الموارد التي تشبع حاجاته الاساسية وشرطاً من حاجاته الكمالية بينما العامل لا يوفق الا لكف حاجاته الضرورية بكل فنوع وتقتير.

ص:29

هذه هي الخطوط العريضة لفلسفة النظام الاقتصادي الرأسمالي الديمقراطي التي طالما تبجح بها الكثيرون رافعين عقيرتهم الخشنة قبل ان تقبض على دست الحكم وتظفر بسيادة الشعوب، وما ان فتحت طريقها الى مخطط الحياة إلا وانكشفت عن سينات واخطاء استمرت حتى اليوم لعنة الشعوب رغم التعديلات التي تواردت عليها من قبل كل مقنن ومفكر.

وسنلمح - الان - الى فشل هذا النظام وسيناته، واخطائه المفضوحة وما فيه من عجز ومناقضات.

فشل الرأسمالية:

ان مهمة النظام الاقتصادي - سواء أكان رأسمالياً، او اشتراكياً، او اسلامياً - هي الغاء الفقر عن المجتمع لا ازدياد حجم الانتاج ولا توفير ثروة البلاد ولا اى شىء اخر، فأنها تخصص علم الاقتصاد. اما النظام الاقتصادي فهده الوحيد اشباع حاجات الافراد فرداً فرداً. فهو مخصص بمكافحة فقر الافراد لا فقر البلاد، او الاسواق، فالفرد فقير يطلب الخبز لا البلاد ولا المجموع. والقضاء على الفقر هو مقياس النجاح فى النظام الاقتصادي كما ان بقاء الفقر، او استفحاله فى المجتمع اكبر دليل على فشل ذلك النظام الاقتصادي السائد.

ولكن الاقتصادي الرأسمالى لا يهمله فقر الافراد وما يصيبهم بعد ذلك وانما يختصر جهوده لمحاربة فقر البلاد والمجموع، اما الفرد فالنظام غير مسؤول عنه ما دامت ثروة البلاد مكفولة والانتاج متوفر فعليه ان يعمل(1)

ص:30

1- (1) لقد كانت البلاد الرأسمالية فى انتعاش اقتصادى قبل تحكم الرأسمالية فيها وفى غضون

لينتج فيأكل(1). والنظام الرأسمالى يهدف الى غاية واحدة ويعمل للوصول الى ارفع مستوى ممكن من الانتاج وزيادة ثروة البلاد والدخل الالهلى ويحسب ان

ص:31

1- (1) وهذا اقصى تناقض فى الاقتصاد الرأسمالى, فهو يبتدىء بجعل الفرد قاعدة يتكون النظام منه ولاشباع حاجاته, ثم ينتهى بأزاحة الفرد وحقوقه وواجباته عن النظام.

ازدياد الدخل الاهلي وتضخيم حجم الانتاج فى البلاد يقضيان - بصورة طبيعية - على فقر الافراد وذلك بتمكينهم من اخذ الثروة حين تترك لهم الحرية فى العمل لانتاجها وحيازتها. فالنظام الاقتصادى - فى نظرهم - ليس لاشباع حاجات الافراد بل لايجاد اكبر قدر ممكن من الانتاج واشباع حاجات المجموع جملة. اما الافراد فلهم حرية التملك والاكتساب وعليهم ان يستفيدوا من هذه الحرية وينالوا من وسائل الاشباع كل حسب ما يملك من عناصر الانتاج. وبعد ذلك سواء - لدى الاقتصادى الرأسمالى - ان حصل الاشباع لجميع الافراد او لبعضهم دون بعض.

عجز وانهزام:

فأذن تتلخص الفلسفة الرأسمالية - الحالية - فى هذه العبارة يجب تمويل البلاد بالثروات الطائلة، فانها طاقة خلاقية يجب حمايتها، والانتاج مما لا بد منه للتوفير عن المجموع. أما توزيع الانتاج على الافراد فعلى الشعب أن يقوموا بذلك. فماذا فعل النظام الاقتصادى الرأسمالى إذن؟ ان المشكلة الاقتصادية هى توزيع الانتاج على الافراد ولا غير، والنظام الاقتصادى الرأسمالى ينكل عن معالجتها فهو فاشل!.

سيئات الرأسمالية:

لقد كان الناس يأملون أن يربحوا من النظام الاقتصادى الرأسمالى إلغاء الفقر وتكوين مجتمع متقارب الطبقات وما إن طبق هذا النظام إلا وانقضت امالهم عن جرائم وسيئات لم يجدوا إلى تبريرها سبيلاً. ودفَعوا فى سبيلها أمدح الاثمان

ص:32

من هنا وقعت البشرية فى دوامة من الماسى والويلات والدماء والدموع لا تستطيع الهروب منها إلا إلى أسوء منها. وسوف يضيق المجال لو استعرضنا ما أصابت البشرية من هذا النظام الطائش، كما هى فى واقع الحياة غير انا نشير إلى بعضها من بعيد.

تكوين الطبقات:

فقد أعلن النظام الاقصادى الرأسمالى حرية التجارة والاكتساب بشتى الوسائل والالوان واتفق هذا الاعلان مع دوى المعامل وهدير المصانع التى تعهدت أداء شطر كبير من الاعمال واكتساح القسم الاكبر من العمال فأهمل الناس الصناعات اليدوية - التى كانت تنفق على الطبقة الوسطى وقسط من العمال - ولم يكن يستطيع استثمار الآلة إلا- الصفوة من أرباب الثروات وقد استخدمت الحريات والضمانات المقدسة التى قررها النظام الرأسمالى للتوسعة فى استغلال الافراد والاموال فاصبح الناس وقد وضع أصحاب الثروات الكبرى أصابعهم على المعامل ومنايع الثروة الاخرى (الاراضى الزراعية، الخامات، العمال..) والفئة الوسطى على شفير الهاوية مشرفة على السقوط - لان المستهلكين انصرفوا عن المنتوجات اليدوية وازدحموا على الصناعات الآلية - وعطل العمال الذين اخذ الحديد يمارس وظائفهم وجماهير العمال الاخرى بقى تحت رحمة تلك الصفوة التى لا تعرف إلا مغانمها ومآربها ولا تؤمن إلا بالمادة ولا تقدر الرحمة والانسانية إلا من أنواع الجبن الفكرى.

ص: 33

وهكذا انقسم المجتمع إلى طبقتين:

1 - الاقلية المتربعة على قمة الثراء المزودة بأوسع الحريات والضمانات القانونية والتي تملك مصير الملايين وتستخدم حتى السلطة الحاكمة فى أعمالها الابتزازية، وظيفتها الدائمة أن تستغل حاجة الاكثرية إليها فتلتقط القادرين لتفرض عليهم العمل فى مدة لا يمكن الزيادة عليها وبأجور لا تقى إلا بالحياة الضرورية. ثم تنطلق فى إشباع رغباتها الى..

وهكذا برز بعض الشركات وميزانيتها تصارع ميزانية الدولة. كما ان أقل من (4000: أربعة آلاف نسمة) - فى مصر - قبل إصدار قانون الإصلاح الزراعى كانوا يملكون ثلث جميع الاراضى المصرية وثلث جميع النقود الموجودة فى البنوك المصرية.

وأخيراً وبتأثير الخوف من الشيوعية أمموا الموارد العامة - إنجلترا - قبيل سنوات, أما فى أمريكا فحتى اليوم نجد المنابع الوهابة ملكاً للأفراد.

2 - الاكثرية السحيقة المنهارة فى اعماق الفقر المدقع البرىء والحطام البشرى المنتشر فى الشوارع والطرق والعمال القذرين الذين يكدحون مع العجلات والدواليب فى الزيوت النتنة السوداء. حتى كأنهم الحديد المتحرك، او الديدان التى تغوص فى الوحول والمستنقعات وإن خطاب (غلادستون) عن الميزانية يعطينا صورة بارزة عن وضع الجماهير التى تتزحلق على حافة الاملاق عندما يقول: (ليست الحياة البشرية فى كل تسع

ص:34

من عشر حالات سوى صراع من أجل الوجود(1), وكما يتحدث عن ذلك (.س. لينغ) قائلاً: (لسنا نعرف مكاناً ضحيت فيه حقوق الأشخاص بكل صراحة وصفاقة لحقوق الملكية كما هي الحال فى مساكن الطبقة الكادحة, وانه ليمكن اعتبار كل مدينة كبرى مكاناً للتضحية البشرية مذبحاً تحرق عليه سنوياً آلاف لاشخاص كضحايا لمولوخ البخل)(2).

وهكذا وجد فى إحدى البلاد الرأسمالية رجل ورث عن أبية خمسمائة مليون جنيهاً ثم صار الذهب يتدفق عليه كما ينهمر الحمم الوهاج على جوانب البركان وقدر فائضه كل أسبوع بمليون جنيهاً - هو (جون روكفلر) ورجل يعمل فى المزرعة كل يوم (عشرة) ساعات ويتقاضى راتباً مقداره (خمسة) سنتات - يومياً - وفتاة وجدت ميتة فكشف الفحص الطبى أنها ماتت جوعاً وفتيان انتحروا فقراً...

والسبب فى تكون هذه الطبقات الجائرة أن شيئاً من الاراضى الزراعية والخامات لم يزدد بواسطة الآلة والذى حدث أن المنتوجات الآلية حيث كانت أجود من المنتوجات اليدوية وأرخص - لانها اعتمدت على الآلة الحديدية لا على العضلات الحيوانية - جلبت رغبات الناس وبالتبع خفضت أسعار المنتوجات اليدوية هذا من جهة ومن جهة اخرى كان الرجل الواحد مع الآلة

ص:35

1- (1) نفس المصدر: 140/3.

2- (2) هامش نفس المصدر: 148/3.

ينتج أضعاف ما ينتجه نفر من عمال اليد فكان من الطبيعي أن تخفض أجور عمال اليد كثيراً ويصبح راتب عامل الآلة أضعاف رواتب عدد من عمال اليد، لذلك كله أضربت عمال اليد وخسر أسيادهم وأصبحوا - جميعاً - برتبة العمال. وهكذا تقلصت المنتوجات اليدوية عن الأسواق فبقيت الأراضي الزراعية والخامات كلها تحت أيدي أصحاب الآلة، فكان على الناس أن يخرجوا أرزاقهم من أيدي أصحاب الآلة، فما كان من أصحاب الآلة إلا أن زجوا بوفر من العمال في ملحمة الأقدار واستخدموا القسط الآخر. وحيث كانت جهودهم منصبة على الاستزادة من الفائض دون أن يحرصوا على سلامة المجتمع رفعوا الأسعار إلى حيث شئت لهم مطامعهم فكان العامل - في الحقيقة - لا يتمتع إلا بما يساوي قسماً من عمله، أما ما يساوي القسم الآخر فكان يتسرب إلى صناديق صاحب رأس المال! فكان العامل يتدهور نحو الهوة عندما جعل سيده يرتقى نحو القمة كما صرح بذلك (غلاستون) قائلاً: (انه لمن الصفات المحزنة للوضع الاجتماعي في هذا البلد اننا نجد الى جانب النقص في قوى الشعب الاستهلاكية والى جانب الزيادة في حرمات الطبقة العاملة والاجراء ويؤسها تجمعاً مستمراً للثروة في الطبقات العليا وزيادة متصلة للرأس مال في الوقت نفسه (1). وقد أكد ذلك (غلاستون) حيث قدم ميزانيته قائلاً: (من 1842 الى 1852 زاد الدخل الوطني الخاضع للضريبة بنسبة 6%... وفي ثمانية سنوات من

ص:36

1- (1) نفس المصدر: 138/3.

1853 الى 1861، زاد بنسبة 2% على اساس عام 1853 وان هذه الحقيقة لباعثة على الدهشة العميقة حتى لا تكاد تصدق الزيادة المسكرة للثروة والقوى المحصورة كلياً فى الطبقات المالكة يجب ان تعود بمنفعة غير مباشرة على السكان العاملين لانها تخص بضائع الاستهلاك العام، فبينما كان الغنى يزداد غنى كان الفقير يصير اقل فقراً (1)...).

وعندما كان العامل يحتم على سيده ان يرفع الاجور لا يفتأ ان يرفعها غير ان شيطان المادة كان يسول له ان يرفع بمقداره سعر البضاعة كى يتدارك الامر فلا تقل ارباحه كما يكشف ذلك (غلاستون) قائلاً:

(انا لا انكر بكل تأكيد ان الاجور قد ارتفعت لهذه الزيادة للرأس مال (فى السنوات العشر الاخيرة)، بيد ان هذه الحسنة الظاهرة تذهب هباءً حتى درجة بعيدة لان عدداً كبيراً من ضرورات المعيشة قد اصبحت اغلى ثمناً، ان الغنى يزداد غنى بصورة سريعة فيما لا نجد اى تقدم محسوس فى الرغد الذى تتمتع به الطبقات الصناعية (2)...).

فالعامل - على اى حال - لا يستطيع ان يعيش مرفهاً وان كانت تدر عليه مدد من قبل صاحب رأس المال والعامل يريد ان يعيش سعيداً ولا يطالب بأى شىء سواه، وذلك ما لا يناله تحت هذا النظام. كما يدل ذلك الدكتور (سيمون) فى تقريره بخصوص هذه الحقائق، حيث يقول:

ص: 37

1- (1) نفس المصدر: 139/3.

2- (2) نفس المصدر: 140/3.

(... وان لمن الصحيح فيما يخص عمال المدن ان العمل الذى يحصلون بواسطته على مرتبهم الهزيل يمدد بصورة دائمة تقريباً... ومع ذلك فان من المؤكد اننا لا نستطيع ان نقول الا فى حالات قليلة ان هذا يكفى لاعالتهم..

ان ذلك لا يعدو كونه على نطاق واسع جداً مسيراً يطول او يقصر نحو الاملاق(1).

النتائج:

وتكوين الطبقات ليس مما يضر الفقراء فحسب، وانما يسبب المشاكل كل للفقراء والاعنياء على حد سواء، فقد جاء فى الاحصانات العالمية (ان 90% من حوادث الاجرام والاعتقال مصدرها الفقراء...) وهذه الجرائم والاعتقالات تتوجه نحو الاعنياء، كما ان الفقراء يعتقدون المبادئ الهدامة لمطاردة الفقر فيصبون العذاب الاليم على رؤوس الناس...

وقد جاء فى احصائية اخرى: (ان 70% من القلق الذى نعانيه مرجعه الى المال، وان معظم الناس يعتقدون ان متاعبهم ستنتهى متى ازداد دخلهم بمقدار 10% وقد يصدق ذلك فى بعض الاحيان، ولكنه فى اكثر الاحيان لا يصدق)(2). فقد ثبت ان الاسراف يهدد كيان الانسان بالموت الباكر، وشتى الامراض، فان اجهزة الجسم لو افرطت فى استهلاك طاقاتها تحطمت وسوف لا تغفر للانسان

ص:38

1- (1) نفس المصدر: ج 3 ص 140.

2- (2) دع القلق... ص 371.

صغيرة ولا كبيرة. كما ان الارباح الفائضة تولد مصارف جديدة وتسبب المشاكل الاجتماعية الفادحة.

الغاء الاديان:

أن فلسفة الاقتصاد الرأسمالى لا تتسجم مع فكرة الاديان! فالاقتصاد الرأسمالى يعمل لتوفير الانتاج من أى سبيل كان والاديان لا ترضى بالظلم, والرشوة, والربا, والاحتكار, وسائر الموارد المحرمة... كما أن الاقتصاد الرأسمالى يقرر لكل فرد الحق المقدس فى إشباع حاجاته كلها فى حين أن الاديان تمنع الزنا، والمقامرة، والخمر، والغناء، واللهو...

والاقتصاد الرأسمالى يحاول تكريس جهود الناس، ومجالات نشاطهم فى الانتاج والاستهلاك.. فلا بد أن يعبدوا رباً واحداً هو المادة كى لا يفكروا الا فيها ولا يعملوا الا لها. اما الاديان فتوزع القوى والثروات إلى جميع جوانب الحياة وتحدد علاقة الفرد بالمادة. فهى إذن تعرقل طريق الاقتصاد فلا بد من إلغائها.

والحرية الدينية لا يعنى بها إلا أن يكون الفرد مؤمناً - فى قلبه - برب ونبي وإمام. وليس له الحق فى تطبيق دينه على المجتمع (فالدين لله والوطن للجميع).

مأسات الفضيلة:

ومادامت الامور تقدر بمنافعها المادية فمن الطبيعى سحق القيم المعنوية، والفضائل الخلقية، وكبت البواعث الفكرية، والنزعات النبيلة.. فالمجتمع الرأسمالى الذى يرى الانسان - كسائر الحيوانات - مجرداً عن الميول الروحية،

ص:39

والافكار الانسانية النبيلة، والاهداف التي تسمو عن عالم المادة وجواذبها ولا يعرف للفرد كرامة معنوية وسمواً روحياً، بل يتطرف في الاتجاهات والموازن المادية البحتة ولا يقدر النجاح والفشل إلا بالاستغلال والاستهلاك وإشباع الجوعات الجسدية وتوفير ثروة البلاد لا بد أن يشذ مجتمع يسوده هذا النظام عن الفضيلة ويغرى بالجريمة...

وإذا آمن الفرد بالمادة وعرفها مقياساً وهدفاً للحياة، وعلم ان ميدانه ونصيبه في هذا الوجود هو هذه الفترة من حياته الخاصة، وأن له الحرية في التصرف والاستثمار وأنه المسؤول عن نفسه، ولا- مدافع عنه إلا-قواه، ولا- غرض من حياته إلا مصالحه الفردية وانه في خطر من كل مصلحة من مصالح الآخرين التي قد تزاخمه على هدف عند ذلك يشعر الانسان أنه في صراع دائم، وجهاد لا ينقضى، وقد يستبد به الخنوع، وتنسبوا قواه فيرضى أن يعلن انهزامه، ويضع حداً لحياته بالانتحار. ولكن مادام حب الذات يحفزه على الاستمرار في الجداد، فإنه لا يفتأ يتصاول من كل جانب ويسرق، ويعش، ويخون... ويعمل كلما تمليه عليه هواجسه وبوادره ليوفر على حاجاته وميوله وأغراضه اكبر قدر ممكن من وسائل الاشباع.

وهكذا نرى المجتمعات الرأسمالية تعرف - من الضروري - إطلاق البغاء، وتشجيع معاقرة الخمر، وشرب الافيون، وارتكاب المحرمات كلها لانها تشبع نوعاً من الحاجات وتجلب قسماً من الثروات وهل يعرف المجتمع الرأسمالي غير الحاجات والثروات؟

الخمير:

وكذلك نهض قوم واستغلوا الحرية الشخصية للاكتساب وراحوا يبيعون الخمور على قوارع الطريق جلباً للثروة الى جيوبهم ولم يكن هناك ثائر يتخذ المجتمع من غوائل هذا الطاعون الفتاك، بل حافظت السلطات والقوانين على مصالح الخمارين ودافعت عنهم بالسلاح. والقضية التالية تضمن لنا ابراز مكانة الاخلاق من النظام الرأسمالى فى إحدى الدول الشقيقة عرضت لائحة على البرلمان لمنع استعمال الخمور فكان الجواب الأول والأخير ضدها: (إن الكحول تلتقط للدولة كل عام (40: أربعين مليوناً) من ال - (...)) وذلك وفر كبير لا يمكن الغض عنه...) مع أن نواب البرلمان - جميعاً - اعترفوا اثناء المحاورات بمضار الكحول الفردية الاجتماعية.

الربا:

وجاء آخرون فأخذوا يرابون الناس بأموالهم ونشروا فحاحهم فى القاصية والدانية وراحوا يمتصون دماء العالمين ويخلفون ورائهم الاساطير والامثال بصورة قانونية جريئة كى لا يسلم منهم أحد بقطرة من دمه.

القمار:

وقام اخرون فاشاعوا فى المجتمعات القمار وابتكروا له طرقاً حديثة تتسرب الى جميع شعب التجارة حتى لم يسلم مكسب من المكاسب من عنصر القمار ومآثمه، وكان لهذه العناصر الثلاثة الخمير، الربا، القمار أثراً بعيداً فى تفسخ الاخلاق وتكوين الطبقات.

ص:41

وكذلك انتحرت العفة ضحية الترف الغليظ والاعراض المثيرة الذين تحفل بهما حياة المترفين مع ما عليه الاكثية من الفقر والحرمان.

اساطير فارغة:

وقد يحلو للمتشدقين من أنصار النظام الرأسمالي أن يدللوا على وجود الأخلاق في المجتمع الرأسمالي بأوهام خرافية ليس لها في صميم الواقع أى أثر!!

ذلك أنهم يقولون: إن الهدف الشخصى بنفسه يحقق المصلحة الاجتماعية وأن النتائج التى تهدف إليها الاخلاق تتحقق فى المجتمع الرأسمالي لا عن طريق الايمان بالاخلاق ومكانتها الذاتية أو الاخرية، بل عن طريق الدوافع المادية الفردية، فالإنسان حين يقوم بخدمة إجتماعية يشمله قسم من تلك الخدمة العامة باعتباره عضواً فى المجتمع الذى خدمه وحين ينقذ حياة فرد من الخطر فقد أفاد نفسه لان هذا الفرد سوف يخدم المجتمع فيعود اليه نصيب منها.

غير أن هذه الكلمات البراقة لا تكون الاخلاق فى المجتمع، فأن كثيراً من الخدمات التى يسديها الفرد الى المجتمع تبعاً للدوافع المعنوية لا تعود اليه بخير أبداً. (1)

ص:42

1- (1) لقد شفى المسيح عليه السلام عشرة من المفلوجين - فى يوم واحد - فلم يقدم له الشكر إلا واحد منهم، و (صمويل لا يبيتز) الذى كان محامياً ثم قاضياً أنقذ (78 ثمانية وسبعين) رجلاً من الكرسى الكهربائى فلم يشكره أحد من هؤلاء (دع القلق.. ص 217)

فالأنبياء جميعاً أنفقوا فى سبيل المجتمع أوسع الخدمات فلم يشكرهم المجتمع إلا بالسلم أو السيف, و (غاندى) حرر الهند و (إبراهيم لنكولن) حرر العبيد ورفع أعدائه إلى المناصب الخطيرة ثم كان نصيبهما الاغتيال!!!

ثم لو كان الانسان يخدم المجتمع ليعود اليه نصيب من تلك الخدمة كان الاجدر أن يكرس تلك الخدمة لنفسه - فمثلاً - لو كان الانسان يطعم الناس ليشارك معهم فى الاكل - ولا غرض سواه - فالعقل يفرض عليه أن يدخر مجموع الطعام لوجبات نفسه، وهل من المعقول أن يوزع الفرد على المجتمع الملايين ليغنم واحداً من نفس ماله..؟

وليت الامر وقف عند هذا الحد إذن لهانت المأسات، ولكن الاقتصادى الرأسمالى أدى إلى:

إنهيار المجتمع:

فرجل الاقتصاد لا يحاول تنظيم المجتمع كما يجب أن يكون، وإنما تهمة المنافع والمصالح, فهو لا يغش حتى تنجح تجارته وتكثر رواده وإذا ربحت تجارته بالغش والخديعة فالنظام الرأسمالى يسمح له مباشرتهما وهو لا يتكفل الفقراء تلبية للبواعث الدينية أو العاطفية، وإنما يعيلهم مخافة أن يسرقوه او يقتلوه، أما إذا أمن مكرهم فالتفكير الرأسمالى يؤكد عليه تجويعهم!!!

وهنا يتبلور الاقتصاد الرأسمالى فى اطار جديد هو الاستغلال والاستعباد - بلا حدود - فمن حق الصفوة من اصحاب الثراء ان يستغلوا حاجة الاكثرية اليهم فيفرضوا عليهم الاعمال المرهقة بأجور بخسة ضئيلة لا تضمن الحاجات

ص:43

الضرورية للانسان فيوزع المجتمع إلى اقلية مترفة تسود وتستهلك ولا تنتج واكثرية تعمل ولا تسود ولا تستهلك إلا قليلاً...

هكذا تحكم الاقلية على الاكثرية رغم ديموقراطية هذا النظام وبعد ذلك يأتي دور:

الاستعمار والحروب:

1 - العمال المنتجون لا يستطيعون ان يستهلكوا بمقدار ما ينتجون لضئولة اجورهم, والسادة المتخومين لن يأتوا على مجموع الانتاج مهما حرصوا وشدة حركة الانتاج وتدققها بدافع الحرص والاستعلاء المادى(1). جعلت المنتجات الفائضة اكثر من الاستهلاك, فتجد المخازن تغص بالبضائع والمعامل تخب فى الفائض والاسواق جامدة غافية, فلا بد للسادة المالكين أن يبحثوا عن اسواق متعطشة الى بضائعهم, ولا بد ان تخرج هذه البضائع الى خارج الحدود والجمارك لا تسمح أن يكون الوارد إلا أقل من الصادر - لتنمية ثروات البلاد - فأذن أين تصرف هذه البضائع؟ إلا فى الدويلات التى لا تملك المقاومة والصمود. من هنا تنطلق الدول الكبار تستعمر ما تستطيع من الدول الصغار لتصرف فيها بضائعها وتفرضها على الشعوب بأثمان تقدرها بنفسها. وهذا هو الاستعمار السافر.

ص:44

1-1 (1) فى بعض البلاد الرأسمالية ك - (اليابان) و (فرنسا) يتخذ العمال فى المعمل القبقاب المنصوب على عجلات صغار ليكون تنقلهم فى المعمل أنشط من المشى أو العدو.. وهذه الحركات العنيفة نشرت فيهم الصداق الدائم والهستريا.

ويتلو ذلك تطاحن الدول الكبار حول إستعمار الدويلات، وهذا ما لا ينتهى إلا بالحروب.

2 - ان وفرة الانتاج تتوقف على وفرة الخامات وجميع الموارد الموجودة فى الدولة موزعة بين أصحاب رأس المال، فلا بد أن يمدوا أبصارهم إلى افاق جديدة ومناطق تكتض بالمواد الاولية لينشروا نفوذهم عليها فيمتصوا الموارد ويسلبوا الامتيازات، وهذا هو الاستعمار وهنا يكون التنافس والتناطح على الاستغلال وإهدار الاموال السخية فى سبيل الدعاية والتحييد.

فاذا كانت هناك دولة قوية يرضخ لها الجميع إمتصت دماء العالمين بكل هدوء وتحت شعارات وطنية مخلصه وويل للناس إذا تكافئت القوى ولعلعت الحروب تلتهم الرطب واليابس.(1)

ص: 45

1- (1) والقضية التالية تحدثنا باسهاب عن مدى صدق هاته النقاط التى سجلناها: (كان التجار الانكليز) يحملون الافيون إلى بلاد الصين، وقد اعتاد الصينيون أن يذخروا الافيون الخالص دون أن يمزجوه بالتبغ فتقل تكاليفه وأضراره، وتبعاً لذلك سرى فيهم (المالاريا) والفقر، وفى عام 1800 أصدرت الحكومة مرسوماً لمكافحة هذا الداء الذى جعل يهدد كيان الشعب وثروة البلاد، فمنع من إستيراد الافيون منعاً صارماً، ولكن الارباح المتضاعفة - وخصوصاً بعد إعلان المنع - حملت التجار على التهريب وشراء ضمائر المسؤولين بالرشى وازداد التهريب بعد عام 1832 فاضطرت الحكومة إلى اتخاذ إجراءات حازمة لتحديده وعينت (لن تسمى هى) مأموراً لمقاومة التهريب فأرغم جميع التجار الاجانب على أن يسلموا الكميات الموجودة لديهم من الافيون المهرب وأحرقها.

3 - أن هناك تبايناً شاسعاً بين طبائع البلاد ومناخاتها تبعاً للفروض الطبيعية, فبينما نجد بعض البلاد يتقل بالخيرات ويطفح بالمواد الاولية حتى ان فى ترابها انواعاً من الخامات، نجد إلى جانبها بلاداً قاحلة جرداء يسودها المحل والجذب. والرأسمالية الكبرى حيث تسعى نحو إنجاب أكبر قدر من الانتاج، لابد لها أن تقوم بتقسيم عالمى للأعمال والمناطق، تفرضه المراكز الرئيسية للصناعة الكبرى على سائر المناطق، فتقلب قسماً من الكرة الارضية التى تغلب عليها السهول وتتفجر بالمياه والاشجار كأكثر البلاد الاسلاميه

الى مناطق زراعية وحقول ومراتع لانتاج الحبوب والفواكه وإنجاب الانعام وما يتبعها. (1)

وتحول المناطق الوعرة القاحلة الى مراكز صناعية تغص بالمعامل والمصانع.

وهذا لا يكون الا اذا سيطر الوطن الام على جميع البلاد بالاستعمار حتى

ص:47

1- (1) وهكذا تحولت الهند - قبل تحررها - واستراليا ورأس الرجاء الصالح الى مخازن هائلة من الصوف والقطن لبريطانيا واليك ارقامها على سبيل النموذج: القطن المصدر من الهند الى بريطانيا (بالارطال): 143....1846 ر 540 ر 34168....1860 ر 141 ر 204690....1865 ر 947 ر 445 الصوف المصدر من الهند الى بريطانيا (بالارطال): 581....1846 ر 570 ر 4173....1860 ر 214 ر 20111....1865 ر 679 ر 20 الصوف المصدر من رأس الرجاء الصالح الى بريطانيا (بالارطال): 457....1846 ر 958 ر 2345....1860 ر 574 ر 161865.... ي 623 ر 920 ر 29 الصوف المصدر من استراليا الى بريطانيا (بالارطال): 346....1846 ر 789 ر 21616....1860 ر 166 ر 59261....1865 ر 734 ر 109 (رأس المال كارل ماركس: 207/2-208).

يفصلها الى مراكز صناعية او مخازن زراعية وذلك هو الاستعمار الذى يوزع مقادير البلاد تفاصيل... تفاصيل... ليبدد قواها ويبعثر خيراتها كما يسول له عملاق المادة ومردة الشياطين ليسهل له استغلالها ابشع استغلال.

اخطاء الرأسمالية:

لا يسعنا - الان - أن نسطر جميع الاخطاء التى يحفل بها هذا النظام باسهاب وإلا لخرجنا عن نطاق الكتاب ولكن نسجل بعض النقاط كنماذج.

مصدر الاخطاء:

أول خطأ يبعث على أخطاء فى النظام الرأسمالى: ان الاقتصاديين الرأسماليين لا يؤدون مسؤولية النظام الاقتصادى، وانما يؤدون مسؤولية علم الاقتصاد.

ذلك ان علم الاقتصاد يبحث عن كيفية انتاج السلع والخدمات وتحسينها ومسؤولية النظام الاقتصادى انما هى توزيع السلع والخدمات على حاجات الافراد فرداً.. فرداً.

وهؤلاء لا يؤدون الا مسؤولية علم الاقتصاد أى يوفرون وسائل الاشباع ويعلقون مسؤولية النظام الاقتصادى على عاتق الافراد فعليهم ان يحصلوا وسائل الاشباع.

نحو الانتحار:

ثم لا ينظمون المجتمع - من الناحية الاقتصادية - كما يجب ان يكون وانما يطلقون المجتمع ليسير نحو الانتحار، فانهم يعتبرون السلع والخدمات نافعة لمجرد وجود من يرغب فيها ويبدل بازائها الاموال أو الجهود، وهذا غير صحيح

ص:48

، بل يجب اعتبار الاشياء نافعة اذا كانت فى الحقيقة نافعة، فالخمر، والقمار، ولحم الخنزير، والربا مما يضر المجتمع فلا يصح اعتبارها نافعة لانها تجلب الاموال(1) وقد ارغمت احصاءات ضحايا الخمر الحكومة الامريكية على منع الخمر، غير ان محاولاتها بائت بالفشل الذريع(2) لان الفكرة المادية السائدة على

ص:49

1- (1) وقد نتج من هذا التفكير المادى ان اصبحت المجتمعات الرأسمالية على شفير الهاوية فقد أخذ الناس يمارسون المكاسب الحمراء ويسلكون الطرق الملتوية الرهيبة والفاجرة فى سبيل المال إلى حيث اتسموا بطابع الامراض البدنية والاجتماعية وأصبح الجو موبوءاً متسمماً ينذر بالفناء الباكر، واليك هذه الحقائق المدهشة: 1- إن عدد الامريكيين الذين ينتحرون يفوق عدد الذين يموتون بالامراض على اختلافها. 2- تدل الاحصاءات فى امريكا: ان كل 30 دقيقة يقع حادث إنتحار، وان فى كل 120 ثانية 2 دقيقة يصاب شخص بالجنون. 3- الثابت: أن شخصاً واحداً من كل ثمانية أشخاص يموت بالسرطان. 4- أثبت معهد الخدمات الاجتماعية: ان 13% مصابون بأمراض نفسية، وان 26% منهم مصابون بخلل عقلى.

2- (2) منعت حكومة امريكا الخمر وطاردتها فى بلادها واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة كالمجلات، والجرائد، والمحاضرات، والصور، والسينما،. لتهجين شربها وبيان مضارها ومفاسدها. ويقدرون ما أنفقته الدولة فى الدعاية ضد الخمر بما يزيد على 60 مليون دولاراً وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على 10 ملايين صحيفة وما تحملته فى سبيل تنفيذ قانون التحريم فى مدة 14 عاماً مما لا يقل عن 250 مليون جنيهاً، وقد أعدم فيها 300 نفس وسجن 532335 نفس وبلغت الغرامات إلى 16 مليون جنيهاً وصادرت من الاملاك ما يبلغ 404 مليون جنيهاً،. ولكن كل ذلك لم يزد الامة الامريكية إلا غراماً بالخمر وعناداً فى تعاطيها، حتى اضطرت الحكومة سنة 1933 إلى سحب هذا القانون وإباحة الخمر فى مملكتها إباحة مطلقة (تتقيحات: ابو الاعلى المودودى).

الشعوب الرأسمالية لا تسمح للأفراد ان يتخلوا عن الخمر ماداموا يعرفونها نافعة.

تحديد الحاجات:

إن تقديس حاجات الانسان سواء أكانت حاجات ضرورية أم كمالية وتقرير الحق لكل فرد في إشباعها اشباعاً كاملاً غير صحيح! فالمشكلة التي يعالجها النظام الاقتصادي ليست هي إشباع مطلق الحاجات وإنما المشكلة الأساسية التي يجب معالجتها فوراً وقبل كل شيء هي إشباع جميع الحاجات الضرورية لجميع الافراد فرداً فرداً إشباعاً كلياً، فإذا تمت معالجة هذه المشكلة يأتي دور التفكير في إشباع قسم معين من الحاجات الكمالية. أما حاجة الفرد إلى الخمر، والرقص، والغناء، والبغاء فهي ليست بحاجة وإنما هي شهوة جامحة يجب كبتها حرصاً على إشباع الحاجات الضرورية للآخرين وحماية للاجتماع.

ولو أطلقنا حق إشباع الحاجات الكمالية كلها لبقيت الحاجات الضرورية لأكثر الناس معطلة كما هي الآن.

إطلاق التجارة لا يشبع الحاجات:

وإطلاق التجارة والتنافس الحرلا ينهضان بإشباع الحاجات إلا بعد:

1 - تحديد الحاجات ب - : (الحاجات الضرورية لجميع الافراد، - في الدرجة الاولى - ثم المساعدة على إشباع قسم معين من الحاجات الكمالية - في الدرجة الثانية -).

2 - تحديد وسائل الاشباع ب - : (ما يشبع الحاجات الضرورية، أو ذلك القسم

ص:50

المعين من الحاجات الكمالية) والمنع الحاسم الفكرى والجزائى من إنتاج غير هذه الوسائل.

ولو لا ذلك لا نصرفت السلع والخدمات عن حاجات الاكثرية السحيقة وتضاعفت لتوفير وسائل الاشباع الكمالية وازدياد الدخل الاهلى وثروة البلاد، كما نجد الان وسائل الاشباع تحوم وتتساقط على موائد المترفين والجماهير ترزح تحت كابوس الفقر والحرمان رغم التجارة المطلقة والتنافس الحر.

الحاجات المتجددة:

وأما مايزعمون: أن الحاجات المتجددة تتضاعف وترتقى مع المدنية والحضارة والمنافع المنتجة لا تتكفل إشباعها اشباعاً كلياً فتولد المشكلة الاقتصادية الندرة النسبية للسلع والخدمات بالنسبة الى الحاجات العامة. فهو غير صحيح! لان الحاجات الاساسية لا تتجدد أبداً وإنما تتجدد الحاجات الكمالية، والقسم الاوفر من الحاجات المتجددة حاجات كاذبة يجب اهمالها - كما مر عليك - والقسم الاخر من الحاجات المتجددة ليس من الضرورى اشباعه ولو بقيت جائعة.

فليس هذا أساس المشكلة الاقتصادية. والحاجات التى تكون محتمة الاشباع هى الحاجات الضرورية المحدودة التى لا تنمو ولا تتزايد والاموال والجهود الموجودة فى العالم تكفى لاشباعها اشباعاً تاماً، وإنما المشكلة الاقتصادية هى كيفية توزيع الاموال والجهود على الحاجات.

ص:51

غلطة فى التحديد:

ثم ان تحديد الحاجات بالحاجات المادية خطأ سافر! فان أشد الحاجات الحاحاً على الانسان هى الحاجات المعنوية، فان حاجة الفرد الى الدين(1)، والحرية، والثقافة، والسلام، والتقدير حاجة استكمالية تسلح الفرد لمكافحة الكوارث ومقاومة العقبات ولو لا اشباعها انقلبت حياة الانسان الى اتون مسعور.

الأيدي العاطلة:

ولقد قرر النظام الاقتصادى الرأسمالى: إن إطلاق التجارة، والتنافس الحر يقضيان على الأيدي العاطلة، غير أن الفكرة المادية التى تبناها الاقتصاد الرأسمالى هى التى ابتدعت الآلة، إستخدمت النساء والأطفال بأجور بخسة، فاستغنى أصحاب الثروات عن العمال حتى أصبح العامل يرى نفسه مخيراً بين أن لا- يعمل أو يعمل طويلاً بأجور متهاودة، وهكذا رفض قسم من العمال العمل، كما بقى الآخرون يعملون بكل تبرم وقنوط. وقد دلت الإحصاءات على: أن 8 ر 7 من القادرين على العمل فى الريف يعتبرون قوة معطلة لانهم لا يعملون ولا يبحثون عن عمل سواء لعدم رغبتهم فيه، أو لا استغنائهم عنه، أو لعدم قدرتهم على الدخول فى ميدانه.(2)

ص:52

1- (1) وللتدليل على ذلك اقرأ كتاب: دع القلق وابدأ الحياة، تأليف: (ديل كارينجى)، تعريب: عبد المنعم الزياى، ص 279-303.

2- (2) الاسلام والطاقات المعطلة: 15.

كما دلت تقارير وزارة الصناعة على: أن 76% من طاقات العمال عندنا معطلة لعدم الكفاءة.(1)

وعدم الكفاءة ليس من ركائز الانسان الفطرية، وإنما هو رد الفعل الطبيعي عن ضئولة الاجور وعنف الاعمال.

الطاقات المعطلة:

والنظام الاقتصادي الرأسمالي اكد: أن استخدام الخامات وتحويلها ألى بضائع نافعة لا يكون الا باطلاق التجارة الحرة، وذلك أن صدق في بعض حين فانه لا يصدق في اكثر الاحيان لان في بلادنا - مثلاً - توجد الخامات من كل شىء والتجارة رأسمالية حرة، وبعد ذلك فنحن نستورد من الخارج كل شىء حتى اللحم، والسمك، والماء المقطر، ومرق اللحم، وطبيخ الارز!! أما الخامات فانه تبقى لدينا مهمة حتى تبور أو تصدر إلى الخارج بأبخس الاثمان.

وقد ثبت للساهرين ان الدول المستعمرة ربحت من نفطنا عام 1955 ما يساوى (000 ر 000 ر 000 ر 500 خمسمائة الف مليون) دولاراً أمريكياً!! وقد تضاعف فيضان الابار، كما انفجرت ابار جديدة، فكان ربح المستعمرين كل عام يربو على: (000 ر 000 ر 900 تسعمائة الف مليون) دولاراً أمريكياً!!(2) أما نصيب المسلمين من نفطهم فليس إلا فتاتاً من موائد المستعمرين توزع على

ص: 53

1- (1) نفس المصدر: 13.

2- (2) الدكتور سعيد محمد عودة: رسالة الثروة المعدنية: 9.

الملوك والامراء ثم على الموظفين, أما الوطن الاسلامى الكبير فلا نصيب له منه.

كل ذلك سوى عائدات الذهب، والفضة، والكبريت... وسائر المعادن والخامات التى تصب أرباحها السخية فى مصارف المستعمرين وترش القطرات فى بلادنا ثم لا تأتى إلى بلادنا وإنما تجمد - باسم الامانة - فى بنوك المستعمرين حتى أصبح لكويت وحدها فى مصارف لندن نحو: (000 ر 000 ر 700 سبعمائة مليون جنيهاً استرلينياً).

والامثلة لمصادرالثروة المعطلة لدينا كثيرة، فكل شىء عندنا طاقة معطلة.(1)

قصور الثمن:

يقول الاقتصاديون الرأسماليون: ان الثمن هو الدافع الوحيد نحو الانتاج لأن الحافز على بذل أى مجهود انما هو الحصول على ثمنه، أو بدله المعادل بالثمن, فالثمن هو الهدف من الانتاج.

ص:54

1- (1) قمامة القاهرة وحدها تستطيع ان تحصل منها على 275000 ماتتين وخمسة وسبعين ألف طناً من السماد كل عام, وبرغم هذا فان الدولة قد اعتمدت منذ ثلاث سنوات مليون جنيهاً لاقامة مصنع لحرق القمامة. ان الدولة تسمح بتصدير قرون الحيوانات وحوافرها مع ان هذه البقايا تحتوى على 65% من المواد العضوية. ان صناعة عصر الزيوت فيها طاقات معطلة بنسبة 60% أما صناعات المسلى، والحلوى، والطابوق فنسبة العطل بها 74%. (الاسلام والطاقات المعطلة): محمد الغزالي ص 15-20.

وهذا الكلام ينم عن مدى ضيق، والاتجاه المادى فى الفكرة الرأسمالية، ولم أدر؟

ألم يسمع الاقتصاديون بأناس يصلون ويصومون ويحجون ويزكون ويخصصون انتاجهم للجهات الخيرية، لله، والجزاء الاخرى فقط؟ أو لم يقرأوا تواريخ العظماء الذين بذلوا فوق المستحيل من الجهود لا لآى ثمن أو جزاء مادى؟ ألم يبلغهم ان (جون روكفلر) خدم البشرية بأكبر ثروة جمعها انسان(1) وأن (اندرى كارنيجى) وهب الجمعيات الخيرية (365 ثلاثمائة وخمسة وستين) مليوناً من الدولارات(2) ثم لم يحصلوا من وراء ذلك سنتاً من الثمن المادى؟؟

أم غاب عنهم أن رجال الاعمال يكدحون ليدفعوا الضرائب الجائرة بلا بدل؟ فلو كان الدافع الوحيد على بذل أى مجهود مكافئته المادية لما سخرى هؤلاء بجهودهم ونفس الاثمان التى يعتبرونها الحافزة على الانتاج.

توزيع جائز:

ينص النظام الاقتصادى الرأسمالى على أن الثمن هو المنظم لتوزيع الاعمال على الافراد، فان القانون المقرر (من لا يعمل لا يأكل) يحفز كل فرد على العمل ليحصل الثمن فيحصل بازائه ما يأكل، وهكذا توزع الاعمال على الافراد كل حسب طاقاته الانتاجية.

ص:55

1- (1) دع القلق: 412-421.

2- (2) نفس المصدر: 217

وهذه الفلسفة الافلاطونية مثالية اكثر مما هي واقعية لانها - بالفعل - لم توزع الاعمال كما كان يحلم به القادة المبدئيون من أصحاب هذه الفكرة. فانا نرى اليوم فى البلاد الرأسمالية من يعمل كثيراً ثم يقتات الجوع والتعب, ومن لا يعمل إلا قليلاً ويعيش فى بلهنية ورخاء, وهذا اكبر شاهد على مثالية هذه الفكرة.

ثم انها تقرر أن لا يستحق الحياة إلا من كان قادراً على الانتاج فمن خلق ضعيفاً, أو أذاحت الظروف المعاكسة عن العمل فليس له أن ينال من ثروة البلاد ما يطارد عنه الموت(1) أما من خلق قوياً, أو أتاحت له الظروف المؤاتية ان يختصر جهود الناس فى موائده ويتوسع فى الحياة والاحتكار, فله كل الحق فى التخممة والسيطرة والسيادة, وكذلك من يحجزه الوازع الدينى أو القيم الخلقية أن يستنزف الدماء والدموع فهو فاشل مترهب متهادن عن خوض معترك الحياة فعليه أن يبقى حليف التقشف والحرمان, ومن سمحت له القحة السافرة أن يدرس الدين والضمير وينازع الفرص للتطاول والانتهاز ويكرس بين يديه من

ص:56

1- (1) فى عام 1530 قرر (هنرى) الثامن ما يلى: على المتسولين المتقدمين فى السن والعاجزين عن العمل أن يتناولوا رخصة للتسول. (كارل ماركس، رأس المال: 268/3). ويقول ماركس: إن التقرير الاسبوعى الرسمى عن الوفيات يعدد خمس حالات من الموت جوعاً فى لندن وذلك فى الاسبوع المنتهى فى 26 شباط 1864 م وتورد (التايمس) فى اليوم نفسه حالة مماثلة إضافية. (نفس المصدر: 241/2).

فائض البغاء والفجور اكوام الفضة والنضار, فهو بطل الحياة النابغ وإنسان قرن العشرين الذى لابد أن يطوق بهالة من الاكبار والتقدير, وقدر بنفسك مقدار الصحة فى هاته الفكرة العاتية المتمردة على نواميس الانسانية الكافرة بالحياة وقيمها النبيلة.

موضوع الثمن:

والاقتصاديون الرأسماليون يقدررون الثمن معدل المجهودات التى يقدرها الافراد إلى الافراد وهذا غير صحيح لأننا نرى الناس يبيعون الخامات التى لم يعملوا على تحسينها, بل الثمن قد يكون معدل الجهود وحدها كالأجور التى يتقاضاها العمال والمستخدمون، وتارة يكون معدل الخامات فقط كالأثمان التى يأخذها أصحاب الخامات وربما يكون الثمن معدل الجهود والخامات معاً كالأثمان التى يأخذها الباعة فاذاً ليس الثمن معدل المجهودات وحدها.

أسعار باهضة:

كما ان ميكانيكية الثمن تقصر عن تعديل الاسعار والتنافس الحر لن يضمن ذلك أبداً لأن الشركات التى لا تجد منافساً لها، تستغل حاجة الناس إليها فترفع بثمان إنتاجها إلى أرفع مستوى, والشركات المتنافسة تتفق على سعر جائر ونهم التجار يقضى على التنافس الحر - ولو إلى درجة - والمنتجون الكبار لا يخوفون بقله الطلب ثم الخسارة لأن الحاجة ترغم الافراد على الطلب مهما كانت الاسعار - وإن كان يقل نسبياً -.

ص: 57

ثم لا ترهبهم الخسارة مهما كانت بالغة لأنها لا تؤثر في ثروتهم المكدسة. والان يوجد فى الهند اناس مترهلون يملكون الاراضى الشاسعة ولا- يزرعون إلا-قسماً منها ويدعون الباقي مرتعاً خصيباً للهوهم وصيدهم والتنزه فى أوقات الفراغ ومسرحاً رحيباً للشمس والقمر والوحوش... ولا تهدد الخسارة من رعوتهم العريضة.

وأما أصحاب الشركات الكبرى كشركات البترول والسيارات والمصانع الثقيلة والاحتكارات العالمية فانهم يتحكمون فى الاسواق ويفرضون على المستهلكين أثماناً معينة، ثم لا تهمهم ندرة الطلب فى بلادهم أو فى الاسواق العالمية لأنهم يصرفون بضائعهم فى مستعمراتهم بأى ثمن شاؤا، ولأن الاحتكار يلجىء الناس إلى الرضوخ لهم.

لذلك جرت محاولات لترفيح الاقتصاد الرأسمالى، فجعلوا للدولة الحق فى تحديد الثمن لحماية الاقتصاد الاهلى والمستهلكين، من سلطة المحتكرين، غير أن الرجال الماليين اشترىوا ضمائر المسؤولين وملئوا أفواههم بالرشى وردوا أصوات الشعب إلى صدورهم. ثم إن تحديد الاسعار من قبل الدولة يناقض الخط العريض فى النظام الرأسمالى الديمقراطى وهو حرية الاقتصاد.

هذا بالنسبة الى السلع، أما الخدمات العامة فقد أصبحت غير قابلة لتحديد أسعارها فى البلاد الرأسمالية، فالموظفون الكبار يرفعون رواتبهم يوماً بعد يوم لأنهم يتولون دفة الحكم، وليس هناك من دين أو ضمير يحاسبهم عليه والاطباء والجراحون يقدرون (المعاينة) و (القدمية) و (العملية الجراحية) بما يشاؤون،

وكثرة المرضى وثقتهم بهذا أو ذاك لا- تدعان مجالاً للتنافس, كما سار على نفس الخطة المحامون, والمهندسون, والكُتاب, والمعلمون.(1)

اجور متهاودة:

وقد عجز جهاز الثمن عن توفير اجور العمال والمستخدمين, فبعدهما تمخض العلم عن ميلاد الالة التي استقلت بأفدح الاعمال. إستغنت الشركات عن قسم كبير من العمال وعن العمال الرجال بالنساء والاطفال حتى أصبح التنافس بين العمال على العمل, بينما الغى التنافس بين أصحاب الاعمال على العمال, فرضى العامل بالاجر الزهيد لأنه خير من البطالة, وأخذ صاحب العمل يدلل ويماكس لأن العامل لا يثق أن يجد غيره من الاعمال وصاحب المعمل متأكد أن فى كل يوم يعرض عليه عدد من العمال وقد إستعصت المشكلة وتفاقم الامر بعد ما دخلت النساء والاطفال فى المعمل باجور ضئيلة فهب أصحاب المعامل لاشغال النساء والاطفال لقلة اجورهما وللرغبة الذاتية فيهما.

هكذا اصيب العمال والمستخدمون بضئولة الاجور دون أن يزيحها جهاز الثمن الذى علق عليه الاقتصاديون الرأسماليون امالهم, واكبر شاهد على ذلك: انك تجد كل يوم فى كل صحيفة أو إذاعة إضراب العمال ضد قلة الاجور.

ص:59

1- (1) يتحدث عن هذا الامر (جون بيللرز) عنه يقول: (إن المعلمين والعمال من سوء الحظ يخوضون حرباً أبدية ضد بعضهم بعضاً, فالعمال لا هدف لهم إلا إنجاز العمل بأخس ثمن ممكن, فيما الاخرون ينتهزون كل فرصة تسمح لهم بالمطالبة باجور أرفع).

واكتفى الان بنقل هذه الصفحات من كتاب (رأس المال)⁽¹⁾, (حين تجعل الالة القوة العضلية شيئاً عديم الجدوى تسمح باستخدام عمال لا يتمتعون بقوة عضلية كبرى، لكن أطرافهم تكون اكثر مرونة بقدر نقص نموها، وعندما استولى رأس المال على الالة كان شعاره هو التالي: عمل النساء، عمل الاطفال، وهكذا فان هذه الواسطة الجبارة لا تقاوم جهود الانسان قد تحولت فى الحال إلى واسطة لزيادة عدد المأجورين، لقد أحت سائر أفراد العائلة تحت عصا رأس المال دون تمييز للسن أو الجنس. إن العمل الاجبارى لحساب رأس المال قد سلب لا مكان ألعاب الطفولة فحسب، بل مكان العمل الحر البيتي تأمين معيشة العائلة، ولا ننس ان القاعدة الاقتصادية للعادات العائلية لم تكن سوى هذا العمل البيتي.⁽²⁾

ص:60

1- (1) رأس المال: كارل ماركس, ج 2 ص 120-122.

2- (2) حيث كانت الاعمال تستغرق جميع نشاط الافراد، حتى لم تكن المرأة تتمتع بفراغ تقوم فيه بالاعمال البيتية أو العائلية، وقد أرسلت الحكومة الانكليزية فى الازمة القطنية التى رافقت الحرب الاهلية الامريكية الدكتور (ادوارد سميث) إلى (لا نكشير) و (شيشير) و... كى يضع تقريراً عن حالة العمال الصحية، وتقرأ فى هذا التقرير: (تتحلى الازمة بمحاسن عديدة، فان لزوجات العمال - الان - مايكفى من الوقت كى يعطين أئدائهن لولدانهن. وكذلك فقد وجدن الوقت كى يتعلمن فن الطهى) وإنك تلمس مدى إستبشار هذا الدكتور لظفر النساء بهذا الوقت المحدود وهذا يكشف عن مدى قسوة العمل قبل ذلك.

ولقد كانت قوة العمل محدودة بتكاليف معيشة العامل وعائلته، ولكن الآلة حين القت بالعائلة جمعاء فى السوق ووزعت هكذا قيمة قوة واحدة على قوى عديدة قد انقصت من قيمة تلك القوة ويمكن ان تدر القوى الاربع مثلاً التى تبيعها العائلة العمالية الان ربحاً اكثر مما كان يجنيه من قبل رب هذه العائلة بقوته وحدها، ولكن اربعة ايام عمل قد قامت كذلك مكان يوم واحد وانخفضت اسعارها بنسبة زيادة العمل الفائض الذى تحويه الايام الاربعة إلى العمل الفائض الذى يحويه يوم واحد. ومن الضرورى الاونة أن يقدم أربعة أشخاص لرأس المال لا العمل فحسب، بل العمل الفائض ايضاً، كى تتمكن عائلة واحدة من تأمين مواردها. وهكذا فان الآلة حين تزيد المادة القابلة للاستثمار تزيد درجة الاستثمار فى الوقت ذاته).

خسائر وجرائم:

ولقد أدى دخول المرأة والطفل والآلة، فى المعمل إلى الخسائر التالية:

اضرابات ضد الآلة:

إن العمال - بطبيعتهم - يؤدون الجهود والخدمات الكافية لاشباع حاجات المجتمع، وفى نفس الوقت يعيشون باجورهم وتبقى لهم الحرية فى العمل لهذا أو ذاك، أو الاستقلال بالعمل، أما إذا دخلت الآلة فى المعمل فسوف لا يتوفر لهم العمل مهما أرادوا، ولمن شأوا، وقد أحس العمال بذلك ولهذا كرهوا الآلة وقاموا ضدها بحروب لا هوادة فيها.

ففى عام 1629 م فى (لييد) إستعملت الآلة للنسيج فأجبرت المظاهرات

ص: 61

القضاة على تحريمها. وقد خشى الحاكم أن يحول هذا الاختراع عدداً كبيراً من العمال إلى مجرد متسولين⁽¹⁾, فدمر الآلة وخنق مخترعها، أو أغرقه!

وفي القرن السابع عشر قامت عصيانات عمالية في أوروبا بأسرها تقريباً ضد الآلة لنسج الأشرطة والذنتلة، وقد حرمت نفس الآلة في (كولونيا) عام 1676 م وأدخلت في إنكلترا فأثارت اضطرابات عمالية كبيرة بين عمال النسيج وصدر مرسوم إمبراطوري عام 1685 م يحرم استخدامها في كل ألمانيا، وفي (هامبورغ) أحرقت أمام الملاء بأمر من الحاكم، وعندما ركب (إيفريت) عام 1758 م الآلة المائية لجزج الصوف فإن مائة ألف رجل جعلتهم هذه الآلة عاطلين أحالوها هباءً منثوراً، وإن خمسين ألف عامل يكسبون معيشتهم من طريق تمشيط الصوف أرهقوا البرلمان بعرائضهم المناهضة لآلة التمشيط والتجىء العمال إلى تدمير الآلات عديدة في المناطق (المانيفاكتورية) الانكليزية في السنوات الخمس عشرة الأولى من القرن التاسع عشر، وفي (شيفيل) عام 1865 م قامت ثورة عمال صقل المبادر ضد الآلة تؤدي نفس العمل، وكذلك تابعت ثورات العمال ضد الآلات بين فترة وأخرى.⁽²⁾

ص: 62

1- (1) وكذلك انقلب العمال بصورة جماهيرية إلى متسولين، ولصوص، ومشردين حتى اضطرت السلطات إلى مكافئة هذه التحولات الفجائية التلقائية بفرض العقوبات الدامية، ولكن عبثاً كان ذلك.

2- (2) نفس المصدر: 170/2-173.

لقد إستمر الصراع بين العامل والآلة غير طويل حتى انتصرت الآلة على العامل(1) واستقرت المكائن في قلب المدن وأخذت تصك الاسماع بهديرها الصاخب وتلفظ دخانها في أجواز الفضاء بكل جرئة وإعتزاز وذابت غلواء العمال أمام روعة هذا الكائن القدير.

هنا عرف أصحاب رؤس المال ان لا حاجة لهم إلى العمال الفنيين الذين يجيدون الاعمال ويتقاضون بأزائها اجوراً متكافئة، فالآلة تسمح لصبي صغير لا تجربة له بتشغيل نول كامل بسائر مكائنه، وما دام في المعمل مهندسون فلا يضر جهل العمال بعد ذلك، وكذلك جعلوا ينتدبون للمعمل الفلاحين الذين كانوا ثائرين على الاقطاع منذ زمن بعيد، والنساء اللواتي سلخ رأس المال دينهن وضميرهن وصور لهن الحياة معماً كبيراً والاطفال الذين لم يبلغوا الحلم ولم يعرفوا من الحياة إلا الدراهم اللماعة واخذوا يغرون الفلاحين بالعمل تحت شعار التحرر من عبودية الاقطاع والنساء باسم الانطلاق من سيطرة الرجل وتحطيم كبت الرجعية والقبور السوداء... والاطفال باسم الدراهم والدنانير والعمل والمعمل وفيهما للطفل كل إغراء. كل ذلك لأن الفلاح تعود أن يعمل طويلاً ويربح قليلاً والمرأة مرنت على ان تعمل دون ان تتقاضى شيئاً وكذلك الطفل فيمكن إستغلال هؤلاء في الاعمال الطويلة بأقل اجر ممكن ولم يحسب

ص:63

1- (1) ولا يعنى تسجيل هذه الملاحم أننا لا نرضى باستخدام الآلة، ونحبذ: ان يستبد الناس بالاعمال اليدوية، وإنما ننكر سوء إستغلال رأس المال للآلة.

الفلاح ولا الطفل ولا المرأة هذا الحساب, والعمال الذين عرفوا هذه الحقيقة فشلوا في مقاومة الالة أول الامر فلم يفعلوا الان شيئاً وخلدوا إلى الخنوع، غير أن قسماً منهم رضخوا للعمل بمثل اجور الفلاح التي كانت أرفع من اجور المرأة والطفل قليلاً والقسم الآخر ألفوا عصابات إجرامية وأخذوا يذرعون الشوارع ويملئون المقاهى والحانات ثم السجون.

وبذلك اصيب العمال بفداحة العمل، فقد كان عليهم أن يعملوا طويلاً باجور هزيلة كما يقول ماركس:

(.. ليس من النادر أن نرى في نوتنجهام خمسة عشر أو عشرين ولداً مكديسين كالسردين في غرفة صغيرة لا تزيد مساحتها عن - 12 - قدماً مكعبة وهم منهمكون طوال خمس عشرة أو أربع وعشرين ساعة في عمل مرهق الرتابة وفي ملء هذه الظروف الضارة بالصحة وحتى اصغرهم سناً يشتغلون بانتباه مركز وسرعة تبعثان على الدهشة وهم لا يسمحون مطلقاً لأصابعهم بالتوانى أو الراحة.

وإذا وجهت إليهم بعض الاسئلة فهم لا يرفعون عيونهم عن عملهم وذلك خوفاً من خسارة برهة وجيزة من الوقت(1)..).

فالعمال عليهم أن يستمروا عبر هذه الاوقات الطويلة خمس عشرة أو أربع وعشرين ساعة في عمل مرهق الرتابة وفي اماكن ضيقة تحت الارض أو فوقها

ص:64

يلتهم الغاز فيها الاوكسجين إلتهاما، كما يتحدث عن ذلك المفتش (لورد) قائلا: (.. إن الشعور الذى ينتاب المرء لدى دخوله فى مثل هذا المكان، حيث يشتغل ثلاثون أو أربعون عاملة معاً لهو شعور لا يطاق فى الحقيقة، وإن الحرارة الصادرة من الافران التى تسخن المكاوى فيها لترسل القشعريرة فى البدن، وحتى فى الورشات التى يسودها عمل يقال عنه إنه معتدل يعنى من الثامنة صباحاً حتى السادسة مساءً فإن ثلاثة أو اربعة أشخاص يغمى عليهم بصورة منتظمة يومياً. (1)

قلة الاجور:

أما قلة الاجور فكان أثراً طبيعياً لاستخدام الفلاحين والنساء والاطفال تحت قيادة النظام الرأسمالى حتى اصبح مرتب العامل الواحد يقصر إعالة نفسه فقط، أما عائلته فكان على افرادها ان يعملوا فيأكلوا، وهذا ما شجع على تحطيم الاسرة وتفكيك عناصرها.

وفى الحقيقة كان استخدام الرأسمال للنساء والاطفال يبذل جوهر العقد الذى كان شرطه الاول تقدم الرأسمالى والعامل وجهاً لوجه بصفتهم شخصين حرين كلاهما تاجران يملك احدهما المال أو وسائط الانتاج ويملك الاخر قوة العمل. لقد انقلب هذا العقد كله رأساً على عقب فأصبح استخدام النساء والاطفال اشبه بشرائهم واخذ الطلب على عمل الاولاد كثيراً ما يشبه - حتى فى

ص:65

وفى مقاطعة (بنتال غرين) وهى اسوأ مناطق لندن شهرة تقام كل يوم اثنين وثلاثاء سوق عامة يبيع اطفال فى التاسعة - من الجنسين - انفسهم لأرباب عمل الحرير، ويقول احد الاطفال فى افادته عن شروط عمله الاسبوعى: (ان الشروط العادية هى شلن واحد وثمانية بنسات اسبوعياً (تعود للابوين) زانداً شلنين لى مع الشاى).

ويحدث فى انكلترا - ايضاً -: ان بعض الشحاذاات الاناث يأخذن اولاداً من الملاجىء ويؤجرنهم لأى شار كان مقابل شلنين وستة بنسات فى الاسبوع⁽¹⁾، وكلما فرض القانون حدود الست ساعات لعمل الاطفال فى فروع الصناعة غير الخاضعة للانظمة ارتفعت من جديد شكاوى ارباب العمل وهم يقولون: ان عدداً كبيراً من الاباء يسحبون ابنائهم من الصناعات منذ خضوعها للقانون كى يبيعوهم للصناعات حيث يسود بعد (حرية العمل) يعنى حيث يجبر الاولاد الذين دون الثالثة عشرة على العمل مثل البالغين وبالتالي يباعون بثمان اكبر، ولكنه لما كان رأس المال مسوياً للفوارق بطبيعته فإنه يطالب باسم حقه الطبيعى ان تكون شروط استثمار العمل متساوية بالنسبة الى الجميع فى سائر مجالات الانتاج. وهكذا فان التمديد القانونى لعمل الاطفال فى احد فروع الصناعة يؤدى الى تحديده فى الفروع الاخرى.⁽²⁾

ص:66

1- (1) نفس المصدر: 124/2.

2- (2) نفس المصدر: 125/2.

ولم تختلف كثيراً الاتفاقات مع الرجال والنساء عن الاتفاقات مع الاطفال.

حوادث وفجائع:

وقد اصيب العمال من الجنسين على اثر ارهاق العمل وضوالة الاجور بأزمة إقتصادية وصدمة صحية بعيدة الاثر في حياتهم، غير ان ضحايا الاطفال كانت اكثر واكثر لطفولة عضلاتهم ومرونة قوائمهم الوانية عن مقاومة الارهاق الدائب.

نكتفى هنا بالوقوف على نقطة واحدة هي النسبة العالية لوفيات ابناء العمال في السنوات الاولى من حياتهم، ففي إنكلترا 16 مقاطعة تجرى فيها الاحصاءات حيث لا تقع في السنة سوى 9000 حالة وفاة وسطياً من أصل 100 ر 000 طفل!

ونجد في 24 مقاطعة أن هذه النسبة تبلغ: 10-11 ألف وفاة، وفي 39 مقاطعة 11-12 ألف وفاة، وفي 48 مقاطعة 12-13 ألف وفاة، وفي 22 مقاطعة اكثر من 22000 وفاة، وفي 11 مقاطعة اكثر 23000 وفاة.

وفي مناطق (هو) و (ولفرهامبتون) و (برستون) اكثر من 24000 وفاة، وفي مناطق (نوتنغهام) و (ستوكسبورت) و (برادفورد) أكثر من 25000 وفاة، وفي مقاطعة (ويسبيتش) 26000 وفاة، وفي (مانشيستر) 26125 وفاة. (1)

وقد أثارت هذه النسبة العالية للضحايا هيجة سارية الجئت الحكومة إلى

ص:67

1- (1) نفس المصدر: 125/2.

تحديد عمل الاولاد قبل الثالثة عشرة ب - 6 ساعات فقط. غير أن هذا التحديد لم يحد من جشع الرأسماليين، فالكثيرون لم يخضعوا لهذا التشريع نهائياً مستترين بألفاظ وأسماء والآخرين جعلوا يشترطون ضمانات الاطباء المكلفين بالتحقيق عن أعمار الاحداث فى المعامل فكانت التقارير تتفق مع المواد القانونية عندما كان الواقع يكذبها، لكن الاطفال ربحوا بعض شىء عن هذه الضجة الصاخبة وخفت فيهم نسبة الوفيات والامراض نسبياً. غير أن المرأة لم تجد لها نصيراً فظلت تعمل إلى جانب الرجل وتأخذ اجور الاطفال(1) رغم ان قواها الجسدية كانت تقصر عن قوى الرجل.

وهكذا خسرت صحتها(2) واسرتها دون ان تربح شيئاً.

ص:68

1- (1) والفتيات المشتغلات لا يتناولن سوى شلن أو شلن ونصف يومياً، بينما الرجل يتناول شلنين ونصف الشلن (الرقم 1816) (نفس المصدر: 283/2).

2- (2) إن المصايين بالسل من أصل 886 عاملة دنتلة تتراوح أعمار معظمهن بين 17-24 تحصيها اللوحة التالية للدكتور (ترومان) طبيب المستوصف العام فى (نوتنجهام): 1852 100000 على 45 1857 100000 على 131853 100000 على 28 1858 100000 على 151854 100000 على 17 1859 100000 على 91855 100000 على 18 1860 100000 على 81856 100000 على 15 1861 100000 على 8 (نفس المصدر: 232/2).

فالفتاة التي تستنزف نشاطها وطاقاتها في المعمل تقصر عن القيام بفرائض الزواج وإنجاب الاطفال.

والرجل الذى ينبراتبه عن إعالة نفسه يجمع عن النهوض بواجبات الزواج وتكاليف الاسرة ونفقاتها الدائمة مهما كلفه الامر خصوصاً وكلاهما يجدان فى نفس المعمل أو خارجه ما يشبع الرغبة الجنسية، كما يسجل هذه الملحوظة العامة الدكتور (سيمون): بالرغم من كون وجهة نظرى الرسمية هى صحية تماماً فان أبسط العواطف الانسانية لا يمكن أن تسمح بتجاهل المظهر الاخر للشرة، ذلك أنه (فرط الزحام) يتضمن بالضرورة - تقريباً - فى درجاته العليا إنكاراً مطلقاً لكل حياء وإختلاطاً قذراً للابدان والوظائف البدنية وعرضاً للعرى الحيوانى والجنسى هى قمينة بالوحوش بالاحرى من الانسان. وإن الخضوع لمثل هذه التأثيرات يشكل إنحطاطاً لا بد أن يصير أعمق فأعمق بالنسبة إلى اولئك الذين يستمر فعلها فيهم، وأما الاطفال الذين يولدون تحت ظل لعنتها فما اكثر ما تشكل لهم معمودية للفجور(1).

وكما أعلنت لجنة طبية التقرير التالى:

إن نساءً متزوجات يعملن فى جماعات مع فتيات وشبان يوضعن تحت تصرف المزارع مقابل مبلغ معين من المال يتقاضونه من شخص يحمل اسم

ص:69

رئيس العصابة وهو لا يبيع هذه العصابات إلا كاملة.

وكثيراً ما يكون ميدان عمل هذه العصابات بعيداً عن قراهم مسافة عدة أميال ويراهم المرء صباح مساء على الطرقات العامة النساء منهم يرتدين تنورات قصيرة ومناسبة ويلبسن أحذية وسراويل فى الاحايين قويات ممتلئات صحة، لكن مفسدات بذلك التحرر الاخلاقى المؤلف عندهن غير ابهات مطلقاً للعقاييل المقيتة التى ستنشأ عن هذا النوع من الحياة النشيطة والعجزية بالنسبة إلى ذريتهن التى تبقى فى الدار وحدها وتقنى وحدها(1)، فاذا علم الرجل المعسرأنه يستطيع أن ينال الارتواء الجيسى عن غير طريق الزواج وحتى لو تزوج بامرأة فانها لا تختلف عن سائر نساء المعمل المائعات، فلا بد بعد ذلك أن يستغنى عن الزواج، كما ان الشابة الطالعة سوف لن ترضى أن تربط نفسها بعجلات الاسرة وهى تحلم بالانطلاق الكامل وتسعى لاقتحام الوظائف وإستلام المناصب وتسئم المسؤوليات(2)، وهكذا إمتنع كل من الجىسين عن الزواج إستغناءً بالبعاء وتبرماً عن تحمل تبعات الزواج من النفقات والتكاليف والالتزام بالمراسيم السائدة وإنجاب الاطفال حتى أصبح معدل الرجال

ص:70

1- (1) نفس المصدر: 128/2.

2- (2) إن فى (غانا) 60% من المشغليين بالمعارف من النساء،, كما ان النساء أصبحن 95% فى سائر الوظائف. (مجلة الوادى: عدد 2 سنة 12، السبت 19 مارت 960 ص 28).

والنساء الذين يتزوجون في فرنسا اليوم لا يعدو سبعة أو ثمانية في الالف. (1)

اشاعة الفحشاء:

كل هذه العوامل كان لها الاثر البعيد في تجريد المجتمع من كل معنى من معانى الفضيلة واشاعة البغاء المكتوم والتفسخ الخلقى الرهيب اضافة على ان استخدام المرأة فى الوظيفة او المعمل يعنى استباحتها لمن يرأسها وللمن هو اعلى رتبة منها, واليك بعض ما جاء فى استجوابات تقرير لجنة التحقيق عام 1840: - ما رأى عمال المناجم فى عمل النساء فى المناجم؟

- انهم يدينونه على العموم!

- لماذا؟

- هم يجدونه مذلاً للجنس، مسيئاً اليه, ان النساء يرتدين ثياب الرجال وانهن يلقين بالحياء جانباً فى بعض الاحوال.

- اتريد اذن تحريم عمل النساء فى المصانع ايضاً؟

- كلا، لا اريد ذلك!

- لم لا؟

- ان العمل فى المصانع اكثر حرمة وموافقة للجنس المؤنث!

- ومع ذلك فانت تعتقد انه يسىء الى اخلاقهن؟

ص:71

1- (1) ابو الاعلى المودودى, الحجاب: 115.

- ولكن لا يسىء اليها بقدر ما يفعل العمل فى المناجم، بل ان الفارق الشاسع بين العاملين وعلى اية حال فانا لا اقول ذلك عن وجهة النظر الاخلاقية فحسب، بل من وجهة النظر الحكيمية والاجتماعية ايضاً، ان الانحطاط الاخلاقى للفتيات لشديد وفاجع وعندما يصبح هؤلاء الفتيات زوجات عمال المناجم فان الرجال يتألمون كثيراً من انحطاطهن وهذا ما يؤدى بهم الى هجران البيت والانكباب على الخمر.

- أيمكنك ان تكشف فارقاً بين هذين الصنفين؟

- لم أتأكد من اى شىء لكننى اعرف من زيارتى الى البيوت المختلفة الحالة الفظيعة التى تدهورت اليها الاشياء فى مقاطعتنا. (1) ومضت مدة منعوا فى انكلترا استخدام النساء المتزوجات كى يتفرغن للاعمال البيتية التى لا بد ان يزاولها فرد من افراد المجتمع ويتكفلن حضانة اطفالهن وبيتعدن عن مساقط الاعراض، وقد اعلن استبشاره بهذه الظاهرة المفتش (بيكر) فى تقرير رسمى: (انه سيكون من حسن حظ المناطق الصناعية فى انكلترا حرمان كل امرأة متزوجة وربة عائلة من الاشتغال فى اى معمل كان). (2)

غير ان ضئولة اجور العمال والغلاء لم يسمحا للزوجات ان يستقررن فى بيوتهن، فعدن الى مراكزهن واخذت تنزى على مسرح العالم البوادر السيئة والعواقب الطبيعية المترتبة التى اثارث حفيظة الاباء وثائرة المصلحين، غير انهم

ص:72

1- (1) رأس المال: 281/2-282.

2- (2) نفس المصدر: 128/2.

لم يجدوا الى مكافحتها سبيلاً وحاولوا التغاضي عنها فلم يسعهم ذلك، حيث بلغت من الصفاقة والصرافة ما لم يخف على احد.

اخلاق مفتعلة:

فتوسلوا الى تبريرها بوضع فلسفة جديدة للاخلاق ونسخ النظريات الفطرية والدينية زاعمين: ان الواقع الذى امام اعينهم ليس فساداً خلقياً، وهبوطاً وتردياً، وانما هو من مظاهر الحرية والانطلاق والنهضة والارتقاء والتطور يقضى ان يكون المتاع الجنىسى - اليوم - عن طريق الزواج، فأن كان بالامس يجمعهما رباط الزواج فاليوم يجمعهما رباط العمل المشترك، او الصداقة. ثم اتسعت هذه السفسطة فى الاونة الاخيرة، فجعلوا يقولون: واذا كانت الصداقة مبررة لتعاطى اللذة الجنىسية فلماذا يكتب التباعد بين الاقارب انهم لا يختلفون عن الاباعد فى ذلك! وما دامت تلك فلسفة الاخلاق - لدى الرأسماليين - فليس من الغريب ما شاع فى بعض الاقاليم الفرنسية والمدن الصناعية الاخرى من وجود العلاقات الجنىسية بين الاقارب فى النسب كالاب، والبنت، والاخ، والاخت... (1)

استخدام الغريزة الجنىسية:

ولم يقف الامر عند هذا الحد، فالاثرة الرأسمالية المعروفة بحرية التجارة المطلقة أبت إلا افتتاح نوافذ الى افاق جديدة للتجارة باستخدام الغريزة الجنىسية

ص:73

لأنها مكاسب مشروعة في نظر الاقتصاد الرأسمالي، وإذا كانت النفوس تتقزز منها يوم كان لها دين فالיום قد انسلخت من دينها تهلع اليها هلعاً عميقاً، لذلك اخذوا يتدرجون في هذه المزالق الرهيبة الدكنا.

إستخدام الصحافة:

فابتدروا الى الجرائد والمجلات وجعلوا يدمجون فيها القصص والمقالات الغرامية واستثاروا في هذا السبيل اعلى ما حباهم الله من مواهب، وفنون، وعلوم، وشجعوا الادب المكشوف وافرغوا له قسماً من الجرائد والمجلات، اما القسم الاخر فان لم يكن مخصصاً بذلك، الا انه لم يخل على اى حال من ركن، او اركان موضوعة للفنون الجميلة، وحيث لاقت الصحافة الماجنة من الاعجاب وتهافت القراء ما لم تنله الصحف من قبل.

كتب خلاعية:

اخذ الكُتَّاب يُكرسون جهودهم لاجراج الكتب والرسائل فى القضايا الجنسية وفنون الرقص والغناء واغراء العواطف واستجواب القلوب وال
...-

ولم يفلت من كيدهم ان يمدحوا مهنتهم الفاجرة بألوان من الاطراء الرفيع والكلمات الخلابة النبيلة حتى اصبحت الفنون الجميلة والاداب الجنسية من ارقى الفنون، فلم يعد الان تأليف كتاب ملئ بأنواع الخلاعة المكشوفة البارزة مخزاة او مغمزاً للمؤلف، بل المؤلفون يتبارون بانهم مرهفون ويتباهلون ببراعة

ص:74

كتبهم وان نالت لدى الناس حظوة وقبولاً فسيجازون اما بعضوية المجامع العلمية، او بشرف (كروى دونور⁽¹⁾) او بجوائز (نوبل) باعتبارها خدمة للانسانية وكم بلغ كتاب الجنس مصاف المشرين الكبار من امتيازات كتبهم، ولم بفتحهم بعد ذلك ان للشعر فتنة سحرية تنقر على ارهف وتر ينبض فى القلوب والمشاعر ويغذى الموسيقى بمعين لا ينضب من الخواطر الحديثة.

صور المائعات:

وان الصور الفوتوغرافية والمجسمات العارية تلهب الشهوات الدفينة والغرائز الهائجة وتفعل بالعواطف ما لا تفعله الحقائق الصارخة لذلك كله عمدوا الى استخدام الشعر والفوتوغراف ومصانع المجسمات كى يصرفوها فى مقاصد الاغراء والمجون حتى يسنح لهم استخراج اكبر قسط من أموال الناس من جيوبهم، ولذلك لا تجد اليوم اعلاناً تجارياً فى الصحف الا وسمته البارزة صورة امرأة مبتدلة كأنه لم يعد من الممكن أن يكون اعلان ما وافياً بالغرض بدون وجود الاغراء الجنىسى حتى أصبحت صور العاهرات والعواهر فى حالات مريبة اقوى جهاز للدعاية والمعايذة والالقات.

وقد كان للمطابع، ودور النشر، والاذاعة، والتلفزيون دور ناجح فى تشييط قفزة الميوعة والاستهتار.

ص:75

ولم يفلت من دهاء التجار استغلال غريزة التبرج التي خامرت فطرة المرأة، فتفننوا في ابتكار ادوات الزينة والترف واشاعوها في المجتمع كى تصبح من الحاجات الاساسية للمرأة ليربحوا منها فيضاً وثيراً وابتدعوا الازياء الكاشفة المغربية واكثرها الغواني الفاتنات ليرتدينها ويغشين بها النوادي والحفلات حتى يفتتن بهن الشباب النزق وتغرم الفتيات بتلك الازياء الجديدة والالوان الزاهية من الثياب الفضفاضة الرقاق وتذرعوها بهذه الطريقة لا استدرار اموال الناس.

النساء المغريات:

ثم كان التنافس الحر وكان التجار يعلقون القطع واللافتات الكبار على قارعة الطريق وعلى ابواب الحوانيت ليغلبوا بها انتباه المستهلكين, غير ان التجار - جميعاً - كانوا يفعلون ذلك حتى اصبح شيئاً مكرراً لا يلفت الانظار ثم بدا لهم من بعد ما رأوا فشل هذه العملية ان يعمدوا الى الكواعب الحسان فيلتقطوا منهن اجمل فتاة أسر الجمال ليحلوها بأروع الازياء والحلى والمباهج ويستخدموها مكان اللافتة فى الحوانيت لتعرض الامتعة على المستهلكين وتتماكس على الثمن, وفي الحقيقة لم يكن استخدامها لأداء هذه الوظائف وانما جىء بها لتكون دمية تعمل فتننتها المغناطيسية الاخاذة فى الرجال فترغمهم على شراء حوائجهم من عندها دون أن يما كسوها طويلاً حتى أنك اليوم لن تجد فى المدن المزدحمة معرضاً، ولا فندقاً، ولا مقهى، ولا سينما، ولا حانوتاً إلا وفي صالته فتاة متحلية بأحدث المغريات تستقبل الورد بغنجها ودلالها.

لقد سممت هذه العوامل الموبوءة أجواء العالم كله وسلخت من البشرية كل خاطرة من معانى الاخلاق والفضيلة ونازعت حتى الدرهم من يد البدوى الثائه، ولكنها لم تنجح فى إشباع مطامع الرأسماليين فأرادوا التوسعة فى الاستغلال وحاولوا لو يبتدعوا فتنة تقهر مختلف الطبقات والاصناف على التعرية من أموالهم لتصرف إلى ايدى نفر من تجار البشرية وخزان الفضة والنصار.

المسارح وال -....

فعملوا المسارح، والملاهى، والسينمات، والمقاهى، والحانات، وأبهاء الموسيقى، والمسابع المختلطة، ونوادى العراة، ثم دور الدعارة و... ما ينبو عنه القلم واستخدموا الغيد والغلمان وصنعوا للمراهقين والمراهقات وسائر الممثلين والنجوم جميع أدوات التبرج والاعراء الصارخ وجعلوا يعرضون فيها على المنصات الاجساد المثيرة العارية أو شبه العارية وكل ما تحفل بها من فنون الدلال والغجر وعمموها لمختلف الطبقات وفى كل مكان كى لا يشذ عنها أحد حتى فلاح المزرعة وإن أوتى المعجزات من العصمة وقوة العقيدة والثبات والدين والاخلاق حتى ألهبوا الدنيا ضراما وحولوها إلى بؤرة فساد تضحج بالابنات الغفالة الموبقة واتسع الفجور حتى أصبح ميدان الشارع، والنادى، ووسائل المواصلات... (1). وحتى أصبحت النساء فى البلاد المزدهمة - إلا

ص: 77

1- (1) للمصلحين الاخلافيين فى القطر الامريكى مجلس يعرف ب - (اللجنة الاربعة عشرية) يعنى بالفحص عن مكامن الفجور والتحقيق عن حالة البلاد الخلقية واتخاذ التدابير

النادرات - مشاعة رسمية قانونية دون أيما تأثم او استنكار وحتى سيطرت الشرايات البهيمية الدنيئة على الركائز الانسانية النزيهة فأمست المرأة متعة قبل كل شىء وان غروها بألف شىء وشىء وحتى امست.

وسأنهى هذه المأساة الطويلة بتسجيل هذه الحقائق التالية كشواهد على مدى سقوط الانسانية فى ظل النظام الرأسمالى الخليع.

مباذل:

قد يقيم العشيق مع عشيقته وزوجها فى منزل واحد ويعيش الثلاثة فى هذا الوضع على اتم وفاق! وهذا الوضع منتشر انتشاراً كبيراً فى فرنسا على الاخص ويسمونه هناك (التعايش الثلاثى).

وفى السويد تعطى الزوجة حق اختيار صديق يكون له ما لزوجها من حقوق, وفى امريكا لا تكاد الفتاة تبلغ سن الرابعة عشرة حتى يكون لها خدن يظل يعاشرها معاشره الزوج لزوجه حتى تتزوجه او تتزوج غيره(1), وحتى

ص:78

1- (1) محمد الغزالى, الاسلام والطاقت المعطلة: ص 152-153.

مطلع القرن العشرين لم يبلغ التفسخ الخلقى الى هذه الدرجة من الصراحة، بل كان زنى الرجال امراً هيناً طبيعياً يغضى عنه الاباء بشرط ألا تصاب ابنائهم بالامراض السرية، وربما كانوا يتباشرون او يلحون على ابنائهم ان يخادنوا امرأة لها مكانة مالية او اجتماعية، وذلك ضمناً لمستقبلهم، ولكن نظريتهم بشأن المرأة كانت مختلفة عن ذلك جداً الى تلك الالونة، فكان عفاف المرأة شيئاً له قدرة وقيمتة واولئك الاباء الذين كانوا لا- يرون بأساً بخلاعة ابنائهم معتذرين عنها بسورة الشباب، كانوا يغارون على اعراض بناتهم ويحرصون على برائتها من كل وصمة سوء، غير ان هذه الظاهرة الحسنة تقلصت بعد صراع طويل مع المتباكين على حقوق المرأة والمطالبين بمساواتها مع الرجل حتى لم يعد تعلق المرأة بالرجل شيئاً يدنس عفتها وكرامتها كما ان الشذوذ الجنسي اصبح امراً مشاعاً فى الاوساط وبصورة فى المتزايدة فى المدارس والكليات و... كما يتحدث عن ذلك الدكتور (هوكر): (انه لا تزال فى مثل هذه المدارس، والكليات، ودور التربية للممرضات حوادث من تسافح الولدين من الجنس الواحد فيما بينهما وقد تلاشى - او كاد - ميلهم الطبيعى الى الجنس المخالف(1)..).

وقد كتب القاضى (لندسى) الامريكى: (ان خمساً واربعين فى المائة من فتيات المدارس يدنسن اعراضهن قبل خروجهن منها وترتفع هذه النسبة كثيراً فى مراحل التعليم التالية: ان طالباً فى مدرسة ثانوية تكون عواطفه دون عواطف الطالبة شدة والتهاباً، فالصبية هى التى تقدم ابدأ وتأمر وما يفعل الصبى إلا ان

ص:79

يتبع ويأتمر(1).

وقد كثرت الفواحش - على الاخص في الامم الراقية في بادىء الامر بصورة غير منتظمة فمثلاً ان النساء اللواتى اتخذن من الفحشاء حرفة برأسها في امريكا كان يقدر مجموعهن - على اقل التقدير - بين اربعمائة وخمسمائة الف(2) وفي فرنسا كان عدد البغايا المحترفات قبل الحرب العالمية الاولى نصف مليون(3) فكان عليهن ان يستخدمن لهذه الحرفة الجرائد، والبطاقات المصورة، والتلفون، ورقع الدعوة الشخصية حتى جاء قوم فمهدوا الاسباب لا كراء النساء وتقدموا بحرفة البغاء الى ان اصبحت تجارة دولية منظمة(4) ، كما صرح موسيو (فردينان دريفوس) احد اعضاء المجلس الفرنسى قائلاً:

(ان حرفة البغاء لم تعد الان عملاً شخصياً، بل قد اصبحت تجارة برأسها، وحرفة منظمة، بفضل ما تجلب وكالاتها من الارباح الغزيرة فلها في هذه الايام وكلاء يهيئون (المواد الخام) واخرون يتجولون في البلاد ولها الان اسواق منظمة تستورد فيها وتصدر منها الفتيات والصبايا كالاموال التجارية، واكثر ما يطلب في هذه الاسواق من الاموال هو بنات دون العاشرة(5).

ص:80

1- (1) نفس المصدر: 128.

2- (2) نفس المصدر: 130.

3- (3) نفس المصدر: 99.

4- (4) نفس المصدر: 85.

5- (5) نفس المصدر: 100.

ويكتب (بول بيورو): (ان هذا العمل (احتراف البغاء) قد اصبح فى زماننا نظاماً محكم التركيب يجرى بما شئت من التنظيم على ايدى الموظفين، والعاملين المأجورين، والخطباء، والمحاضرون، والاطباء، والقابلات، والسياح التجار، ويستعمل له كل جديد من فنون النشر، والعرض، والاعلان(1).

ومن اكبر اسواق البغاء فى امريكا عواصم (نيويورك) و (ريودى جنيرو) و (بونس آيرس)، ولكل من المركزين الاكبرين من مراكزه التجارية فى مدينة (نيويورك) مجلس تنفيذى ينتخب رئيسه وامينه بطريقة الانتخاب المألوفة ولكل من تلك المراكز مستشارون من رجال القانون يراقبها مصالحها اذا هى وقعت فى قضية قانونية، ثم تستخدم تلك المراكز نخاسين لمرادة الفتيات عن انفسهن يتجولون فى البلاد بحثاً عن الصيد.

ومن امتداد نفوذهم فى المجتمع انه عنى رئيس رابطة الجالية ب - (شيكاغو) ذات مرة باحصاء عدد الفتيات المغويات فى مدة خمسة عشر شهراً فعلم انه وردت على مكتب الرابطة رسائل (207000 مائتين وسبعة آلاف) فتاة اخبرن فيها المكتب بكونهن فى الطريق الى شيكاغو.(2)

ص:81

1- (1) نفس المصدر: ص 100.

2- (2) نفس المصدر: ص 131-132.

رد الفعل:

كان النظام الرأسمالى الديموقراطى يحافظ بالقسوة والعنف على حرية التجارة المطلقة التى تمخضت عن تلك المظالم والمآسى النائية ولم يكن للسلطات الحاكمة ان يضع حداً لهذه الجرائم الاجتماعية الشاملة بتحديد حرية الاقتصاد لان الرجال المالىين كانوا يكمون الافواه بالرشى, والرصاص،.. ويتباكون على الديموقراطية التى تنص على حرية الاقتصاد المطلقة وتجعلها فوق القانون ومنال الحكومات.

وحيث كان النظام الديموقراطى يوفر - ايضاً - حرية الصحافة والخطابة والمظاهرة والتصويت أخذت تضج الصحف وتعج الشوارع والبرلمانات والمعامل بالمقالات الثائرة، والخطب النارية الحامية، والمظاهرات الصاخبة، والاضرابات الطويلة المطالبة بالضرب على ايدى التجار المستأثرين وتوفير حقوق العمال والمستخدمين.

وكانت الانتفاضات المتلاحقة تضطرب بالامن والتجارفكانت تتلقى المقاومة من السلطات والتجار معاً، وحيث لم يكن يقودها غير الشعور بالحقوق السلبية كانت تقدم الضحايا وتخفق فى المطاف الاخير، غير ان هذا الشعور الذى اختمر الازهان ونضج وتجسم حتى حفز بالجماهير التى تتفجر حماساً ونشاطاً الى الشوارع والمجتمعات جعل يكسب التجارب الثمينة من المزالق التى مر بها عبر

نضاله الطويل، كما تطور الى صورة مغرية كسبت السلطات إلى جانبها وتطور منطقتها أيضاً، فأخذت الجماهير تنادى: إن الدولة الجمهورية لا تكون إلا مظهراً لمصالح الجمهور الذين ينظمون قوتهم السياسية في صورة هذه الدولة فأى شىء إذن يدعو إلى الاحرار على ان تكون الحكومة الجمهورية محدودة العمل ضيقة النفوذ، كما كانت الحكومات الملكية من قبل. إن الواجب على الحكومة الجمهورية أن تعمل للمصلحة الجماعية على الوجه الايجابي، واذا وجدت المظالم في المجتمع فعليها أن تعمل على تداركها بوضع القوانين وبتدخلها الادارى المسلح كادت التجار أن تخسر المعركة تجاه هذا المنطق، كما خسرت البرلمان اليوم أن اصبح حق التصويت مشاعاً للجميع.

بركان الحرب:

لولا- ان انفجر بركان الحرب التى هزت العالم هزاً ونازعت الارواح وأطاشت الافكار وانتهزت الفرصة التجار، فرفعوا اجور العمال قليلاً ورفعوا الاسعار أضعاف ذلك وتناسى العمال مطالبهم واستسلموا للاقدار التى تحلق على رؤوسهم والبلاء الذى يحيق بهم وانصرفت الحكومات عن الشعوب وطلباتها واخذت تختلس أنفاسها الاخيرة وهى تطفوا وترسب فى غمرات الحرب.

انفجارات:

فأهدرت حقوق العمال وتضاعفت قسوة الرأسمالية وكان لا بد من ذلك، غير ان الارض أخذت ترتجف وتلاحقت على الرأسماليين ضربات قاسية من

ص:84

مطارق حديدية أيقظتهم فى مخادعهم, فقد قامت الشيوعية فى روسيا حتى استئصلت دابر البورجوازية بالحديد والنار وانفجرت (الفاشية) و (النازية) فى (إيطاليا) و (المانيا) فحصرتا البورجوازيين والعمال - جميعاً - فى نطاق جبرى ونظام حديدى.

هذه الانفجارات الرهيبة حاسبت الرأسمالية والقت بصيصاً من الضوء على جرائمها الوحشية وهددتها بالمصير الاسود القريب, فما انفكت تقبل فى نظامها الاقتصادى الحر القديم بما كانت تلقاه من ضغط العمال وقوة الجمهور المتزايدة تارة ومن تلقاء نفسها أخرى, التعديلات التالية:

تعديلات:

1 - رفع اجور العمال والمستخدمين والتقليل فى ساعات العمل، والرفق فى احوال الاشتغال، وإعفاء النساء والاطفال من العمل والخدمة - فى بعض الاحوال - والاحتفال بنفس العامل وصحته، والعمل على تحسين بيته وبيئته بالنسبة لها من قبل، والتدارك - ولو بشيء يسير - عند مصابه بضرر فى البدن والترويج لبعض مشروعات التأمين الاجتماعى.

2 - قد سلموا بصفة رسمية فى كل شعبة من شعب الاقتصاد بنقابات العمال والاجراء ومنظماتهم من حيث هى ممثلة لهم ومجازة بالمفاوضة عنهم، كما اعترفوا بمشروعية بعض التدابير العملية التى تساعد العمال والاجراء لحمل المستأجرين(1) وأصحاب المعامل على إجابة مطالبهم.

ص:85

1- (1) المستأجرون رجال مثرون وفى اكثر الاحيان لهم علاقة بالسلطات يستأجرون الارض أو

3 - فوضوا للحكومة صلاحية التحكم بين رأس المال والعمال وكذلك عينت الصور القانونية والبنود القضائية والجنائية المختلفة لفصل الصراع القائم بينهما.

4 - اعترفوا بالمبدأ القائل: (ينبغي ان يفرض على الاستثمار الفردى من القيود والحدود مالا يعود معه مضرًا بالمصلحة الاجتماعية ولا يقوم بفرض مثل هذه القيود والحدود إلا الحكومة) المحايدة نسبياً.

5 - نهضت الحكومة ببعض الخدمات الاقتصادية العامة كالبريد، والتلغراف، والتلفون، والقطر، وإنشاء الطرق والشوارع وتعهدتها، وإنبات الغابات، وتوزيع المياه فى المدن والبساتين والاراضى الزراعية، وتوليد الكهرباء وتوزيعها، وتحديد العملة ورقابتها.

6 - وفر للعمال والاجراء الحق فى الاشتراك مع أصحاب الشركة، وذلك بتقسيم الشركة إلى سهام رخيصة يستطيع العامل الوضع أن يدخر من اجره كل يوم شيئاً حتى يشتري به بعض السهام، وقد اختيرت فى بعض البلاد صور ينقد العمال والاجراء فيها - وفقاً لقواعد معينة - قسماً من اجورهم ومشاهراتهم ويضم الجانب الاخر منها إلى رأس مال الشركة من قبلهم. وهكذا اصبح كثير من العمال والاجراء شركاء فى ملكية شركتهم، أو مجموعة شركاتهم الائتلافية حتى ان فى بعض المعامل

الثقيلة نحو 80% او 90% من عمالها شركاء فى ملكيتها، ولا تزال نسبة شركتهم فى نمو مطرد بمالهم من السهولة فى اشتراك الاسهم بالتسيط من الاموال ما يؤمن حاجاتهم لأنهم يعملون بأجور ضئيلة، أو لا يجدون العمل.

فلنأخذ قضيته من القضايا الحياتية كقضية تأمين المساكن، ونذكر على سبيل المثل ما جاء فى (سجل الوقائع) الموضوع من قبل اللجنة الوطنية للحزب الديموقراطى فى الولايات المتحدة من: أن 15 مليون شخصاً يعيشون فى الاحياء الرثة القذرة وأن شروط السكن غير متوفرة فى 13 مليون بناية (أى ربع مجموع البنائيات) وأن 7 ملايين بناية فى المدن غير صالحة للسكن من جراء تداعياها بصورة رهيبة. (1)

افناء البضائع:

الكثير من الغلة، والفواكه، والمعلبات، والبضائع الاخر تقسد أو تبور على أثر الاحتكار فيحرقونها، أو يقذفونها فى البحر كل عام، وربما تصاب الاسواق بالتخمة نتيجة لتدفق الانتاج فيهدد الرأسماليين بتخفيض الاسعار، فيعمدون إلى استعمار الشعوب الضعيفة لصرافها فيهم، أو يحرقونها قبل أن يأتوا بها إلى السوق خشية الرخص والرخاء كى تبقى الشعوب جائعة حتى لا يعز عليها دفع الاثمان الفادحة بازائها.

ص:87

ففى المجتمع الرأسمالى لا تعتبر الدولة, ولا المجتمع، ولا الطبقة المالكة نفسها مسؤولة عن كفالة أولئك الملايين الذين يتعطلون عن العمل رغم قدرتهم عليه، أولاً يقدرّون على العمل لكبر سنهم أو صغرهما، أو يعجزون عنه مؤقتاً أو دائماً. أما التأمينات الاجتماعية فأنها أسماء أكثر مما هي حقائق وإن وجد بعض هؤلاء معونة - على سبيل المصادفة - فهو حظ لا تأمين ونظام.

تشنج الاقتصاد:

فالرأسماليون يرفعون الاسعار - حينما يشاؤون - إلى ارقام خيالية ويحدثون القحط المصطنع بخطط مرسومة ومؤامرات يحبكونها بطرق المساومات السرية والمقامرات التجارية التى تلعب بالتجارة لعب الامراء بالشعوب.

دوران التجارة:

وهذه الالاعيب الصببانية التى يزاولها التجار تتضخم فتصيب الشعوب بصدمات اقتصادية منهكة فىكون رد فعلها نوبات الكساد والبوار التى تنتاب الاقتصاد العالمى غب كل فترة مسعورة ونشاط محموم ينبجس فى صميم التجارة العالمية.

ذلك أن جشع التجار يحفزهم إلى الاكثار من التطورات التجارية والتلونات فى استنزاف ثروات الشعوب باختلاق الاساليب الفنية فى ابتداع المفاتن الكمالية وأدوات التسلية والترف والاغراء فيلهون بذلك عن إنتاج البضائع الاساسية, غير أن الناس لا يشعرون بشيء فى باكورة الامر، وإنما يقبلون على اقتناء هذه البدائع الخلابة فينهمك التجار فى الاستزادة منها وتطويرها، وإطلائها بشتى

المغريات. هكذا ينقضى دور متحفز نشيط فى تاريخ التجارة وفجأة يشعر الناس بأن جيوبهم قد فرغت أو تكاد فيتراجعون عن شراء الكماليات وفجأة يحس التجار أن المخازن والأسواق قد نفضت آخر (لتر) من البضائع الأساسية عندما يرون أن البضائع الكمالية الواردة الى مخازنهم لا تستهلك بسرعة مناسبة فيتوقفون عن الطلب، والصناع عندما يرون هذا الوضع يمسكون عن الانتاج والرأسمالى حينما يتفرس التوتر وعلائم الخطر يمتنع عن الاقراض ويستعجل فى استرداد ما أقرضه من قبل, وعندما تلمح الحكومة ضعف ميزانيتها تحدد نفقاتها، وهكذا تخفف المعامل والمصانع إنتاجها وتخفض الاسعار إلى ارقام اسمية ويقلل العمل وتسف الاجور فتعم البطالة ويكشر الكساد عن أنيابه وكل خطوة تقهر هكذا تقهر خطوات عديدة أخرى معها حتى إذا وقف التجار على نقطة التحول وعرفوا أن الناس مقبلون على البضائع الأساسية - على حين ندرتها - تحولوا عن موقفهم السلبي إلى إنتاج واستيراد البضائع الأساسية فتدب الحركة فى اسواق البضائع الأساسية ويخيم الكساد على أسواق الكماليات, عند ذلك يقرر المصير لطائفتين فتحتم الخسارة على أصحاب المعامل التى تنتج أدوات البذخ والترف وأرباب المخازن المتخومة بالكماليات بينما يكتب الموز لتجار المواد الغذائية والانشائية، ومالكى معامل النسيج وسائر البضائع الأساسية.

هكذا تفرط تجار من حلبة التجارة وينظم اخرون من الطبقة الواطئة إلى المباراة, وهذا الداء المعروف ب - : (دوران التجارة) يلاحق الرأسمالية ملاحقة الظل للانسان.

تفسخ المجتمع:

وهذا النظام لا- يحترم حاجات الافراد ولا يدع المجتمع على ما يجب ان يكون عليه، وأنما يقدر ما يجلب الاموال بسرعة وسهولة، وليتحطم المجتمع كله على أكوام النضار، فحتى الان تعتبر المنافع الشخصية مقياساً وهدفاً للحياة، ولا يزال الاقتصاد العالمي يتركز على الربا، والاحتكار، والخمر، والقمار.

اخمد الثورة:

هذه النقائص والنقائص، والكثيرة من أمثالها لا تزال موجودة في الرأسمالية الجديدة المقيدة كما كانت في الرأسمالية الحرة، في القرن التاسع عشر، وذلك ما يدل على أن الرأسماليين لم يفكروا ولن يفكروا في اتخاذ التدابير الجذرية لمعالجة هذا النظام وفق المبادئ الانسانية النبيلة والذي حصل حتى الان ان الطبقات البرجوازية ظلت تعدل مناهجها على قدر ما لقيت من ضغط العمال واحست بخطر الشيوعية بين آن وآخر وبقدر ما يخفف سورة العامة وغضباتها النكراء ويسد الطريق على الشيوعيين في استغلال رئاسة العمال ويخدر الاعصاب الثائرة على الرأسمالية والرأسماليين دون أن تكون هناك أية رافة بالعمال، او اى تقدير لحقوقهم ومشاعرهم.

تقرير:

فالننتيجة الملخصة ظهر ان هذا النظام فاشل لا يستطيع حل المشكلة الاقتصادية وهي توزيع السلع والخدمات على الافراد وتشجيع الطبقات وغذيها بالحقوق القانونية المسلحة، ولم يستطع ان ينظم الاقتصاد في نطاق الاديان

ص:90

والاخلاق فاضطر الى الى تحطيم الاديان والاخلاق وجماع القيم والفضائل وهكذا جرد المجتمع من الايثار والتراحم والتعاطف والثقة المتبادلة وكل ما يرفه عن الانسان فى الحياة وابدلها بعراقل وقيود مضمينة وصراع عسكرى مسلح.

وهاته الفكرة المادية الهوجاء عصفت بالمجتمعات الرأسمالية حتى جعلتها على جرف هار يتأرجح للسقوط, ثم انطلقت تصب على العالم الاستعمار والحروب, كما ان كل بند من بنود هذه الفلسفة وكل ما جاء فيها من تفاصيل واحكام مغلوبة متفاقمة التناقض تعرقل سير الاقتصاد وتحرفه عن منهاجه الكامل الصحيح.

هذه هى الرأسمالية:

وتلك بعض سيئاتها ومفاسدها التى اباحتها بكل صفاقة وجرئة تبعاً لحرية التجارة والاقتصاد التى اعلنتها بادية ذى بدء، فصبت العذاب الاليم على رأس الانسان وهى الان وبعد ما وقفت على اخطائها وجرائمها لا ترضى ان تعلن انهزامها من الميدان عناداً لا لشيء، ولقد آن للناس ان يعرفوا الفكرة الرأسمالية لا تصلح شيئاً من حياتهم الاقتصادية، فلا بد ان ينبذوها لا الى الاشتراكية ولا الى الشيوعية فهماً اسوأ من الرأسمالية, بل الى الاسلام.

ص:91

يزعم قادة الشيوعية إن الإنسان بفطرته الأصلية ليس مجبولاً على الاستئثار والاستغلال، وإنما البيئة هي التي تطبعه بطوابعها وتوحي إليه بكل ذلك، ومن الممكن تجريده من الميول الشريرة والعقلية الفردية حتى يلبي نداء العقلية الجماعية والمدنية المركزة في الإنسان وعندما يحقق ذلك يقضى بصورة تلقائية على الصراع القائم بين إنسان وإنسان كنتيجة طبيعية لتسايقهما على المنافع الشخصية المعينة ويعود الإنسان ملاكاً طهوراً مجرداً عن حب الذات والظهور، والاستغلال، والاستئثار، والاستعلاء... ويصبح فوق منال النوازع والجواذب الداخلية والخارجية، وينصهر في بوتقة الاجتماع حتى يتسم بنكران الذات نكراناً تاماً، فلا يكاد يشعر بكيانه ومصالحه الفردية، وإنما ينتصب تجاهه الاجتماع ومصالحه فهو أبداً يعمل ويعمل للاجتماع ولا يتذكر نفسه إلا عندما تلح عليه الحاجة فيتناول من البضائع ما يشبعها دون أيما ترف ثم يستمر في الجهاد والتضحية بنفسه ومواهبه في سبيل الاجتماع، عندئذ يخرج الإنسان من مملكة الحيوان إلى دولة الإنسان وتطبق عليه الصيغة الشيوعية (من كل حسب مقدرته، ولكل حسب حاجاته).

ولا تقع هناك معارك تحتاج الى تدخل المحاكم في فصلها، فالصراع ابداً يكون على المصالح الفردية المتزاحمة ولا تبقى في المجتمع الشيوعي مصالح فردية، كما

لا توجد هناك مباراة في ميدان حتى ينشب الصدام على النتيجة، وبعد ذلك لا تبقى حاجة او فائدة للدولة هنالك يعود الانسان الى حالته الطبيعية، ويلغى القيود والحدود المفتعلة كما كان اول يوم وضع قدميه على الأرض، فقد كان يعيش في مجتمع شيوعي تسوده الفطرة البشرية الطاهرة غير الملتخة بالحضارة والمدنية.

تلك هي فلسفة الشيوعية الاساسية التي انفصلت منها القوانين والبرامج وتتلخص هذه الفلسفة في الصيغتين التاليتين:

1 - فطرة الإنسان ليست مختمة بحب الذات، أو الاستغلال والاستعباد، وإنما هي فطرة جماعية لا فردية، وإنما طبعتها البيئية بطواع يمكن تجريده منها وإعادةه إلى ما كانت عليه أول يوم.

2 - إن المراحل التي مرت بها البشرية عبر التاريخ والقرون هي:

أ الشيوعية الأولى.

ب الرق.

ج الإقطاع.

د الرأسمالية.

ه الشيوعية الثانية.

مرحلة التطبيق:

فيستنتجون من ذلك كله انه لا بد من اعادة الفترة الشيوعية الاولى لاسعاد البشرية وازدهارها ولا بد لذلك من:

ص:94

1 - استيلاء (البروليتاريا(1) المتمثلة فى الحزب الشيوعى على الحكم بالقوة والعنف.

2 - القضاء على رأس المال والربح الناتج منه.

3 - القضاء على كل ما يعزز كيان الفرد ويوقظ فيه النزعة الفردية وذلك بانتزاع الملكية الفردية وبعشرة العائلة.

4 - تأمين وسائل الإنتاج(2) بمصادرة الثروات وجعلها ملكاً للمجموع.

5 - القضاء على الطبقات وعلى البروليتاريا ذاتها بصفتها طبقة.

6 - تجريد المجتمع من الدين والأخلاق وكل ما يعرقل سير الشيوعية من القوانين السائدة فى البلاد.

7 - إجبار الأفراد على العمل حسب طاقتهم.

8 - توزيع البضائع حسب حاجات الأفراد.

9 - القضاء على الدولة.

وللتدليل على صدق هذه النقاط نسجل تصريحات زعماء الشيوعيين.

ص:95

1- (1) كلمة روسية معناها: طبقة العمال.

2- (2) التأمين: هو سيطرة الدولة على الممتلكات وتصريفها فى مصالح الشعب بصفتها ممثلة لمجموع الافراد.

أول ضرورة من ضرورات قيام العهد الشيوعي هو استيلاء طبقة البروليتاريا على الحكم بالقوة والعنف كما يصرح بذلك كارل ماركس وفردريك انجلز: (... حتى الساعة التي تنفجر فيها هذه الحرب بشكل ثورة علنية وتؤسس البروليتاريا سيطرتها - بعد القضاء على البرجوازية(1) - بالشدة والعنف...)(2)

ويسترسلان الى حيث يقولان: (.. اما هدف الشيوعيين المباشر فهو الهدف نفسه الذى ترمى اليه جميع احزاب العمال أى تنظيم البروليتاريا فى طبقة وهدم سيادة البرجوازية واستيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية(3).

ثم يؤكدان ذلك - ايضاً - : (ان المرحلة الاولى فى ثورة العمال هى كما رأينا تشييد البروليتاريا فى طبقة سائدة والاستيلاء على الديمقراطية وتستخدم البروليتاريا سيادتها السياسية لاجل انتزاع رأس المال من البرجوازية ولا يتم ذلك الا بخرق حق التملك ونظام الانتاج البرجوازي بالشدة والعنف(4)).

فالخطوة الاولى من خطوات الشيوعية هى: ان تتسنى البروليتاريا السلطة السياسية بالشدة والعنف وهدفها الاخير حذف الديمقراطية لتبقى الدكتاتورية والارهاب المتسرب الى جميع جوانب الحياة, وكانت وصية كارل ماركس بذلك

1- (1) كلمة فرنسية معناها: الطبقة الوسطى من مالكي وسائل الانتاج.

2- (2) (البيان الشيوعي): 40.

3- (3) نفس المصدر: 43.

4- (4) نفس المصدر: 52-53.

تستند الى حجج هي: (ان مجرد قيام انقلاب شيوعي لا يكفي لتحقيق مبادئ الشيوعية لان العبرة بالتنفيذ، فالطبقة الرأسمالية التي تسحقها طبقة العمال ستحاول دائماً التآمر ضد الثورة الشيوعية كما ان الطبقة العاملة ينقصها دائماً العلم والتنظيم لانها جاهلة وغير منظمة بحكم نشأتها، ومن هنا سيصبح حتماً على العمال ان يواجهوا مشكلتين خطرتين هما:

اولاً: عدم قدرة الطبقة العاملة على حكم نفسها بنفسها عندما تول إليها السلطة.

ثانياً: خطر قيام الطبقة الرأسمالية بمحاولات ناجحة باسترداد سلطتها المسلوبة، ولذلك ينبغي ان تقوم على اثر الانقلاب الشيوعي دكتاتورية عمالية عمادها هيئة مختارة من قادة العمال المثقفين تتولى الحكم وتهيئ الشعب للنظام الشيوعي(1).

وبعدما جاء (لينين) الى الحكم اخذ يردد نفس النغمة معلناً ان حكومته لم تقم الا بالقوة والدكتاتورية: (من المؤكد ان جميع الناس يرون ان البلاشفة(2) كانوا يستطيعون البقاء في الحكم لا اقول سنتين ونصف سنة، بل حتى شهرين ونصف شهر لولا نظام الطاعة الصارم، لولا نظام الطاعة الحديدي حقاً في حزبنا(3)...)

ص:97

1- (1) (النظام الشيوعي): 67.

2- (2) البلشفيك معناها: الاقلية مقابل المنشفيك التي معناها الاكثرية والبلشفيك هو حزب الشيوعيين سمو حزبهم بهذا الاسم حيث كانوا اقلية.

3- (3) ستالين. (اسس اللينينية)، ص 97-98 نقلاً عن لينين من كتابه: (مرض الطفولة في الشيوعية): ص 173.

فلولا الدكتاتورية العاصفة التى تدرع بها لينين واوصى بها كارل ماركس وانجلز لما كتب البقاء للحكومة الشيوعية لا سنتين ونصف سنة بل ولا شهرين ونصف شهر.

ثم رأى لينين ان القوة التى تتسلح بها الحكومة السوفياتية والحزب الشيوعى لا تستقل بكبت الاصوات، لذلك ضم اليهما قوة البروليتاريا، ففرض عليها الدفاع عن الحكومة الشيوعية: (... ولكن فى الدولة البروليتارية التى هى من النوع الانتقالى كدولتنا لا يمكن ان يكون الهدف النهائى لكل عمل تقوم به الطبقة العاملة سوى تقوية الدولة البروليتاريا وتقوية سلطة الدولة التى تمارسها طبقة البروليتاريا وذلك بالنضال ضد كل ما يقع من تشويهات بيوقراطية(1) لهذه الدولة(2)...).

فلما كان دور ستالين وقام بالاعمال القاسية التى تفرز منها النفوس وتقتل منها الابدان حاول تبرير موقفه فقال عام 1934 م: (لماذا نتفاخر بسلطتنا الطاغية؟ ولماذا نتفاخر باجراءات القمع الصارمة التى نلجأ اليها؟ ولماذا نتفاخر بسلطتنا المطلقة؟ الجواب هو اننا نتفاخر بها لانها سيبلنا الى النصر والنجاح ولن نفلح فى تدعيم النظام الشيوعى إلا اذا اتصفنا بالصرامة والقسوة والطغيان والاستبداد،... كل ذلك ريثما تتحقق الثورة الشيوعية العالمية(3).

ص:98

1- (1) (البيوقراطية - ضد الديموقراطية - معناها الفردية.

2- (2) لينين. ((حول دور النقابات ومهامها)) ط دار الفارابي، ص 11.

3- (3) (النظام الشيوعى): ص 25.

وصرح عام 1928: (.. اوصانا لينين بان نكون قساة عتاة في معاملتنا مع اعدائنا في الداخل والخارج, ونحن لا نريد ان ندع اعدائنا في الداخل والخارج يعملون ضدنا, بل انه يتعين علينا ان نمنعهم بالقوة من ذلك, ولهذا نعتبر الوسائل العنيفة القاسية التي نعامل بها خصومنا عملاً مشروعاً له ما يبرره مهما بدا هذا العمل استبدادياً وطاغياً(1)).

ولقد جعل ماركس القوة قانوناً وحقاً فقال سنة 1860 م: (القوة هي التي تحدد مصير كل شيء فالقوة هي القانون الطبيعي الذي يكشف عن نفسه في كل ميدان، ولهذا فاننا نؤمن بأن الحق كامن في القوة ونؤمن بأن القوة هي سبيلنا الى النصر(2)).

وسار على خطته لينين حيث قال سنة 1905 م: (فلتكن سياستنا قائمة على اساس القوة فبالقوة نهرب خصومنا وبالقوة يحترمنا انصارنا وبالقوة نحطم النظام القديم وبالقوة نقيم نظاماً جديداً ان القوة هي مفتاح النصر(3)).

ثم اضاف على ذلك قائلاً سنة 1922: (ليس الشيوعي الصادق هو ذلك الشخص الذي يؤمن بتجريد خصمه من قوته فحسب, بل الشيوعي الصادق هو ذلك الشخص الذي يقتل خصمه بعد ان يجرده من قوته فالموت هو الشيء الوحيد الذي يريحنا من خصومنا(4)).

ص:99

1- (1) (النظام الشيوعي) ص 24.

2- (2) (النظام الشيوعي) ص 22.

3- (3) نفس المصدر: 22.

4- (4) نفس المصدر: 23-24.

وقد اخذ استالين يفسر دكتاتورية البروليتاريا سنة 1930 م: (اريد ان اوضح لكم ان تعاليمنا تسمح لنا بالطغيان, ألا نسمى نظامنا دكتاتورية البروليتاريا, ان هذه الدكتاتورية المستبدة هي سلاحنا فى المعركة(1)).

وقال ستالين عام 1933 م: (يجب ان يكون مفهوماً أننا نؤمن بالاستبداد, ونؤمن بالطغيان, ونؤمن بالعنف لان نظامنا الثورى القائم على اساس القضاء على الطبقات يتطلب الالتجاء الى كل هذه الوسائل(2)).

مصادرة رأس المال:

وفى الثورة واللحظة التى تقيض فيها البروليتاريا على زمام الحكم تبندر الى القضاء على رأس المال والربح الناتج منه, كما يقرر ذلك ماركس وانجلز: (ان المرحلة الاولى فى ثورة العمال هي - كما رأينا - تشييد البروليتاريا فى طبقة سائدة والاستيلاء على الديموقراطية, وتستخدم البروليتاريا سيادتها السياسية لاجل انتزاع رأس المال من البرجوازية ومركزه جميع وسائل الانتاج فى ايدى الدولة, ولا يتم ذلك الا بخرق حق التملك ونظام الانتاج البرجوازي بالشدة والعنف, أى باتخاذ تدابير, وتختلف هذه التدابير - طبعاً - اختلافاً كبيراً فى مختلف الاقطار غير انه يمكن تطبيق التدابير التالية, بصورة عامة فى اكثر البلاد تقدماً ورقياً:

ص:100

1- (1) نفس المصدر: ص 24.

2- (2) نفس المصدر: ص 24.

1 - نزع ملكية الاراضى الكبرى وتخصيص الريع العقارى لتغطية نفقات الدولة.

2 - فرض ضرائب متصاعدة جداً.

3 - الغاء الوراثة.

4 - مصادرة جميع املاك المهاجرين العصاة المتمردين(1).

ولا يغفل انجلز ان يؤكد هذا المعنى: (و حينما تقبض البروليتاريا على زمام الحكم تحول وسائل الانتاج الى تملك الدولة وبذلك تتخلص من طابعها البروليتارى(2).

ثم يكرر مناداته بذلك باعتبارها النقطة المركزية فى تشييد الكيان الشيوعى: (... تتولى البروليتاريا على سلطة الدولة وتحول وسائل الانتاج باذى ذى بدء الى ملكية الدولة(3).

القضاء على الملكية الفردية:

ويتلو ذلك كله حملة عاصفة، للقضاء على الملكية الفردية بصورة واسعة، وان لم تكون رأس المال! فان من يملك ملكية معينة، باستطاعته ان يستغنى عن الدولة، ولو فترة قصيرة، فيتمرد على مقدساتها، وذلك ما تخشاه الحكومة

ص:101

1- (1) (البيان الشيوعى): ص 52-53.

2- (2) فردريك انجلز، (الاشتراكية بين الخيال والعلم) ص 72.

3- (3) لينين، (الدولة والثورة)، نقلاً عن انجلز ص 21-22.

الشيوعية، ولذلك تعتمد الى انتزاع الملكية الخاصة من جميع الافراد، كى يظلوا محتاجين الى الدولة عند كل وجبة طعام.

هكذا نجد ماركس وانجلز يصرحان: (.. وعلى هذا فباستطاعة الشيوعيين: ان يلخصوا نظريتهم بهذا الصدد فى هذه الصيغة الوحيدة، وهى:
القضاء على الملكية الخاصة.(1)

ثم نجدهما يسجلان هذه الصيغة فى موضع اخر: (ان ظروف معيشة المجتمع القديم قد اضمحلت، ولم يبق لها اثر فى ظروف معيشة البروليتاريا، فالبروليتارى محروم من الملكية(2) وحاول لينين تنفيذ هذه الخطة واطاف اليها قائلا: عام 1920 م (يجب ان يكون مفهوما: ان العامل الذى يعمل فى معمل من المعامل لا يملك نفسه، فالمععمل هو الذى يملكه(3).

وليس من العجيب ان يدلى لينين بهذا التصريح بعدما تلقى من اسياده البيان التالى: (ان كل الطبقات التى كانت تستولى على السلطة فيما مضى، كانت تحاول تثبيت اوضاعها المكتسبة، باخضاع المجتمع باسره لاسلوب التملك الخاص بها، ولا تستطيع البروليتاريا الاستيلاء على القوى المنتجة الاجتماعية، الا بهدم اسلوب التملك الذى كان خاصاً بهذه القوى أى بهدم كل اسلوب للتملك

ص:102

1- (1) (البيان الشيوعى) ص 43.

2- (2) نفس المصدر ص 39.

3- (3) (النظام الشيوعى) 47

مرعى الاجراء الى يومنا هذا. ولا تملك البروليتاريا شيئاً خاصاً بها، حتى تصونه وتحميه! فعلية اذن ان تهدم كل ضمانات خاصة، وكل امان خاص موجود(1).

وعلى ضوء هذه التعاليم صرح استالين سنة 1927 م: (ان النظم الاقتصادية التي تؤمن بها الشيوعية، هي النظم التي تعتمد على ثلاثة اسس، هي أولاً: الغاء الملكية الفردية، الغاءاً تاماً، وثانياً: القضاء على نظام الطبقات، قضاءً تاماً، وثالثاً: احتكار الدولة لكل مصادر الثروة احتكاراً تاماً.. ولهذا فاننا نعارض كل النظم الاقتصادية التي لا تقوم على هذه الارقان الثلاثة(2).

واضاف قاتلا سنة 1931 م: (نحن لا نسمح لاحد بادخال المال، واستخدامه في شراء العقار! ذلك اننا نناهض كل ضرب من ضروب الملكية الخاصة(3).

ولقد كان لينين يتبجح ببيانات اسياده ويضيف عليها اشياء واشياء ولكن اسياده كانوا يتفلسفون ويكتبون، وما اسهل ان يفرغ الانسان خواطره على الورق، كما ان لينين - ايضا - قضى شطراً من حياته وكانت الاحلام تداعب خياله، وهو يترنح على اراجيح الاوهام، فكان يكيّل الخطط ويفصلها بلا حساب. وما ان بلغ مرحلة التطبيق حتى اصطدم بالواقع الحى، الذى حد من طيشه، وفل نشاطه وعزائمه، فجعل يزرع تحت الكابوس الذى اعده لنفسه،

ص:103

1- (1) كارل ماركس وفردريك انجلز. (البيان الشيوعى) ص 39.

2- (2) (النظام الشيوعى) 46

3- (3) نفس المصدر: 48.

فلنسمع الى زفراته: (.. ولكنه من الصعب الى ما لا حد له، محو الطبقات، فان الانقسام الى عمال وفلاحين ما يزال قائما، فاذا اقام الفلاح على قطعة من الارض واستاثر بفائض قمحه، أى القمح الذى لا يحتاج اليه، لا لنفسه ولا لماشيته، فى حين يظل جميع الاخرين بلا خبز، فان هذا الفلاح يستحيل اذ ذاك الى مستثمر...

ينبغى ان يشتغل الجميع وفقا لبرنامج مشترك، على ارض مشتركة وفى المصانع والمعامل المشتركة، وفقا لنظام مشترك (1).

ثم جعل يستصرخ الشيوعيين لينظموا البروليتاريا فى كفاح مشترك عليهم يؤدون مسؤوليته: (ان الاخلاق الشيوعية، انما هى الاخلاق التى تخدم هذا النضال، وتوحيد الشغيلة ضد كل ملكية صغيرة، لان الملكية الصغيرة تضع فى يدى فرد واحد ما ابدعه المجتمع باسره، ان الملكية بنظرنا ملكية مشتركة (2).

بعثرة العائلة:

ان بعثرة العائلة واشاعة النساء، من الشيوعية كجزء لا يتجزأ منها فالمجتمع الشيوعى - كما يقول لينين - انما هو شيوعية فى كل شىء (3) والعائلة تعرقل طريق الاقتصاد الشيوعى فى الصميم!! فهى - اولا - تهدر فيضا من نشاط رب الاسرة، لحماية مصالحها، والدفاع عنها، والولاء للاسرة يعوق الشيوعى عن القيام بواجباته العامة والخاصة، وربما يدفعه الى مخالفة النظام، وذلك ما تأباه

ص:104

1- (1) لينين. (مهمات منظمات الشباب) ص 17 ط موسكو.

2- (2) لينين نفس المصدر: 18

3- (3) لينين نفس المصدر: 23

الشيوعية كما صرح بذلك ستالين سنة 1930 م: (ما دمنا ننكر الاديان، فاننا لا نستطيع ان نأخذ بالاراء القائلة بان للاسرة قداسة... فكل القداسات زائفة. نحن لا نريد ان يكون للاسرة اى نوع من انواع القداسة... مثلما لا نريد ان يصبح الولاء العائلى، عائقا يحول دون تحقيق اهدافنا(1)).

وكما صرح من قبله لينين عام 1922 م: (نحن لا نؤمن بالافكار المثالية من الاسرة، فهذه الافكار المثالية تنادى بجعل الاسرة مجتمعا ذا كيان خاص له استقلاله... ونحن لا نؤمن بمثل هذه المثالية، التى تشجع على جعل الوطن مجموعة من الاسرات المستقلة(2)).

وفيما بعد رأى استالين ان يكشف النقاب بكل صراحة، فماذا يلجمه عن التصريح بنواياه؟ أليس هو الدكتاتور الجبار؟ فليقل بكل وقاحة وصفافة!: (.. دعونى اذكر لكم بصراحة: انه من الخطر على حياتنا السياسية تشجيع ذلك المفهوم الخاطىء للاسرة، واقصد بذلك الاراء القائلة بأن هناك ما يسمى: الولاء للاسرة! فالولاء الوحيد المسموح به هو الولاء للدولة(3)).

ثانياً: ان الشيوعية تفرض العمل الاجبارى على جميع القادرين من الرجال والنساء على حد سواء(4) والعائلة تشل هذه الحركة، لانها تشغل النساء بالاعمال

ص:105

1- (1) ((النظام الشيوعى)) ص 5

2- (2) نفس المصدر: 50

3- (3) نفس المصدر: 50

4- (4) (دستور الاتحاد السوفياتى)) ص 5 المادة 12.

البيئية، حتى لا يسنح لهن القيام بالاعمال الخارجية

ثالثا: ان فشل ماركس في الغرام الذى عصف به فى غضون شبابه، هو الذى دفعه الى الانتقام من البرجوازية، عن طريق الدعاية للشوعية(1) وتبعاً لذلك نجد ان حملات ماركس على العائلة، تختلف عن هجماته على الرأسمالية والبرجوازية فتراه ينادى - فى سخرية واستهزاء: (يا للهول!.. حتى اشد تطرفا تسخطهم نية الشيوعيين، هذه الفاضحة المرذولة).

ثم يحاول ان يطمئن نفسه تجاه هذه الغضبة القاصفة حتى من اشد الناس تطرفا فيتساءل: علام تتركز العائلة؟ أليست تتركز على رأس المال؟ فاذن لا مبرر لهذا القلق! فسيقضى على رأس المال وبالطبع يقضى على العائلة:

(ولكن على أية قاعدة تتركز العائلة البرجوازية فى الوقت الحاضر إنها تتركز على رأس المال والريح الفردى! والعائلة بكامل كيانها، وتمام بنياتها، ليست موجودة إلا عند البرجوازية فقط! ولكن تتمتها هى الالغاء القسرى لكل عائلة بالنسبة للبروليتاريا، ثم البغاء العلق).

وبعد ذلك يؤكد: أن الصلات الع) ائلية سوف تنفصم! فان الصناعة الكبرى تستخدم الاولاد وتحولها الى تجارية بسيطة:

(ان تشدق البرجوازيين الفارغ عن العائلة والتربية، وعن الاواصر

ص:106

1- (1) وللتفصيل أنظر: محمد سعيد رمضان البوطى فى ((المذهب الاقتصادى بين الشيوعية والاسلام)) ص 14-15.

والصلات العذبة، التي تربط الولد بأهله، يصبح يوما بعد يوم سخيفا ممضا!! اذ ان الصناعة الكبرى تهدم كل صلة عائلية عند البروليتاريا وتحول الاولاد الى مواد تجارية بسيطة وادوات عمل صرفة).

وحيث سجل ماركس لنفسه الانتصار نراه يستلقى على قفاه، ليضحك من العقلية البورجوازية، التي تستنكر إشاعة النساء... زاعما:

أن هراء البورجوازيين سوف لا ينفعهم، فقد كانت إشاعة النساء موجودة لدى البورجوازيين أنفسهم بصورة مكتومة وغاية ما ينتقمون من الشيوعيين: أنهم يريدون إسقاط النقاب، قائلين: ما هذا النفاق؟ فما دامت الاشاعة موجودة، فلتكن رسمية صريحة! ولنستمع إلى قهقهات ماركس ومن حوله إمعانة، يساعدونه في الضحك البذىء:

(لشد ما يضحكنا هذا الذعر فوق الاخلاقي، الذي توحيه الى البورجوازيين إشاعة النساء الرسمية... ليست بالشيوعيين حاجة إلى إدخال إشاعة النساء، فهي تقريبا كانت دائما موجودة(1)).

وعندما سنل أنجلز: ما هو وقع النظام الشيوعي في العائلة؟

أجاب: (سيجعل علاقات الرجل مع المرأة، علاقات ودية محضه، متقصرة على الاشخاص (المشركين بها)! دون ان يكون للمجتمع أدنى تدخل فيها.(2))

ص: 107

1- (1) كارل ماركس وفردريك انجلز (البيان الشيوعي) ص 47-48.

2- (2) (التعاليم الشيوعية) ص 31.

وبعد ما تم القضاء على رأس المال، ومصادرة جميع الملكيات العامة والخاصة، يجب تسليمها إلى الدولة: ممثلة المجموع (1) لتصرفها في مصالح الشعب، وفق موازين عدل تضعها الدولة بنفسها! دون ان يكون لاحد أى تدخل فيها. كما ينص على ذلك الدستور السوفياتي: (تحدد الحياة الاقتصادية، للاتحاد السوفياتي، وتدار بموجب مشروع الدولة، للاقتصاد الوطني (2)).

اكتساح الطبقات:

وبعدما تستلم البروليتاريا مقاليد الحكم، وثروات الشعب: مجموع الممتلكات الفردية والجماعية، تتعطف على الناس، لتفرض عليهم العمل الاجباري كما يصرح به ماركس وانجلز: (جعل العمل إجباريا للجميع) (3).

وتلغى الاسواق والنقود! لأن كل فرد يتقاضى عن عمله اليومي، من البضائع ما يشبع حاجاته، فلا تبقى حاجة الى الاسواق أو النقود: (وعندئذ يصبح في وسع السلطة المركزية، أو اية هيئة مركزية إقتصادية وإجتماعية أخرى. أن تدير كل الانتاج الاجتماعى، وان توزع المنتجات في مصلحة المجتمع. بدون

ص: 108

1- (1) لقد مرت النصوص على ذلك في (مصادرة رأس المال) و (القضاء على الملكية الفردية).

2- (2) (دستور الاتحاد السوفياتي) ص 5 المادة 11.

3- (3) (البيان الشيوعي) ص 53 المادة 8

توسط السوق، وبدون استعمال النقد الذى لن يبقى ضرورياً(1).

فتندمج الطبقات فى طبقة واحدة، هى: البروليتاريا العاملة... وما تفتأ البروليتاريا ذاتها، أن تحطم طبقيتها! كى لا تكون طبقة متحيزة إزاء مجموع عناصر الشعب الذى انصهرت فوارقها ومميزاتها الذاتية منها والعرضية واندمجت فى صيغة واحدة، هى: الشعب، يرسم هذا المصير المشترك لأبروليتاريا وغيرها ماركس وانجلز: (فاذا كانت البروليتاريا فى نضالها ضد البورجوازية، تبنى نفسها حتما فى طبقة، وإذا كانت تجعل نفسها بواسطة الثورة طبقة حاكمة، ثم بصفتها طبقة حاكمة تهدم بالعنف والشدة نظام الانتاج القديم، فأنها بهدمها نظام الانتاج القديم، تهدم فى الوقت نفسه ظروف التناقض والتناحر بين الطبقات، وتهدم الطبقات بصورة عامة، وبذلك تهدم أيضا سيادتها ذاتها، من حيث انها طبقة(2).

فالطبقات يجب أن تهدم! ولكن انجلز يرى أن الطبقات سوف تنهدم بصورة طبيعية، كما أنها تكونت بصورة طبيعية، وحتمية، فى الوقت نفسه:

(... وهكذا سوف تتلاشى الطبقات، بمثل الحتمية التى ظهرت فيها(3)...).

ص: 109

1- (1) (الاتحاد السوفياتى فى مائة سؤال وجواب) ص 140 ن. دار البديع.

2- (2) (البيان الشيوعى) ص 54

3- (3) لينين (الدولة والثورة) ص 20 نقلا عن انجلز

(... ولكنها إذ تفعل ذلك تقضى على نفسها بصفيتها بروتاريًا(1)).

وقد مضى خلال التصريحات المتقدمة، وسيأتي، وفر من النصوص التي تؤكد: أن المجتمع الشيوعي يجب ان يحطم الطبقات، ويقضى حتى على البروليتاريا بصفيتها طبقة!!

الغاء الاديان:

من المبادئ المركزية في الشيوعية وإزاحة الاديان حتى عن قلوب الافراد!! وذلك أن الاديان أية كانت تربط الفرد بالله، الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والارض، وتحرم على الانسان القتل، والاضطهاد، والكذب والخداع، والغش، والسلب، والفحشاء.. فاذا علم الفرد - بواسطة الايمان - ان التوسل بهذه الوسائل، محظور عليه، والملائكة يسجلون جميع اعماله في كتاب لا يظل ربي ولا ينسى، والله من ورائهم محيط... فاذا كان الشيوعي مؤمناً بهذه المبادئ فسوف لا يستخدم الوسائل المحرمة، في سبيل خدمة الشيوعية، بل يتخلى عن الشيوعية في اللحظة التي عرف فيها هذا المبدأ الهدام.. وهكذا تخسر الشيوعية مصالحتها في كل مجال... ولذلك عمد قادة الشيوعية الى تبنى المبدأ القائل: (الغاية تبرر الوسطة!)، التي تبيح للانسان اجتراح السيئات كلها في سبيل انتصار القضايا الشيوعية، كي لا يتوقف الشيوعي عن ارتكاب الحرام لتقدم، او ازدهار مبدئه، فتخسر المنظمة الشيوعية ربحا متاحا..

ص:110

1- (1) نفس المصدر ص 21-22

كما ان الاديان لو ظلت تسود البلاد، اندحرت الشيوعية، ولم تجد لها نصيراً، حتى ولا واحداً! لأن الشيوعية - على أحسن تقدير - نظام مختلف يناهض نظام الاديان، ولن يستبدل المؤمن دينه بنظام مختلف!!!

لذلك كله نجد الشيوعيين المبدئين يكرسون جهودهم لازاحة الاديان عن مجال النشاطات العامة، كي يبلغوا بذلك نشر نفوذهم، ويحاولون خنق نور الايمان فى قلوب الشيوعيين المخدوعين، حتى يطمئنوا من استسلامهم الكامل، وانقيادهم الصادق، لتنفيذ الخطط الجهنمية الموحات إليهم...

كما صرح بهذه الحقيقة ستالين عام 1938 م: (يجب على الشيوعى المخلص: ان ينكر الدين فالدين يمنع المؤمن من التوسل بالكذب، والخداع، والغش، والتضليل فى نشر الدعوة التى يريد نشرها... اما الشيوعى المخلص الذى ينكر الدين ولا يؤمن به، فانه يستطيع: ان يحرر عقله من افكار الدين المثالية... وهكذا يستطيع: ان يتوسل بكل الوسائل من كذب الى خداع، الى تضليل، الى غش، فى تحقيق الاهداف الشيوعية(1)).

ولهذا الغرض تبناوا (الديالكتيك) كفلسفة اساسية يركزون عليها مبدئهم... معترزين بافكار (هيجل) و (لودفيغ فوريباخ) و (دارون) و (فرويد)... مرددين مع (هراقليط): ذلك الرجل الاغريقى: (العالم هو واحد لم يخلقه اى إله، او اى انسان! وقد كان ولا يزال وسيكون شعلة حية الى الابد، تشتعل وتنطفئ تبعاً

ص:111

1- (1) النظام الشيوعى ص 54.

هكذا نجد كارل ماركس وفردريك انجلز يهتفان، بكل وقاحة وصفاقة:

(... وما القوانين والقواعد الاخلاقية، والاديان بالنسبة اليه (العامل) الا اوهام بورجوازية، تستتر خلفها مصالح بورجوازية(2)...).

بهذه الاتهامات والتشويهات الفارغة، يحاول ماركس: ان يشوه الاديان ويقضى عليها، قبل ان تقضى عليه، غير ان لينين اخذ يعبر عن الواقع الجاثم في وجهه حيث رأى ان الدين يكون سداً منيعاً امام افكار الاشتراكية، لذلك جعل يحارب الدين اقترباً من الواقع الاشتراكي، فصرح عام 1902 م (كلما تحررنا من نفوذ الدين، ازددنا اقترباً من الواقع الاشتراكي... ولهذا يجب علينا: ان نحرر عقولنا من خرافة الدين(3)).

ومن هنا اخذ يطلق التهم والافتراءات على الدين عله ينفر الناس منه فقال لينين سنة 1905 م: (الدين هو افيون الشعوب... فالدين ورجل الدين يخدران اعصاب المظلومين والفقراء ويجعلانهم يرضخون للظلم(4) وحيث لم تنجح مؤامراته ضد الدين بالالفاظ المتبجحة، جعل يوجه حربه لمحاربة الدين قائلاً

ص:112

1- (1) ستالين (المادية الديالكتيكية) ص 27.

2- (2) (البيان الشيوعي) ص 39.

3- (3) (النظام الشيوعي) ص 52.

4- (4) (النظام الشيوعي) ص 52.

سنة 1905 م: (ان حزبنا الثورى لا يستطيع ان يقف موقفا سلبيا من الدين... فالدين خرافة وجهل(1) وحيث كان ذلك قبل الثورة الشيوعية فى روسيا، كان يرهب غضبة الشعب اذا اطلعوا على الحاده وكفره فكان يوصى حزبه سنة 1905 م:) يجب: ان تهتم عناصرنا التى تقوم بالدعاية للشيوعية، بنشر الاحاد والدعوة له، ولكن بطرق سلمية خفية(2).

وصرح عام 1905 م: (لماذا لا نعلن فى برامجنا اننا ملحدون؟ اننا نفعل ذلك لكى لا نزود خصومنا بسلاح يهاجموننا به... فعدد المؤمنين بالله لا يزال يفوق عدد الملحدين(3).

وبعدما سيطر الحزب الشيوعى على روسيا، وساد الارهاب وزجوا بالمؤمنين، فى اللحد والسجون، وخنقوا اصوات الشعب، حتى ذابت فى ازيز الرصاص وهدير المدافع، سقط النقاب واذا بستالين يقول عام 1927 م: (اننا نقوم بالدعوة ضد الدين الان، لاننا اقوى من ان ينال خصومنا منا عن طريق التشهير بالحادنا... لقد كنا نحرص فى الماضى على عدم اعلان الحادنا لاننا لم نكن اقوياء، اما الان فاننا نعلن بصراحة اننا ملحدون، واننا نرى فى الاديان خطراً على الحضارة الانسانية... فالاديان افيون مخدر(4).

ص:113

-
- 1- (1) نفس المصدر: 53.
 - 2- (2) نفس المصدر: 52.
 - 3- (3) نفس المصدر: 52.
 - 4- (4) نفس المصدر: 52.

وارد ذلك عام 1944 م قائلاً: (نحن ملحدون... ونحن نؤمن بان فكرة الله خرافة، ونحن نؤمن بان الايمان بالدين يعرقل تقدمنا ونحن لا نريد ان نجعل الدين مسيطراً علينا، لاننا لا نريد ان نكون سكارى(1)).

وليس من المدهش ان يتجرأ ستالين بهذه الكلمات البذيئة بعدما سمع لينين عام 1913 م وهو يقول: (ليس صحيحا. ان الله هو الذى ينظم الاكوان... وانما الصحيح هو ان الله فكرة خرافية، اختلقها الانسان ليبرر عجزه!.. ولهذا فان كل شخص يدافع عن فكرة، انما هو شخص جاهل عاجز(2)).

وبعدما سمعه وهو يقول - ايضا - عام 1915 م: (الدين مرتبط بالظلم دائماً... فحيثما يوجد الظلم يوجد الايمان بالدين... واذا ما تخلصنا من الظلم، وجب ان نتخلص من الدين... بل ان تخلصنا من نفوذ الدين يساعدنا على التخلص من الظلم(3)).

وهكذا نجد ستالين يذهب ليتمم خطط لينين، فقال عام 1937 م (يجب ان يكون مفهوما: ان الدين خرافة... وان فكرة الله خرافة... وان الالحاد هو مذهبنا(4)).

وتقدم ستالين خطوة جريئة عام 1928 م حيث اراد نشر الالحاد فى الجيل

ص:114

1- (1) نفس المصدر: 53.

2- (2) نفس المصدر: 53.

3- (3) نفس المصدر: 53.

4- (4) نفس المصدر: 54.

الصاعد عن طريق التربية في المدارس: فقال: (يجب ان تقوم التربية في المدارس على اساس انكار الدين، وعلى اساس انكار الله(1)) وتوسع ستالين عام 1933 م فاراد ان ينشر الالحاد في الوعي العام فقال: (الثقافة النافعة هي التي تحرر عقول الناس من استبداد الدين... والتعليم النافع هو التعليم الذي ينشر الالحاد... والرأى العام الصالح هو الرأى العام الذي لا يؤمن بأية افكار سوى الافكار الماركسية(2)).

وعلل ذلك عام 1935 م فقال: الدين هو الذى يغرس فى نفوس الناس الافكار والاخلاق المثالية التى لا وجود لها فى الواقع... ولهذا نحارب الدين، لاننا لا نريد ان تتغلغل فى نفوس النشء آراء مثالية زائفة(3).

محاربة الاخلاق:

مما يحرص عليه الشيوعيون، لنفس الغرض الذى من اجله يحاربون الاديان، وذلك ان الشيوعية تزاحم الاخلاق، فى الخطوط المعاكسة!!، حتى لو بقيت النفوس مؤمنة بالاخلاق الانسانية النبيلة، لكفرت بالشيوعية، واسالبيها، واهدافها، على ضوء ذلك نجد لينين يلتجىء الى تفسير الاخلاق بكل ما يخدم النضال الشيوعى... ويجعل الشيوعية هدفا ووسيلة للحياة، كى لا يفكر الناس فى غيرها، ويكرسوا طاقاتهم لخدمتها، دون ان يعيقهم منها دين او ضمير او

ص:115

1- (1) نفس المصدر: 54.

2- (2) نفس المصدر: 45.

3- (3) نفس المصدر: 45.

اخلاق، فيقول لينين: (غالبا ما يزعم: ان ليس لنا اخلاق خاصة بنا، وفي معظم الاحيان تتهمنا البورجوازية: نحن الشيوعيين باننا ننكر كل الاخلاق، وتلك طريقة لتشويش الافكار لتضليل العمال والفلاحين، باى معنى ننكر الاخلاق، وننكر السلوك؟؟ بالمعنى الذى تبشر به البورجوازية التى كانت تشتق هذه الاخلاق من وصايا الله وبهذا الصدد نقول: بالطبع اننا لا نؤمن بالله ونعرف جيداً جداً: ان رجال الدين، وكبار الملاكين العقاريين كانوا يتكلمون باسم الله لكى يؤمنوا مصالحهم كمستثمرين(1)... ان كل اخلاق من هذا النوع مستقاة من مفاهيم غريبة عن الانسانية غريبة عن الطبقات، ان كل اخلاق كهذه ننفىها وننكرها ونقول: انها تخدع العمال والفلاحين، وتغشهم وتحشو ادمغتهم حشوا: اننا نقول: ان اخلاقنا خاضعة تماما لمصالح نضال البروليتاريا الطبقي ان اخلاقنا تنبثق من مصالح نضال البروليتاريا الطبقي(2).

فالظلم والاضطهاد، والغش، والخداع، وسائر المظالم والجرائم، من صميم الاخلاق ما دامت تخدم نضال البروليتاريا الطبقي، واما الاخلاق الفاضلة، التى تناقض الشيوعية، وتبرز مساوئها، ومفاسدها، فانها تخدع العمال والفلاحين!!

ص: 116

1- (1) ليس من العجيب ان يكفر لينين بالله والاخلاق، تلبية لنداء الشيطان، واستسلاماً لعواطفه الفاجرة، ومصالحه الفردية الرخيصة، وارضاءاً لحزبه ومبدئه... ولكن الذى يثير العجب انه كيف لا يستحى ان يتهم بكل صفاقة جميع المؤمنين بالله ب - (انهم كانوا يتكلمون باسم الله لكى يؤمنوا مصالحهم كمستثمرين...) ولكننا نفقد هذا العجب متى استمعنا اليه فى الكلمات التالية!

2- (2) لينين (مهمات منظمات الشباب) ط موسكو ص 15

لماذا؟ لأنها تريح عنهم قسوة الشيوعية، وتكسح عنهم سكرات الاغراء ويذهب لينين إلى حيث يقول: إننا لا نؤمن بالاخلاق الابدية.(1)

وإننا نفضح جميع القصص والحكايات الكاذبة، الملفقة حول الاخلاق(2) فليفضح البراهين والحكم الصادقة الواردة حول الاخلاق الانسانية النبيلة، ان كان من الصادقين، ولكن الواقع ان زعماء الشيوعية، كاذنابهم لا يملكون الحجج والبيانات وانما يطلقون دعاوهم الفارغة، ثم يؤيدونها بالسخرية، و الاستهزاء السخيف ليطمسوا بذلك الحقائق البارزة، ويحسبون ان الدكتاتورية الفكرية تنجح كما نجحت دكتاتوريتهم الخارجية... وقد فصل (انجلز) قاعدة مركزية للاخلاق يميز بها الحسن من القبيح فقال عام 1877 م: (اننا نرفض شتى المحاولات التي تحاول ان تفرض علينا اخلاقا تسند الي (المثاليات): ذلك اننا نؤمن: ان الاخلاق هي نتاج الاوضاع الاجتماعية، ولما كانت الاوضاع الاجتماعية متغيرة فان مفاهيم الاخلاق لا بد ان تتغير... ان الاخلاق التي نؤمن بها هي كل عمل يؤدي الى تحقيق انتصار مبادئنا، مهما كان هذا العمل

ص:117

1- (1) يزعم الشيوعيون ان كل شيء يتطور، حتى الاخلاق - فمثلا - كان الظلم قبيحا في القرن العاشر، اما في القرن العشرين فقد اصبح حسنا، وكذلك قتل الابرياء، والسرقه والخيانة، كانت من الرذائل، فاصبحت - في ظل الشيوعية - من الفضائل وعلى ذلك يبنى لينين قوله: (اننا لا نؤمن بالاخلاق الابدية) لان الاخلاق عنده متطورة، فالخالق الواحد يكون حسنا وقبيحا تبعا للظروف!.

2- (2) نفس المصدر: 21

منافيا للاخلاق المعمول بها(1). وعن هذه النظرية عبر لينين قائلا: ان ما يقوم في اساس الاخلاق الشيوعية، هو النضال في سبيل ترسيخ الشيوعية، وانجاز بنائها. ذلك هو ايضا اساس التربية الشيوعية والتثقيف الشيوعي، والتعليم الشيوعي(2).

وبعدما تركزت هذه القاعدة كمبدأ اساسى فمن الطبيعى ان ينجم منها قول لينين عام 1910 م: (يجب على المناضل الشيوعي الحق: ان يتمرس بشتى ضروب الخداع، والغش، والتضليل...

فالكفاح من اجل الشيوعية، تبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية(3). فالمناضل الشريف يجب عليه: ان ينبذ الاخلاق، ويعرف: ان الاخلاق في سحق الاخلاق مهما تطلبت ذلك مصالح البروليتاريا، اما اذا حفزه الوازع الدينى على اعتناق مبادئه الاخلاقية ومثله العليا فان لينين حدد موقفة حيث قال عام 1918 م: (إذا لم يكن المناضل الشيوعي قادراً على أن يغير أخلاقه وسلوكه وفقاً للظروف، مهما تطلب ذلك من كذب وتضليل وخداع، فانه لن يكون مناضلاً ثوريا حقيقياً(4).

ص:118

1- (1) (النظام الشيوعي) ص 18.

2- (2) لينين (مهمات منظمات الشباب) ص 22.

3- (3) (النظام الشيوعي) ص 20-21.

4- (4) نفس المصدر ص 21.

انه ليس شيوعيا محترفا، لانه لا يتطوع للافكار الشيوعية، أما الشيوعى الحق فهو الذى يتوصل الى تحقيق الاهداف الشيوعية، بما تتطلبه الظروف الخاصة من التضحية بكل شىء حتى بالاخلاق والكرامة والضمير كما قال لينين عام 1920 م: (ان المناضل الشيوعى الثورى الحق هو ذلك الذى يبذل كل تضحية يفرضها عليه تحقيق الهدف الشيوعى، ولو تطلب الامر التضحية بالاخلاق والكرامة والضمير... فالهدف المثالى الحق هو تحقيق المجتمع الشيوعى(1).

وذلك لأن الشيوعية هدف نبيل يجب التوصل اليه. أما الوسطة فلتكن ما تشاء!! أو ليست الغاية تبرر الوسطة؟ هذا هو منطق لينين عام 1921 م عندما قال: (يجب أن يكون مفهوما: أن الشيوعية غاية نبيلة وان تحقيق الغاية النبيلة يتطلب فى كثير من الاحيان استخدام وسائل غير نبيلة ولهذا فان الشيوعية تبارك شتى الوسائل المناهضة للاخلاق، مادامت هذه الوسائل تساعد على تحقيق أهدافنا الشيوعية(2).

ونجد نفس النغمة تردد على لسان ستالين فقد صرح عام 1921 م (لن نكون ثوريين مناضلين بحق، الا- إذا طبقنا دائما ما تعلمناه من (ماركس) عن ضرورة استخدام كل الوسائل الاخلاقية، وغير الاخلاقية فى كفاحنا من أجل الشيوعية(3).

ص:119

1- (1) نفس المصدر ص 21.

2- (2) نفس المصدر ص 21.

3- (3) (النظام الشيوعى) ص 2.

وفى عام 1938 م بعدما انتشرت الشيوعية فى شتى الاقطار، أراد ستالين أن يزودهم بنفس السلاح الذى نجح به فى روسيا، ويغذيهم بتلك الافكار التى استمدها من اسياده الشيوعيين فاذا به يوجه اليهم هذا النداء: (أن الشيوعى المخلص فى الدول غير الشيوعية، هو ذلك الذى يعرف كيف يقضى على نظم الحكم غير الشيوعية، بلا هوادة وبلا رحمة وبلا شفقة... وهو ذلك الذى يستعين بكل وسائل التضليل، والخداع، وسعة الحيلة، لفرض النظم الشيوعية على البلاد التى يعمل فيها(1)).

وكان قبل ذلك فى عام 1928 م قد ادلى إلى عملائه فى البلاد غير الشيوعية بهذا التصريح: (نحن نبارك كل عمل يؤدى الى التعجيل بتحقيق الشيوعية الدولية... ولهذا نبارك كل ضرب من ضروب التخريب الداخلى والفتن، والمشاحنات، والاضطرابات... فكل هذه الامور تؤدى الى التعجيل بالثورة الدولية(2)).

تحطيم القوانين السائدة:

وقيام الثورة الشيوعية العالمية، هو الحلم الاشقر، الذى ظل يداعب الشيوعيين جميعا. فمنذ عام 1862 م كان كارل ماركس يقول: (لا بد أن يأتى يوم تصبح فيه العلاقات الشيوعية، هى العلاقات التى تحكم كل مجتمع فى شتى انحاء العالم... ولا بد ان يأتى يوم يصبح فيه العالم كله شيوعيا(3)).

ص:120

1- (1) نفس المصدر: 44

2- (2) نفس المصدر: 58.

3- (3) نفس المصدر: 55.

وبعدما جاء لينين الى الحكم رأى ان القوانين السائدة فى البلاد غير الشيوعية رغم انها غير صالحة ولكنها خير من النظم الشيوعية، ولا بد ان تغرى تلك القوانين الشيوعيين الذين يتبادلون العلاقات مع غير الشيوعيين، ولا بد ان يتمخض ذلك عن قيام ثورة داخلية ضد الشيوعية لذلك عمد لينين إلى احداث توتر العلاقات بين شعب روسيا وشعوب العالم، ووضع السياج الحديدى بين البلاد الشيوعية، والبلاد غير الشيوعية، كى يأمن انتشار الوعى السياسى فى بلاده... وقد عبر ستالين عن هذه الحقيقة عام 1934 م ولكنه سكبها فى اسلوب اخر، حيث قال: (دعونى أذكر لكم بصراحة أن نظامنا الشيوعى فى الداخل سيظل مهدداً بالخطر، مالم نفلح فى تحقيق الشيوعية الدولية... فما دامت الدول المحيطة بنا مناهضة للنظام الشيوعى، فانها لن تكف عن محاربتنا... ولهذا يجب التعجيل باشعال نار الثورة الشيوعية العالمية(1)).

وفى عام 1920 م صرح لينين بذلك عندما قال: (لقد نجحنا بفضل القوة، ولهذا لن نتخلى عن هذه القوة إلا بعد أن نحقق ثورتنا العالمية... ولكن هذه القوة ستظل سلاحنا فى كل وقت(2)).

فما دامت فى العالم نظم غير شيوعية، فان الشيوعية - بذاتها - مهددة - بالخطر المحقق، دون ايما محاولة من أحد، لذلك لا بد للحكومة الشيوعية أن تشهر السلاح لكبت الانتفاضات والحركات الداخلية، ولا تستطيع أن تضع السلاح

ص:121

1- (1) نفس المصدر: 56.

2- (2) نفس المصدر: 22.

إلا اذا سيطرت الشيوعية على العالم كله، حينما يطبق الظلام، فلا يرى أحد بصيصا من الضياء... ومع ذلك فلا يمكن وضع السلاح بحال، لان الشيوعية غير ملائمة للطبائع الاصلية، فهي لا تتسجم مع العواطف حتى تتقبلها بسلام بل الواجب أن تفرض على الناس فرضا...

فلا بد من تطبيق الشيوعية على العالم كله، كى تحرس شيوعية روسيا

وإلا فانها محاطة باشباح الخطر التى ترتجف فى كل مكان.. وقد اشار الى ذلك لينين عندما قال: (يجب أن نعلم الشيوعيين فى كل مكان، كيف يعملون على تحقيق الثورة الشيوعية العالمية... فالنظم الشيوعية فى اية دولة شيوعية، لا تصح ولا تزدهر، الا إذا قامت الثورة الشيوعية الدولية، لتحرسها(1)).

وقد صرح بذلك ستالين - ايضا - عام 1926 م قائلا: (لن يستقر نظامنا الداخلى، إلا إذا نجحت الاحزاب الشيوعية فى إشعال نيران الثورة فى كل مكان بالعالم(2)).

العمل الاجبارى:

إن حب الذات يوزع الانسان الى الخلود فى التسلية، والنكول حتى عن ابسط المتاعب والاعمال، فهو بنفسه تواق الى الهدوء والارتياح وسوف يضرب الانسان أن يحرك إصبعه إلا إذا كان هناك وازع أقوى من حب الارتياح، ينبعث

ص:122

1- (1) نفس المصدر: 55.

2- (2) نفس المصدر: 58.

من حب الذات - ايضاً - فالانسان يسمح لنفسه أن يضحي بشطر من راحته، إذا كانت هناك منفعة راجحة، توفر للانسان من وسائل الراحة مقداراً أوسع من كمية التضحية، التي يتطلبها الموقف، - فمثلاً - الفرد يعمل 8 ساعات شريطة ان ينال كفايته من الراحة 16 ساعة... كما انه مستعد للعمل 16 ساعة متى علم ان ذلك يوفر له اسبوعاً من الراحة - مثلاً -...

وكذلك يتدرج الانسان في ارهاق نفسه متى ضمن له مدد من الراحة المدخورة، يمكنه سحبها متى شاء، وذلك لا يكون الا بالمنافع الشخصية المتكافئة.

أما اذا علم الفرد: انه لا ينال جزاء عمله وجهاده موفوراً، وانما يسلب منه ريع انتاجه، ومكاسب جهاده بصورة منتظمة الزامية، فلا بد ان يدب فيه روح التبرم، ويلتجئ الى الاضراب عن العمل، والنظام الشيوعي حيث يعرف ذلك، يقرر ان يكون العمل اجبارياً للجميع، حتى يعملوا، لا رغبة في الانتاج، بل خشية العقوبات... فنرى كارل ماركس وفردريك انجلز عندما كانا يضعان الخطوط العريضة للشيوعية التطبيقية في اكثر البلاد تقدماً ورقياً، يجعلان المادة الثامنة منها: (جعل العمل اجبارياً للجميع⁽¹⁾) حتى ان نوع العمل، ومكانه، اجباري ليس لاحد ابداء رأيه في الموضوع، بل الدولة تحدد لكل فرد عملاً، يؤاخذ به على تركه، كما صرح بذلك ستالين عام 1931 م: (نحن لا نتساهل مع اولئك البلهاء، الذين يظنون: أن حق العمل يعني حق اختيار الوظيفة او العمل

ص: 123

1- (1) (البيان الشيوعي) ص 53.

او المكان الذى يعلمون فيه... فنحن نحدد نوع العمل ومكانه وفقا لما تتطلبه اوضاعنا الاقتصادية(1).

وليس للعامل حرية ترك العمل، فانه يعتبر بذلك عنصراً هداماً للنظام الشيوعى، يجب مؤاخذته قبل ان يفت فى عضد النظام السوفياتى، ذلك ما قاله لينين عام 1922 م: (يجب ان يكون مفهوما ان اى عمل فى اى مصنع من المصانع، هو عمل حددته الدولة للعامل... ولن نتساهل باية حال من الاحوال مع العمال الذين يهجرون اعمالهم... فامثال هؤلاء العمال يعتبرون، فى نظرنا، عناصر هدم لنظامنا السوفيتى(2).

ولقد مر الكلام على العمل الاجبارى تحت عنوان: اكتساح الطبقات.

رفع النقود والاسواق:

فيجب على الجميع: ان لا- يفرطوا فى اداء مسؤولياتهم، المرسومة من قبل الدولة، دون اى تردد او نقاش... كما تجنى الدولة ارباح مكاسبهم وتقرر لهم معدلا من ال-جور، غير ان النقود لا- تحول اليهم ابدأ لان البضائع كلها ترصد فى مخازن الدولة، فماذا يصنعون بالنقود؟ زيادة على ان ال-جور لا تفضل عن عيش مقتر كى يحتاجوا الى النقود ليتركوها بل اجور اليوم تستهلك فى اليوم ذاته. على هذا الضوء لا تبقى حاجة الى النقود والاسواق، بل العامل يتقاضى

ص:124

1- (1) نفس المصدر ص 48.

2- (2) نفس المصدر 47.

ازاء عمله البضائع... كما ينص على ذلك فى كتاب:

(الاتحاد السوفياتى فى مائة سؤال وجواب ص 140 وقد مر ذلك تحت عنوان اكتساح الطبقات)!!!

القضاء على الدولة:

وبعدما تنفذ الدولة، المتمثلة فى البروليتاريا الحاكمة، جميع هذه المخططات، وتؤدى مسؤولياتها كاملة... وتروض الشعوب على ان تعيش الشيوعية، بنفسها، ودون أيما حافز او جاذب... تبقى لحكومة البروليتاريا مهمة اخرى يجب تنفيذها حتى تكمل رسالتها الشيوعية، وهى ان تتخلص، رويدا... رويدا... وتتفتت - هى بنفسها - قليلا.. قليلا.. حتى تتبخر سلطتها وتذوب هى فى مجموع الشعب لان الشعب لا يسمح بتوسط الدولة بينه وبين افراده...

عندئذ يتحقق حلم البشرية، ويخرج الانسان من حظيرة الحيوان الى الفردوس الاعلى، وحكومة الضمير، وتعود الشيوعية الاولى، التى قضى عليها دور الرق، والاقطاع، والرأسمالية..

تلك هى نظرية الشيوعيين عن الدولة.. فليتحدث عنها القادة المبدئون للشيوعية!! وليكن ذلك فردريك انجلز!.. فلنسمع اليه وهو يقول:

(.. وحينما تقبض البروليتاريا على زمام الحكم تحول وسائل الانتاج الى تملك الدولة، وبذلك تتخلص من طابعها البروليتارى، وتتخلص من كل تمييز

ص:125

وتناقض طبقى فى المجتمع، وبالنهاية تقضى على وجود الدولة، كدولة(1).

فآخر عملية يلزم على البروليتاريا القيام بها هى القضاء على الدولة، فالدولة غير مسموح بها الا لتؤدى واجبات معينة تحتاج الى امكانات الدولة، مسؤولياتها فلا معنى لبقائها فى حكومة البروليتاريا التى تفرض قوة اجنبية على الشعب، ان الدولة ابدأ توجد لفرض قوة خاصة على مجموع الشعب.. ومكافحة الاصوات المعارضة بالقوة والتعذيب، وحيث ان حكومة البروليتاريا نزيهة عن كل هذه المظالم فهى - بالطبع - مستغنية عن الدولة، بل انها ترفض الدولة، ولا تسمح ببقائها، تلك حجة انجلز ضد الدولة: (وحيث ان الدولة وجدت لتمثل المجتمع باكملة تمثيلا رسميا، فتجسيمها عمليا لا يمكن وجودها، الا حينما يقتصر على تمثيل الطبقة، التى تفرض نفسها لتمثيل المجتمع بكامله ولكن حين تصبح حقيقة تمثل المجتمع على اختلاف طبقاته، تصبح عندئذ لا ضرورة لوجودها، وحين لا توجد طبقات تحت الضغط والظلم، وحين لا يوجد صراع من اجل البقاء، فى فوضى الانتاج، ينعدم التصادم، والافراط فى التناقض، الناتج عن تلك الفوضى، وعندئذ لا تبقى وظيفة ولا حاجة للدولة!! واول حركة تقوم بها الدولة، فى سبيل فرض تمثيلها الصحيح لكامل المجتمع، تأميمها وسائل الانتاج باسم المجتمع، فتكون فى الوقت اخر حركة تقوم بها باعتبارها دولة. وعندئذ حكم الافراد يفسح مجالا للانتاج، فيصبح له مكانة فى الادارة والتوجيه.

ص:126

1- (1) فردريك انجلز (الاشتراكية بين الخيال والعلم): ص 72.

حيث ان المجتمع لا يتسامح قط، مع وجود دولة بينه وبين افراده(1).

وليس هذا فحسب! بل اكثر من ذلك، ان قيام طبقة معينة بفرض ارادتها على المجتمع الواعى، ليس امراً مزعجاً فقط، بل يعرقل سير الامة والاقتصاد، والسياسة، لانه يحدد نشاط وطاقت الافراد ببرامجه الخاصة فيقل انتاج الامة، ولا يمكن اطلاق الحريات الكاملة فى كل مجال الا بالغاء ذلك الجهاز الموجه للمجتمع: الدولة، يصرح بذلك انجلز قائلًا: (... ويعنى هذا ان نمو الانتاج الى درجة صالحة، وتملك وسائل الانتاج والمنتجات من قبل طبقة، كالسيطرة السياسية، وتوحيد وثقافة، والتحكم بالتوجيه الاجتماعى العقلى، من قبل اى طبقة، لا تصبح امورا مزعجة فقط، بل تكون ايضا عقبة كأداء فى سبيل التقدم الاقتصادى والسياسى، والعقلى(2).

ثم يتفلسف لذلك، وكيف ان المجتمع اذا خرج من حكومة طبقة معينة، واستطاع ان يتمتع بأقصى حرياته ومواهبه، يكون حكومة انسانية يسودها الضمير، ويسيطر عليها العقل، يعيش فى المرة الاولى تحت رقابة الانسانية المتحررة، ثم يسبح فى الاحلام، ويحلق فى سباحات تلك الاجواء المثالية، كشاعر يعتصر قلبه صوراً وألواناً، فلنصغ الى ترانيمه!:(.. حينما سيطر المجتمع على وسائل الانتاج، لا يعود يأخذ الانتاج صفة البضاعة اعنى بوضع حدود لطريقة تملك الانتاج، التى كما رأينا، تجعل المنتجات تتحكم بالمنتج، فالفوضى فى الانتاج

ص:127

1- (1) نفس المصدر ص 52-53.

2- (2) نفس المصدر ص 75.

الجماعى، تقسح مجالاً- للتنظيم الوعى المثلالى، والصراع لاجل الوجود الفردى يتلاشى. ولا نستطيع الا من تلك اللحظة ان نقول بان الانسان خرج أكيدا، من مملكة الحيوان، حيث يكون عندئذ قد استبدل شروط الوجود الحيوانى، بشروط وجود إنسانية حقيقية. ومجموعة شروط الوجود، التى سيطرت حتى الان على الناس، تصبح عندئذ خاضعة للرقابة الانسانية، وبلوغ الانسان السيادة على التنظيم الاجتماعى، يبلغ بذلك للمرة الاولى السيادة، والوعى على الطبيعة ذاتها بالقوانين التى يفرض وجودها فى المجتمع حتى الان معتبرة كقوانين طبيعية غاشمة، تفرض على الانسان سلطة غريبة.... ولكن منذ هذه اللحظة ستصبح القوانين من إبداعه، وخلقه هو.. فمن هذا التاريخ سيبدىء الانسان فى بناء تاريخه بيديه، بناءً واعياً مدركاً بأن الاسباب الاجتماعية، التى يحركها دوماً تنتج بتقدم النتائج، التى يريدونها، وعندئذ تخرج الانسانية من مملكة القدر لتدخل فى مملكة الحرية(1).

كان بارقة أمل كانت تلوح لانجلز، او استبدت به الهواجس فى هدنة الظلماء فجعل يهذى بهذه الاساطير: (منذ هذه اللحظة..):

(فمن هذا التاريخ...)

غير ان الليل لم يحرف هذه الاطراف، بل ظلت تراود أفكار لينين - وحتى بعد ان مرت به تجارب قاسية - فنراه يقول - ناقلاً عن انجلز - (تتولى البروليتاريا على سلطة الدولة، وتحول وسائل الانتاج بادى ذى بدأ الى ملكية

ص:128

1- (1) نفس المصدر ص 76-77.

الدولة لكنها إذ تفعل ذلك تقضى على نفسها بصفتها بروليتاريا وتقضى على الدولة بصفتها دولة... ان الدولة لم تلغ بل هي تقنى... (1).
ويؤكد ذلك مرددا كلام انجلز: (... وان ظلت غير ملائمة لحزب ليس برنامجا اقتصاديا اشتراكيا، بصورة عامة بكل بساطة بل شيوعيا على وجه الدقة، لحزب هدفه الاخير حذف كل دولة، وحذف الديموقراطية بالتالى (2). (3).).

ص: 129

1- (1) لينين (الدولة والثورة) ص 21-22.

2- (2) نفس المصدر ص 100

3- (3) ليس نقلنا لتصريحات لينين وستالين، غفلة او خلطا للمبادئ، فأنا اعلم أن لينين وستالين إشتراكيان وليسا بشيوعيين وتصريحاتهم ليست حجة على الشيوعية، غير أنهما عندما يشرعان كلام ماركس او انجلز، أو يجريان على نظريتهما فان تصريحاتهما حجة على الشيوعية ولذلك تجد في كل موضوع اننا لا نكتفى بتصريحاتهما بل نسجل أيضا من تصريحات ماركس أو انجلز.

فشل الشيوعية:

هناك طريقتان، نتخذ كلا منهما قاعدة لمناقشة الشيوعية:

1 - التساؤل عما اذا كانت النظرية الشيوعية، امرا واقعا يستطاع تطبيقه؟! ام هى فكرة من نوع (المثاليات) التى تتأبى على الواقع، ويلفظها الصعيد التطبيقى؟ مع فرض الافتناع بعدالتها، وعدم خطورتها.

2 - البحث عن الخسائر والاضرار التى تستتبعها الشيوعية، والاطفاء، والاعلاط التى نشوك بها النظرية الشيوعية...

مثالية الشيوعية:

ان أهم نوع من أنواع الفشل لمبدأ ما، هو ان يكون ذلك المبدأ مستعصيا على التطبيق، وان يكون التاريخ قد أعلن عجزه عن تطويعه لحقبة، من حقبة الزمنية، واول ما يسترعى الاذهان من التحلل النابع من التطرف الشيوعى هو التسائل التالى:

استجواب:

هل النظام الشيوعى نظام يمكن تطبيقه على صعيد المجتمع، كما امكن وصفه على صعيد الورق؟! أم انه وهم يعيش فى الخيال، ولا يبرز للنور إلا- ويثير التهريجات والفوضى فى الاتجاهات والافكار، حتى اذا تبرع المتطفلون بالوسائل لتطبيقه، طار من أكف دعائه كما يطير الوهم، وانسحب كما تنسحب الاطيف امام أشعة الصباح!؟؟

ص:131

ثم يأتينا الجواب سلبيا: (نعم! إنه نظام مثالي غير صالح للتطبيق!!!) فقد كان ماركس رجلا متشائما ناقما على الحياة، وكافرا بالضياء والنور والسعادة... (1) حاول الانتقام من البشر الذى لم يركع امامه واطاح به فى بؤرة المنبوذين... فكان كلما آوى الى مخدعه جعل ينحت من تجاعيد دماغه هذه الافكار والنبوءات، ولم يلتقطها من واقع المجتمع والحياة بل كان يتنقب فى الماء، ويتصيد السمك فى الهواء، فأصبحت اشبه بالاوهام، منها بالمبادئ والديساتير، وكانت قفزته الخيالية انتفاضة عاطفية فجائية، عقبها سقوط اكثر إمعانا فى الفجائه.... ولكنه كان يعيشها جذلا مغتبطا... ثم انجرف معه تلميذه وزميله أنجلز... فتعاونوا على إطلاع أفكاره ونشرها فى الاوساط الناقمة الثائرة، كالعمال والفلاحين الذين هم أبعد الطبقات عن الوعي والثقافة، فتقبلها الكثيرون، لا رغبة فيها، بل خشية من الانظمة التى كانت تسود ذلك اليوم، ورزحوا تحت كابوسها طويلا...

وكان كارل ماركس يؤمن بأفكاره إيمانا عميقا، وحتى دفع بأنجلز ليشر بها، ويعلن تطبيقها، ولكنها لم تغن من الحق شيئا... حتى إذا ظهر لينين على المسرح واستعاد نشاطه، وتجمع قواه. واندفع بكل ثورة وحماس ليطبق أفكار ماركس وتنبؤاته... فاذا بها انفزرت كما تنفزر فقاقيع الصابون... واسقط فى يده أن رأى نفسه يتحطم على صخرة الواقع...

فابتدر الى نسخ النظريات الشيوعية، وابتدع نظرية اخرى هي الاشتراكية... وحيث كان قد ألب الجماهير حوله باسم المبادئ الماركسية، ورأى الناس مغرمين بتلك المبادئ، لا بما يخلقه ارتجالا تحت ضغط الظروف والملايسات... وهاله ان يعلن عجزه وانهزامه من الميدان، وفشل المبادئ الماركسية، خشية ان يفرق الناس من حوله، وينتهز الفرصة (حزب المنشفيك) المناوىء للشيوعية، ويعود قيصر الى العرش وينكل بلينين وزبانيته شر تنكيل...

لهذه العوامل، وغيرها.. حاول ان يوفق بين نظرياته والمبادئ الماركسية، ماوسعه الامر... واعلن ان الشيوعية لا تنزل علينا عفوا من السماء، وإنما يجب ان نصنعها بأيدينا عبر نضال طويل، يجب ان نخوضه ونخوضه كل فرد روسي... فلنستمع إليه وهو يقول:

(والمجتمع الشيوعي انما هو شيوعية في كل شيء الارض مشتركة، والمعامل مشتركة، والعمل مشترك، تلك هي الشيوعية، فهل يمكن ان يكون ثمة عمل مشترك؟ اذا كان كل أمرئ يستثمر قطعة من الارض لحسابه الخاص، إن العمل المشترك لا ينشأ دفعة واحدة! هذا غير ممكن! ولا يهبط من السماء! انما ينبغي اكتسابه، إنه ثمرة آلام طويلة، ينبغي إنشائه، وهو ينشأ في غمرة النضال(1).

فاعتبر نفسه في فترة الانتقال، زاعما: استحالة القفزة الفجائية من المرحلة الرأسمالية، الى الشيوعية، دون ان تتخللهما المرحلة الاشتراكية.

فقال: إننا يجب ان نحقق الاشتراكية لنعبد الطريق الى الشيوعية، وزعم ان هذه كانت فكرة ماركس وانجلز، ليبرر قصوره وعجزه، ونقل عن أنجلز، التصريح التالي:

(.. إذن فقد كان من المحال بصورة مطلقة، بالنسبة الى ماركس، كما بالنسبة الى ان نستعمل مثل هذا التعبير المطاط، للتعبير عن وجهة نظرنا الخاصة لكن الامور تختلف اليوم فيمكن التساهل بقبول مثل هذه الكلمة، (اشتراكي ديموقراطي)، وإن ظلت غير ملائمة لحزب ليس برنامجه الاقتصادي اشتراكيا بصورة عامة، بكل بساطة، بل شيوعيا على وجه الدقة(1)..).

وربما كان يلقي الذنب: ذنب عدم تطبيق الشيوعية على تأخر البلاد، زاعما اننا نقوم بشيء من التراجع في اداء مسؤوليتنا لان تأخر البلاد الاقتصادي، لا- يسمح لنا بتطبيق الشيوعية، ولكننا بهذا التراجع نستمد نشاطا مضاعفا لترجع الكرة الحاسمة على رواسب الرأسمالية، والاشتراكية القائمة في سبيل تطبيق الشيوعية، قائلا: (... إنهما: (الحزب الشيوعي والحكم السوفياتي) يقومان بشيء من التراجع، لكي يستطيعا حين يصبحان أحسن استعدادا، ان يستأنفا الهجوم على الرأسمالية إن التجارة الحرة، والرأسمالية مسموح بهما اليوم، بصورة خاصة، وهما

ص:134

1- (1) لينين الدولة والثورة ص 100 نقلا عن أنجلز.

تتطوران على أن تكونا خاضعين للترتيبات، التي تضعها الدولة... إن مشاريع الدولة التي حولت الى مشاريع اشتراكية، تتبنى المبدأ المسمى بمبدأ المردود التجارى، أى إنها تعمل على أساس تجارى، وهذه الحالة نظر لتأخر البلاد(1).

وحيث كان يحمل هذه المسؤولية على تأخر البلاد، حاول استنزاف طاقات العمال والفلاحين، لترميم الاقتصاد، وذلك بجعل كل فرد عضواً فى الحزب الشيوعى، ليستفرغ مواهبه وامكانيات فى تشييد البناء الشيوعى دون ايما قيد او شرط لذلك نراه يطلق هذا النداء: (... أما نحن فينبغى لنا أن ننظم كل الاعمال... بصورة يستطيع معها كل عامل وكل فلاح أن يقول: إننى عضو فى هذا الجيش الكبير، جيش العمل الحر(2).

وكان أبداً يمنى الناس بأنه سيقوم الشيوعية فى اليوم القريب...

فنجده مرة يقول: .. وسأعرف بنفسى كيف أقيم النظام الشيوعى(3).

وأخرى كان يؤمل الناس بقيام الشيوعية بعد عشر او عشرين عاماً قانلاً: (ينبغى على الجيل الذى يبلغ اليوم الخامسة عشرة من العمر، والذى سيعيش فى المجتمع الشيوعى، بعد عشر، او عشرين سنة ان ينظم دروسه...)(4).

ص: 135

1- (1) لينين (حول دور النقابات ومهامها) ص 6.

2- (2) لينين (مهام منظمات الشباب) ص 28.

3- (3) لينين (مهام منظمات الشباب) ص 28.

4- (4) نفس المصدر: 28.

لقد انطوت حياة لينين، وخلفه استالين وهو الآخر أيضا لم ينجز تطوير الاشتراكية الى الشيوعية بل علقه على ثلاثة شروط:

(فاولاً، يجب ان يؤمن بشكل متين، انما متواصل لكل الانتاج الاجتماعى...).

وثانياً: يجب لتحقيق الانتقال... رفع الكولخوزية..

وثالثاً، تأمين تقدم ثقافى للمجتمع يتيح لجميع اعضائه تطوير مؤهلاتهم الجسدية والفكرية تطويرا متناسقا... (1).

لقد كان لينين يهيب بالناس ان يعملوا لبناء الشيوعية، التى ستتتحقق بعد عشر او عشرين عاما... وأهاب ستالين بالناس أن يعملوا لتحقيق الشروط الثلاثة ولم يختلف عن لينين وستالين سائر زعماء الشيوعية فانهم جميعاً كانوا يلهجون بهذه النغمة... ولكن واحداً منهم لم يتخط هذه الخطوة... وان حملوا الناس باسمها اعباء وعباء...

ولقد انقضى عشر سنين، وعشرون سنة... وبلغ الاتحاد السوفياتى العقد الخامس من عمره وانجز مكاسب وانتصارات (!) ولا يزال خرسوف يمنى بقيام المجتمع الشيوعى، لتغريير السذج البسطاء فنراه يقول: (... ونحن نسير

ص:136

1- (1) (الاتحاد السوفياتى فى مائة سؤال وجواب) ص 138-140 نقلا عن ي. ف ستالين فى كتابه (القضايا الاقتصادية الاشتراكية فى الاتحاد السوفياتى).

ويقول: (... وعمّا قريب ستأخذ هذه البلدان، شأنها شأن الاتحاد السوفيتي، في بناء المجتمع الشيوعي... (2).

وتجد هذه التصريحات وغيرها تتميز بطابع التسوية... غير ان خروشوف يأبى في بعض الاحيان حتى هذا التسوية، فهو يجد الامور طوع يديه، مهما كانت تصريحاته، فلا يجد حرجاً من التصريح بالواقع الراهن لذلك يصرح بان الانتقال الى المرحلة الشيوعية جد بعيد، فان بعض البلاد السوفيتية لم ينتقل بعد الى مرحلة الاشتراكية، فكيف تسنح لها الانتقال الى الشيوعية؟: (كيف يجرى في المستقبل تطور البلدان الاشتراكية، نحو الشيوعية؟ هل يمكن لنا ان نتصور وضعاً يتوصل فيه بلد من بلدان الاشتراكية الى الشيوعية؟ ويطبق المبادئ، الشيوعية في الانتاج والتوزيع، بينما سائر البلدان لا تزال متأخرة جداً، عند الاطوار الاولى من بناء المجتمع الاشتراكي ان هذا الوضع قليل الاحتمال (3).

والواقع ان الانتقال الى الشيوعية قليل الاحتمال بل غير ممكن بكل صرامة فان لينين حرف الشيوعية تحريفاً جذرياً، وكون نظاماً جديداً قابلاً للتطبيق، وان اعتبره المرحلة الانتقالية كما صرح بذلك ستالين: (اما الحقيقة كلها عن اللينينية، فهي انها لم تقتصر على بعث الماركسية، بل خطت فوق ذلك خطوة اخرى الى

ص: 137

1- (1) خروشوف (في الارقام التوجيهية) ص 74 ط موسكو.

2- (2) نفس المصدر: 97.

3- (3) نفس المصدر: 162.

امام، بتطويرها الماركسية فى الظروف الجديدة للرأسمالية، ولنضال البروليتاريا الطبقي(1).

كل ذلك ينتج ان الشيوعية لم تطبق، وانما ظلت حتى الان حلماً شروداً، رغم المحاولات السخية، التى اهدرها الحزب الشيوعى، الذى اخضع لارادته جميع المواهب والطاقات، وهذا اكبر دليل على فشل هذا النظام، وعدم صلاحيته لتوجيه المجتمع وتنظيمه.

يتسألون:

وعلى اعقاب ذلك يسئلون: ولكن هل يعتبر عدم تطبيق النظام الشيوعى عيباً فى النظام نفسه؟ ام يعتبر عيباً فى اولئك الذين لم يطبقوه؟

والجواب: ان عدم تطبيق نظام من الانظمة حينما يكون بسبب جبن انصاره، او عدم اخلاصهم لمبدئهم، فان ذلك العيب يكون راجعاً الى القادة، ومن الظلم ان يحمل على النظام جريرة اقترفها اصحابه المسؤولون!!

اما لو كان عدم تطبيق ذلك النظام ناشئاً عن استعصائه، وعدم تطويعه للواقع، ومصادمته للفطرة، ومناقضته لنواميس الاشياء. فلا شك ان ذلك يكون نقصاً فى النظام.

والواقع انا لا نستطيع ان نتهم قادة الشيوعية، من لدن ماركس الى خروشوف، بعدم الاخلاص لمبدئهم، او العمل على عرقلة النظام الشيوعى

ص:138

1- (1) ستالين (أسس اللينينية) ص 2.

والحيلولة دون تطبيقه.. وبالرغم من محاولاتهم الصادقة بقيت الشيوعية بمعزل عن واقع الحياة. لاستعصائها على التطبيق، ومناوئتها لفطرة الاشياء وهي التي اورثت جهادهم هنا الفشل الذريع.

اخطاء الشيوعية:

ليست بي حاجة الى تعداد اخطاء الشيوعية، فان الشيوعية كلها مجموعة اخطاء واغلاط... ولا نجد بنداً من بنودها بريئاً من الطيش والتناقض. فان مبادئ الشيوعية، لا تعدو الافكار التالية:

1 - فطرة الانسان مجردة عن الميول، والغرائز، والاستثثار..!

2 - اختلفت عن البشرية المراحل الخمسة التاريخية: الشيوعية الاولى، الرق، الاقطاع، الرأسمالية، الشيوعية الثانية!..

3 - ولا بد من: استيلاء البروليتاريا على الحكم.

4 - القضاء على رأس المال، والربح الناتج منه!

5 - القضاء على الملكية الفردية.

6 - القضاء على العائلة.

7 - تأمين وسائل الانتاج.

8 - القضاء على الطبقات.

9 - الغاء الدين، والاخلاق، وتحطيم سائر القوانين السائدة.

10 - جعل العمل اجباريا للجميع.

ص:139

11 - توزيع البضائع حسب الحاجات، ورفع الاسواق والنقود.

12 - القضاء على الدولة.

تجريد الانسان من الميول:

فاما اعتبار الانسان مجرداً من الميول المتأصلة في طبيعته، فهو خطأ تقتضه الفلسفة الديالكتيكية ذاتها!!.

فان (دارون) و (فرويد) اللذان نشرا بذور الديالكتيك، يقرران في الحيوان كما في الانسان الغرائز الجامحة، والميول الشرهة، ويفسران جميع مظاهر الانسانيات والديانات بهما، ويعرفانهما مبعث الظواهر البشرية كلها... وهذا التفسير الجنسي للسلوك البشرى، ليس تفسيراً للسلوك الفردى وحده، وانما هو كذلك. محور الحياة الاجتماعية. منذ بدأ التاريخ البشرى حتى اليوم..

كان دارون قد قال: (في عالم البقر تنطلق الثيران الفتية الشابة تريد ان تزو على امها. فتمنعها سيطرة الاب. المسيطر على القطيع. فتشب معركة حامية. بين الثيران الفتية. والاب الشيخ. يتكتل فيها الابناء ضد ابيهم حتى يقتلوه. ثم يقتتلون فيما بينهم. كل منهم يريد ان يستخلص الام لنفسه فيموت الضعاف في المعركة. او ينزلوا. ويبقى ثور واحد يستولى على الام ويصبح هو قائد القطيع).

وجاء فرويد ينقل عن دارون هذه الاسطورة القذرة. غير انه نقلها (ايضاً) من عالم الحيوان الى عالم الانسان. فقال: (حدث في البشرية الاولى. يحدث في عالم البقر احس الابناء برغبة جنسية نحو امهم التي ولدتهم ولكن سطوة الاب كانت تمنعهم من هذه الشهوة الاثمة. فتأمر الاولاد على قتل ابيهم. ليتخلصوا

ص:140

من سطوته. ويستأثروا بأمرهم. واستيقظت الارض ذات صباح على صيحات مجنونة وصرخة مروعة: لقد نفذ الاولاد ما تأمروا عليه).

ويذهب فرويد الى حيث يدعى: الجنس هو كل شىء. وكل شىء نابع من الجنس.. فيقول: (الطفل يرضع ثدى امه بلذة جنسية ويتبول ويتبرز بلذة جنسية. ويحرك عضلاته بلذة جنسية... ويرتبط بامه بشعور جنسى. (كما ترتبط الطفلة الانثى بابيها بشعور جنسى).

لسنا بصدد مناقشة هذا الهراء الفارغ مناقشة موضوعية ولكننا نستخلص من ذلك كله: ان المادية الديالكتيكية تؤكد: ان الفطرة البشرية الاصلية مختمرة باللوان من الميول العاطفية والغرائز الجنسية. والاستبداد والاستتثار.. اذن فكيف يمكن استخلاص الانسان من نزواتها الطائشة دون ايما كبت داخلى. او خارجى؟؟

فاذن! انهارت الدعامة الاولى، من دعائم الشيوعية، القائلة: بان الانسان بطبيعته الاولى مجرد عن الميول والغرائز، والبيئة هي التى تفرضها عليه، ويمكن تجريد الانسان منها بتبديل البرامج الاجتماعية، وتعقيم البيئة منها!!!

مراحل التاريخ:

تتركز الفكرة الشيوعية - فى المرحلة الثانية - على مبدأ دارون القائل: بالتطور الطبيعى الحتمى للبشرية فى كل شىء... فهى كما تنتقل من الصيد الى الرعى، الزراعة، الى الصناعة... وتتطور من الخرافة، الى التدين، الى العلم... كذلك تنتقل من الشيوعية، الى الرق، الى الاقطاع، الى الرأسمالية. الى الشيوعية...

وهذه الفكرة مغلوطة، بالغة فى الغلط..

ص:141

فاولاً: من ذا يقول: ان البشرية مرت بهذه المراحل؟ وای تاریخ يسجل: ان الانسانية الاولى كانت شيوعية؟ وحقاً، ان من السخف ان يدعى المرء مثل هذا الادعاء الطائش، الذى لا يعتمد على اى مدرک او دليل...

ثانياً، ان المصادر التى تروى لنا اخبار البشرية الاولى، لا تعدو الكتب السماوية، واحاديث الانبياء والائمة. وهى جميعاً تؤكد: ان البشرية الاولى لم تكن شيوعية، وان اول بشر وجد على سطح الارض وابو الانسان. (آدم - ع) كان نبيا وذريته كانوا مؤمنين وكافرين، كما هم الان مؤمنون وكافرون...

فاذن! اين وجدت الشيوعية الاولى؟ اكثر الظن ان الشيوعية الاولى تكونت، وعاشت، وماتت، فى خيال دارون وزبانيته واذنابه!! كما ان الشيوعية الثانية لم توجد الا فى اوهام ماركس، وانجلز، ولينين وعملائه.

ثالثاً، ان القول بالمراحل المتعاقبة للبشرية: الرق، ثم الاقطاع، ثم الرأسمالية، خطأ مفضوح، فان التواريخ تحدثنا: انها لم تكن مراحل متتالية، بل كانت ظواهر متقارنة لفساد الاجتماع، فكان يعدم الرق، والاقطاع، والرأسمالية، فى المناطق الخاضعة للاديان الصحيحة، كما كانت توجد ثلاثتها بمجرد انطلاقها من حدود الاديان...

وحتى قبل نصف قرن كانت الرأسمالية تعيش الى جانب الرق، والاقطاع، واليوم نجد الرأسمالية والاقطاع معا الى جانب اسلوب متطور من الرق، يلائم القرن العشرين، هو استعباد المستعمرين لمستعمراتهم!

فتلخص من ذلك كله: ان تفسير التاريخ بهذه المراحل الخمس اكدوبة مرتجلة تائهة!

حكومة البروليتاريا:

اول ما تنجزه الشيوعية استيلاء البروليتاريا: (الطبقة العاملة على الحكم، وهو الركيزة الثالثة فى الفكرة الشيوعية... وهو خطأ ل -:

1 - ان توجيه الاجتماع، وادارة السياسة الداخلية والخارجية، وتنظيم الاقتصاد والثقافة، والشرطة، والجيش،... يتطلب مزيداً من الوعى والمواهب. والتجارب والعمال ابعده طبقة عن الكفاءات والامكانيات، والطاقت الفكرية الخلاقة الكافلة لتولى دفة الحكم بيقظة وحكمة أناة... فهل من الصحيح تفويض مصير الملايين الى طبقة لم تؤت نصيباً من الوعى الاجتماعى. والتنظيم السياسى. بعذر: انهم كانوا مضطهدين او انهم يكدحون اكثر من اية طبقة اخرى!؟!

ب - صحيح ان العمال يقومون بدور هام فى الانتاج. وفى خدمة الاجتماع. ويبدلون من الجهد ما يستحق التقدير. ولكن مجرد قيامهم بالعمل لا يعنى ان الطبقة المختارة المفضلة على سواها. فالاجتماع يحتاج الى جهد تعاونى مشترك منظم، يقوم به العمال. والمهندسون والمفكرون. والمبتكرون. والجيش والشرطة، والمدراء، والمعلمون، والطلاب والكتاب... على حد سواء، كشركاء فى تنظيم الاجتماع، وضمان توفير الرخان، والحيلولة دون طغيان انسان على انسان. فالعمال يساهمون بالجهد البدنى كما غيره يساهم فى الجهد الفكرى. او البدنى ايضاً.

ص:143

وبعد ذلك فلا يوجد مبرر لتفضيل العامل، على من يؤدي مسؤوليته الاجتماعية، بحجة ان العامل نواة الاجتماع فالمدير - كذلك - نواة الاجتماع لولاه لشاع الفوضى. وسحق العامل وانتاجه معاً كما لا يوجد ما يدعو الى القول بان العامل يعيش بحق لانه يأكل انتاج نفسه. والآخرين متطفلون على العامل لانهم يأكلون انتاجه، ففي وسعنا القول بان الجندي يحيا بحق لانه يحمى نفسه، والعامل متطفل على الجندي لانه يتفياً ظلاله، ولولاه لما استساغ الحياة... وكذلك سائر الافراد الذين يقومون بخدمة اجتماعية!! فكل فرد يبذل جهدا له ان يتقاضى ثمنه سواء تمثل هذا الجهد فى الطاقة البدنية او الذهنية او فى الطاقة الميكانيكية التى توفرها الالات نيابة عن اصحابها.

ج - ثم لو اعترفنا لصدق نظرية لزوم دكتاتورية البروليتاريا هل ان جميع العمال يتصدرون المناصب، ام بعضهم دون بعض؟؟ لا يمكن رفع جميع العمال الى الحكم. لان الدوائر تضيق بهم. فلا بد من تفضيل بعضهم على بعض. وذلك لا مبرر له!

ثم لو رفعوا العمال الى الحكم فمن ذا يقوم باداء مسؤوليتهم فى الانتاج؟ ومن هم المعينون بكلام ماركس: (اذ ان الصناعة الكبرى تهدم كل صلة عائلية عند البروليتاريا وتحول الاولاد الى مواد تجارية بسيطة وادوات عمل صرفة(1)؟ الا يشمل ذلك اولاد العمال؟ اذن فالعمال يحولون الى مواد تجارية بسيطة. وادوات عمل صرفة. ولا يرفعون الى المناصب. اما دفعة الحكم. فيوليها غيرهم.

ص:144

1- (1) البيان الشيوعى: 48.

فالننتيجة الملخصة: ان (حكومة البروليتاريا) سراب يحسبه الظمئان ماءً حتى اذا جائه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه.

الدكتاتورية:

وتتعارض نظرية (دكتاتورية البروليتاريا) مع الحريات العامة التي ينبغي ان تتوافر للمحكومين. فالدكتاتورية فكرة لئيمة. مهما اختلفت اشكالها والوانها. ولا يشفع لها ان تكون دكتاتورية البروليتاريا. لانها تكشف عن عدم تطويع الشعب لتلك الحكومة. سواء اكانت تلك حكومة العمال. او البيوقراطيين او الاستقراطيين او الارستقراطيين او الرأسماليين والحكومة الشعبية ابدا ليست بحاجة - في تنفيذ برامجها - الى التوسل بالدكتاتورية، والقسوة، والاضطهاد، وانما تتوسل بها الحكومات الاجنبية عن روح الشعب، التي تفرض عليه سلطات غريبة عن حاجاته واهدافه) فالتجاء الحكومة الشيوعية الى الدكتاتورية تنم عن انها ليست حكومة من الشعب وللشعب، وانما هي حكومة ضد الشعب ورغم الشعب...

فلا بد اذن من الغاء الدكتاتورية، واستبدالها بالحرية!!

رأس المال وربحه:

يحسب الشيوعيين: ان رأس المال والربح الناتج منه، يلازمان - ابدا - الاستغلال، والاحتكار، والربا.. وبالتالي تكوين الطبقات المتعاكسة... ولا- يفقهون ان تلك نتائج رأس المال المطلق اما رأس المال والربح الناتج منه المحددان، فلا ينتجان شيئاً من تلك السيئات...

ص:145

بمقتضى هاته الفكرة الضيقة يحكم الشيوعيون بوجود القضاء على رأس المال والربح الناتج منه. فى حين ان رأس المال والربح الناتج منه، من العوامل الاساسية فى توفير الانتاج، وتحسينه وتوزيعه! اما ضرورة وجود رأس المال فل:

ا- ان دفع اجور العمال، والمستخدمين، والمبتكرين، والمدراء امر واجب الاداء فى الوقت المعلوم، ولا يحتمل التسويف والانتظار الى ان يتم اخراج السلعة وتسويقها، وذلك لا يكون الا مع وجود رأس المال. ولا يمكن ان يأخذ العمال والمستخدمون كميات متكافئة من نفس السلعة التى ينتجونها، لان حاجاتهم لا تختصر فى سلعة معينة وانما تحددو بهم الى الوان شتى من السلع والخدمات... لذلك لا بد لهم من الاجور والمكافئات النقدية، ولا بد للاجور والمكافئات النقدية من رأس المال!!

ب- ان رأس المال هو الذى تهيأ به المعامل والمصانع، وتشتري به آلات التى لا- بد منها فى توفير الانتاج وتحسينه وتخفيف قسوة العمل... كما انه لا بد من رأس المال فى شراء الخامات واستخراجها من المناجم!

ج- وبدون رأس المال، لا يمكن ضمان استمرار الانتاج - سيما فى الازمات الاقتصادية - فصاحب رأس المال يغامر بثرواته، لانه يدفعها وهو يعلم انها لا ترجع اليه الا بعد انتاج السلعة وبيعها، وهذه مغامرة بالنسبة الى من لا يعرف مدى ما سيصيب سلعته من رواج او بوار.. كما ان صاحب رأس المال ربما يضطر الى التضحية بشطر من امواله فى سبيل تحسين الانتاج اذا انتج الرأسمالى الاخر سلعة اروع وابعها بأبخس ثمن - تبعاً لعوامل قد

تحدث فى الاقتصاد - فىضطر كل من التجار الى تحسين سلعته وبيعها بثمان زهيد، تحت ضغط التنافس الحر... وذلك لا يكون الا بوجود رأس المال.. نعم لا بد من تحديد رأس المال، كى لا يطغى ويفسد اكثر مما ينتج ويصلح!!

واما ضرورة وجود الربح الناتج من رأس المال فلولاها لم يقدم احد على الاشتراك فى حلبة التجارة، والمغامرة بامواله فى سبيل اللاشىء، لان التجارة لا تربح ابدأ، فالتاجر قد يجهد ولا يربح، وربما يخسر اصل المال فلو لم تكن هناك رغبة ملحة فى الربح، تجافا كل فرد بامواله عن الاسواق ووقفت التجارة، وشاع الكساد، وتقشى العطل..

غلطة ماركس:

ولكن ماركس حيث لا يؤمن بملكية الربح الفائض عن رأس المال يتسائل:

(كيف يقدر مال ما ان يربح، ويصبح اكثر من نفسه؟ اننا لا نجد فى المنتج الا ما يساوى المال المدفوع للعامل، وقيمة العمل - اى القيمة الذاتية للمنتج - وتأكل الآلات.. فمن اين اتى الربح؟ اكانت هناك قوة سحرية تجعل راس المال اكثر من هذه القيم؟) ثم يفسر هذه الظاهرة بان الرأسمالى انما يكسب الفرق بين الاجر الذى يعطيه للعامل، والقيمة الحقيقية للمنتج اى ان الربح يأتى على حساب نفع العامل ومن وراء الاضرار بحقه، واذن فالربح لصوصية ظالمة، ينبغى القضاء عليها.

ص:147

ان ماركس يعدد سعر الخامة، واجر العامل، ونفقات العمل فيرى ان الواجب ان تباع البضاعة بنفس الثمن - مثلاً - اذا كان ثمن الخامة 2 قرشاً، واجر العامل 1 قرشاً، والنفقات الاخرى 1 قرشاً، فالمجموع - 4 قروش.. فلو باعها صاحب رأس المال ب - 5 قروش، يرى ماركس. ان هذا القرش الخامس زائداً! فيتفلسف له، من اين اتى؟ ينتهى الى ان اجر العامل لم يكن قرشاً واحداً، وانما كان قرشين، وحيث دفع صاحب رأس المال للعامل قرشاً واحداً، فهو اذن سرق منه القرش الاخر، الذى استأثر به.. مع ان هذا خطأ مفضوح!

لان صاحب رأس المال يعمل ايضاً، غير ان عمله ليس عملاً يدوياً ولست ادري كيف ان المهندس يستحق الاجور؟

والمدير يستحق المكافئة؟ اما صاحب رأس المال - الذى هو بمنزلة المدير العام فى بعض الاحيان، وبمنزلة المهندس والمدير فى بعض الاحيان - لا يستحق شيئاً، حتى اذا وفر لنفسه قسماً من سعر البضاعة يعتبر لصاً!!.

والواقع ان صاحب رأس المال لا يقل عن المدير، فلا يعتبر لصاً لو استوفى نصيبه. كما ان المدير والمهندس، والعامل كذلك، فكما ان البضاعة لا تخرج من دون عمل العامل، كذلك لا يمكن الانتاج من دون تنظيم وتوجيه صاحب رأس المال...

وفى نفس الوقت نعترف بلزوم ان لا يغالى صاحب رأس المال فى تحديد الاسعار، كى لا ينال اكثر من نصيبه الشرعى.

اما كيف يسمح لإصحاب الشركات العالمية، ان يستوفوا الارباح السخية، لعدة كلمات يلفظونها كل يوم فى لاقطة التلفون؟ فمثلهم مثل الوزراء، الذين يحتكرون المناصب الخطيرة، وراتبهم - على اى حال - اكثر من راتب موظف بسيط، مع ان عملهم اليومى اقل بكثير من عمل ذلك الموظف... وهذا حق، لان نوع العمل يختلف، وتبعاً لذلك تختلف كمية الاجور، لان للعمل الخطير مسؤولية خطيرة والقيام بالمسؤولية الخطيرة ربما يستتبع خسارة جسيمة، فلا بد ان يكون فى الطرف المقابل منفعة راجحة حتى ينهض فرد من الطامحين بعينها...

فاذن لا بد من تقرير مشروعية رأس المال، والربح الناتج منه...

والشيوعية لا تقضى على رأس المال قضاءً تاماً، وانما تحولها من ايد الى ايدى، وسنبحث عن ذلك تحت عنوان (التأميم)(1).

الملكية الفردية:

ان حرية الفرد فى اختيار العمل الذى يروقه، وتؤهله له ملكاته ومواهبه... وحرية فى ان يرصد لنفسه ريع انتاجه ومكاسبه... لان الحرية - لا القيود والاستعباد - هى التى تقسح المجال للتنافس الحر والسعى نحو الكمال، وانطلاق طاقة الابتكار، فحين توفر الحرية للافراد، بطريقة عادلة عمادها (تكافؤ الفرص).

ص:149

1- (1) لقد اسهبننا فى الرد على هذه المادة من النظام الشيوعى لاني لم اجد من انجلز الواقع حقه!

يشعر الافراد بما لديهم من كرامة، كما يجعلهم يكتفون حياتهم كما يريدون، فيتقدمون الى الامام، يوسعون البحث عن وسائل جديدة لتنفيذ وتحقيق ما يريدون. والنظام الذى يكفل الحرية الفردية، اقدر على استفاد موارد البشر والطبيعة.. فالرغبة الجامحة المنبعثة من المنافع الشخصية، هى التى تثير فى الانسان طاقة الابداع والاختراع وتتيح للافراد حق زيادة الدخل بالوسائل المشروعة، وتؤدى الى انتشار الرخاء...

على حين ان مصادرة الحريات، تجعل من الافراد آلات آدمية وتنشر نوعا من السخرة الاقتصادية، فحيث تحدد الدولة مقررات الافراد والسيطرة على الانتاج، تعدم التنافس، وتقتل الابتكار، وتجز النشاط والتحفز فى الانسان، فيضعف تدفق الانتاج، وبراعته وتحد سير التقدم الاقتصادى فى المباريات الاقتصادية العامة..

فاذن لا بد من الملكية الفردية. والا لنقلص الاقتصاد الوطنى، والدخل الاهلى.

القضاء على العائلة:

من اسخف ما فى النظام الشيوعى، فانهم يحاولون القضاء على العائلة لاطلاق الشهوة الجنسية، والارتواء الجنسى الفاجر، وذلك هدف جد تافه، بالقياس الى ما يستتبعه من خسائر فادحة على الاقتصاد والاجتماع نذكر منها ما يلى:

ص:150

1 - ان رئيسى العائلة الرجل والمرأة، يقومان بجميع الاعمال البيتية، وهذه الاعمال كثيرة باهضة جدا، ولكن الرغبة العاطفية نحو العائلة تحفز الرجل والمرأة الى انجاز هذه الاعمال، وتنسيهما الاتعاب والمصاعب، حتى لو لم تكن هناك عائلة، لم يتم احد بشرط من تلك الواجبات، فرجل العائلة يؤدي - على الاقل - ضعف ما يؤديه رجل الفرد... فلو الغيت العوائل فاضت الاعمال عن معدل العمال.. لان رب الاسرة ينهض باعبائها خارج 8 ساعات العمل المرسوم، فاذا تحطمت العائلة، اصبحت التكاليف المنزلية داخل برنامج 8 ساعات العمل...

2 - ان حضانة الاطفال، وتربيتهم، وتنشئتهم، مما يقوم به رجل وامرأة، ويظمنان اشباع جميع حاجاتهم الاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية، اما لوبعثت العائلة، كان على الدولة ان تخصص كميات كبيرة من الاموال، والموظفين والعمال والمستخدمين والنساء... للقيام بتلك الحاجات، التي تصبح اجتماعية، بعدما كانت فردية...

ان الاحصاءات المتكررة فى اكثر البلاد الراقية، اعلنت: ان غالبية اطفال الملاجىء ينشأون قليلى الذكاء والمواهب، تبعا للروتين السائد على الاعمال العامة، فتموت العبقرية فى نفوسهم الرشيقه، وتتحجر عواطفهم البضه، بينما نجد اطفال البيوت ينشأون متوفرى الملكات والامكانات لانهم ينالون من حضانة الام ومرونتها وحنانها الكمية المعينه من العناية المنسجمة مع نداءات فطرتهم، التى تعلنها جرس البكاء، ويحددها الاعراض ومهما كان نظام الملاجىء، فانه لا يبلغ حنان الام.

فلا بد ان من الابقاء على العائلة، حرصا على نواميس الاجتماع..

التأميم:

ما عسى ان تفعله الشيوعية، باحتكارها مصادر الانتاج، وتأميم الملكيات؟ اتريد القضاء على البرجوازية والرأسمالية؟ ام تريد سلب ثروات الشعب؟..

والواقع ان النظام الشيوعي، لم يحاول القضاء على البرجوازية والرأسمالية، وان هتف المغفلون بذلك!! فقبل الشيوعية كانت ثروات البلاد تحت ايدى افراد الشعب، غير ان التوزيع كان جائرا، لذلك انقسم المجتمع الى ثلاثة طبقات متباعدة، الرأسمالية، البرجوازية، الطبقة العاملة والفقراء... وجاءت الشيوعية فسلبت مجموع الثروات من افراد الشعب وحولتها الى قاصات الدولة، فاصبح الشعب كله فقراء، واصبحت الدولة رأسمالية جبارة.

فاذن الشيوعية لم تقض على رأس المال، وانما وجدته فى ايدى الشعب فانترعته بالشدة والعنف. واستأثرت به فكانت النتيجة أن ظهر رأس المال فى اقصى مظاهره، عبر التاريخ والقرون، لان الزمان لم يشهد رجلا واحدا يقبض على مجموعة ثروات عشرات الملايين من البشر حتى ان (فرعون) و (قارون) و (نيرون) و (هولاكو) و (جنكيز) وسائر المردة والطواغيت لم يبلغوا ما يبلغه رئيس الحكومة الشيوعية..

فاذن لا يصح مصادرة رأس المال، وتأميمه، لانه يبقى رأس المال وانما يتحول من ايد الى ايد، ويصبح اقصى مما كان عليه فى اى نظام اخر..

ص:152

الطبقات:

ان النظرية الشيوعية تقسم المجتمع ابداء، الى طبقة عاملة كادحة هي البروليتاريا، وطبقة مستغلة مستثمرة متطفلة على المجتمع هي: البورجوازيون والرأسماليون، ويختلفون - على صعيد الورق - الصراع الدائب العاصف بين هاتين الطبقتين... وهذا النوع من التقسيم لطوائف المجتمع ينطوى على مغالطة مقصودة، فمجرد وجود جماعة من المفكرين، وجماعة من العمال، وجماعة من الموظفين، وجماعة من الضباط العسكريين، وجماعة من اصحاب رؤوس الاموال فى اى مجتمع من المجتمعات.. لا يعنى بالضرورة: ان هذا المجتمع موزع الى طبقات متباينة متصارعة...

كما ان قيام العمال بالعمل، وبذل الجهد البدنى، لا يجعل منهم طبقة قائمة بذاتها، مستغنية عن سائر الطبقات... ومجرد استخدام اصحاب رؤس الاموال لاموالهم فى الانتاج، لا يلازم الاستغلال والتطفل.. فالعامل يملك طاقة بدنية، والمهندس يملك طاقة فكرية، وصاحب رأس المال يملك طاقة مالية، فاذا ما تعاونوا على الانتاج يجب ان يوزع الفائض بينهم، ولكن يجب - ايضا - ان يكون التوزيع عادلا، لينال كل مكافأته الكاملة، كى لا تبعد الشقة بين الطبقات، ولا ينشب الصراع بينها ويلغى تألب الطبقات ضد بعضها البعض فاذا نال كل منجزات جهوده، او ارباح طاقاته ومواهبه، فإى شىء يدعو لتحطيم الطبقات، وتسويتها فى طبقة موحدة، هى طبقة الكادحين؟؟؟ وانى ينشب الصراع والتناقض؟.

ان الاعمال التى تبني كيان الاجتماع، قد تكون فكرية، واخرى تكون جسدية، ويتقسم كل منهما الى العمل البسيط، والعمل القاسى، المستعصى... وتبعاً لاختلاف هاته الاعمال سهولة وصعوبة، تختلف اجورها والا لما تطوع اى فرد للقيام بالاعمال القاسية، وآثروا النهوض بالاعمال الهينة البسيطة... وباختلاف الاجور تلك، تتكون الطبقات...

تلك هى الفلسفة الطبيعية لتكون الطبقات!!، فماذا تريد ان تفعله الشيوعية؟

هل تحاول ان تجعل الاعمال المتباينة - كلها - فى مستوى واحد - تكويننا - من حيث الارهاق الفكرى والجسدى؟ وهذا محال! لان الاعمال مختلفة، شئت الشيوعية ام لم تشأ.

ام هل تريد ان تعتبر الاعمال المختلفة فى مستوى واحد، وتسبغ عليها كميات متساوية من الاجور والتقدير؟ وهذا جحود للفضيلة، وانكار للجحيم.. فان تسوية رئيس الحكومة، بكانوس البلدية، من حيث التقدير والاجور، كفر بالحق وظلم، وجفاء... ومتى كان ذلك فسوف ينكل الجميع عن تحمل المسؤوليات الخطيرة، ويتوانوا الا عن البسيط الحقير منها..

او تبغى الشيوعية، ان ترفع الناس جميعاً الى ارفع مستوى من الثقافة الواعية، ثم يدعهم ليزاولوا الزراعة والصناعة وينتظموا بانفسهم تنظيمًا مثاليًا؟ ان كان ذلك فستحدث عن مثالية هذه الفكرة تحت عنوان (إلغاء الدولة).

فلا- مناص اذن، من اقرار الطبقات، غير انه يجب تعديلها، والعمل لتكوين مجتمع متقارب الطبقات، القائمة على اساس المواهب والاعمال..

الاديان والاخلاق:

ليست الاديان والاخلاق سلعة رابحة فى القبر، ويوم القيامة، وبين الجنة والنار فقط! ولكنها قوانين هبطت من السماء لتنظيم الارض، وتنسجم مع طبيعة الانسان. انسجاما دقيقا عميقا... ولقد لمحها ماركس امامه سداً راسخا شامخا يكسر نبض التيار مهما كان قويا جارفا، فوجه اليها حملة ظالمة مسلحة ليزيحها عن الطريق، حتى يمكنه تطبيق نظامه الكافر...

ولقد نفذ لينين مخططاته القذرة، ومؤامرات ضد الحق والبشر، ولكنه ذاق الامرين، كرد فعل طبيعى لالغاء الاديان والاخلاق لان الاديان والاخلاق، هى التى تعصم البشرية، دون اقتراف الجرائم واحداث الفساد الشامل، والفوضى العارمة، واغتيال الحقوق والاموال والنفوس.. فاذا تعرى الانسان من الاديان والاخلاق، وعرف ان مدى نجاحه فى الحياة انما يقدر بمقياس المنافع الشخصية، فإى شىء يحجزه عن التوصل الى هدفه - مهما كان رخيصاً - حتى ولو تطلب سحق مئات الالوف من الابرياء؟

ان المحاكم والشهادات وجميع الدوائر والادارات.. انما تلتزم بوظائفها، لو عرفت نفسها تحت رقابة دقيقة من الدين والاخلاق، وسوف تنحرف عن مناهجها - لو لم تؤمن بالدين والاخلاق حتى ولو كان عليها الف رقيب ورقيب...

ان فى بلادنا التى لا تزال تتسم بطابع الدين نجد الحكام والشهود والرقباء، يحكمون بالباطل ازاء دراهم معدودة، مع ان فى بلادنا لا يزال اسم الحرية باقيا ويمكن الاستئناف، او توجيه الدعوى الى الحاكم والشاهد والرقيب، فكيف يكون الامر فى البلاد التى تسودها الدكتاتورية المطلقة، من قبل فئة معينة، تحكم بالشبهة، وتقتل بالتهمة، ولا هدف لها الا انجاز مصالحها واغراضها، ونحن لا نطلق تلك جزافا وانما نستلهمها من الانباء التى تخترق الستار الحديدى بين الفينة والفينة!!

وقد خصصت الحكومة السوفياتية - فى الوقت الحاضر - للعيون والبوليس السرى ودوائر الامن، الميزانية، اكثر بكثير مما ارصدته لتأمين الاقتصاد الوطنى، واشباع حاجات مجموع الشعب... ولقد كانت الحكومة الاسلامية تبعث رجلا واحدا - بصفة - (الوالى) لتنظيم لواء كامل، فكان وحده ينهض بذلك العبء الفادح، دون ان يحتاج الى معاون، او امن... ومتى قايسنا هذا بذاك عرفنا مدى الخسارة التى تحملتها الشيوعية بالغائها للاديان والاخلاق!!!

اما تحطيم القوانين السائدة، هو الثانى الذى يتوسل الشيوعيون له بشتى الوسائل والحيل، وهو حق لو كان هناك نظام خير منها، وارىد استبدالها به، لان جميع هذه القوانين السائدة، فاسدة غاشمة، ولا مرء فى ذلك ولكن الحق ان الشيوعى اطغى واقسى منها فلا يصح سحقها، لتطبيق النظام الشيوعى، فبعض الشر اهنون من بعض!

فاذن لا بد من الابقاء على الاديان والاخلاق، وتشجيعها وتنميتها كما لا يصح استبدال القوانين السائدة بالنظام الشيوعى...

القوة والعنف:

تعتمد الشيوعية، فى مكافحة الاديان والاخلاق، والبورجوازية والرأسمالية، وتحطيم السلطات والقوانين السائدة على الانقلاب الثورى عن طريق القوة والعنف، رغم ما تنطوى عليه هذه النظرية الهوجاء من مجافاة لما فطرت عليه الانسانية، من النزعة السلمية، والرغبة عن الظلم والاضطهاد، ومعاداة المبادئ التى تحرض على القتل ونشر الفوضى، والولوغ فى الدماء، والاستهتار بالارواح والكرامات، والمثل والمقادير..

ومن طبيعة النظم التى تفرض نفسها عن طريق القوة والعنف، والثورات الدامية، انها لا-تردد فى الالتجاء الى نفس الوسائل، فى اخضاع المواطنين لارادتها، واستغلالها الاقتصادى، والاجتماعى والسياسى، والواقع ان الشيوعية التى تشجع الانقلابات الدامية فى الحياة الفكرية، والاجتماعية والسياسية، ترتكب اقسى جريمة مروعة فى حق الشعوب التى تقع تحت سيطرتها، لان الثورات الدامية ابدا تصحبها جرائم نكراء، اھونها احداث الحروب الداخلية، ثم المجازر الرهيبة...

عن طريق تأليب الطبقات على بعضها البعض، وشل الاقتصاد والانتاج، والتضحية بالحریات العامة، واهدار الحقوق والكرامات... فى سبيل تمكين فئة معينة من القبض على زمام السلطة، ولا بد ان تثمر هذه الوسائل حكومة دكتاتورية فجة قاسية، لا تؤمن بالشعوب ومصالحها...

ص:157

وبالفعل حدثت هذه النتائج الوخيمة على اثر الانقلاب الشيوعى فى روسيا ببشاعة وقسوة خياليتين!!!

فلا- بد اذن من حذف الانقلاب الثورى، والقوة والعنف عن قائمة المبادئ، والا- انتجت الانقلاب الثورى والقوة والعنف فالبر يشمر البر، والشوك يولد الشوك...

اجبارية العمل:

لماذا يكون العمل اجباريا، ان كانت الشيوعية لانتقاد العمال من قسوة البورجوازية والرأسمالية؟؟ وكيف تكون مصادرة حريات العمال واجبارهم على العمل، لو كانت الشيوعية حكومة العمال?..

ان ماركس كان يصب احقاده على الرأسماليين والبورجوازيين لانهم كانوا يستعبدون العمال (!) فهل هناك استعباد اقسى من اجبارهم على العمل، وسلبهم كافة الحريات والضمانات القانونية؟ ان الرأسمالية - رغم علاقتها - كانت تقرر حرية العمل والعمال، وكانت تعترف بحرية العامل فى ان يعمل اولا يعمل، وباسم مكافحة هذا النظام تكونت الشيوعية فاذا بها تقرر اجبارية العمل.

عمل النساء والاطفال:

كما ان الشيوعية تسوى بين الرجال والنساء والاطفال فى اجبارية العمل، ولم تقلت من حوزتها الخشنة، لا النساء ولا الاطفال!! ولقد اسلفنا(1) تباكى

ص:158

1- (1) - لقد اعتمدنا فى انتقاد الرأسمالية على الاحصاءات وانتقادات ماركس فى كتابه رأس

ماركس وصرخاته المسعورة الكاذبة ضد الرأسمالية لأنها سلطت عصاها على النساء والاطفال أيضا ولم يكفها ما صنعت بالرجال (1) والآن نجد نفس ماركس يفعل ما فعلته الرأسمالية من استخدام النساء والاطفال، ويأبى إلا أن يضيف عليه، فيجعل العمل اجباريا للجميع، ليصدق انتصاره العميق للنساء والاطفال بصورة خاصة (!).

توزيع البضائع لا النقود:

تحاول الشيوعية أن يعمل كل فرد حسب أقصى طاقاته ومواهبه عملا اجباريا لا يمكنه التخلف منه لحظة، ولو واحدة، ثم يتقاضى كفاء هذا العمل المرهق، وهذا الاستعباد الأبدى... من البضائع بمقدار ما يشبع حاجاته الأساسية فقط!

ونحن عندما نلاحظ كتاب (رأس المال) لكارل ماركس، بأجزائه الثلاثة، نجده مكرساً في لعنة واحدة يصبها على الرأسمالية والرأسماليين لأنهم يسرقون من العمال فائض انتاجهم ونراه الآن يسوق العمال وانتاجهم جميعاً...

كان ماركس حاول أن يكرس في مبدئه الهدام مجموع القذارات والدنات والسخافات، ويضيف إليها أفكاره التي هي شر منها جميعاً، ثم لا يستحي أن ينادى بأعلى أصواته: الحرية... العدالة... السلام... العمال... الحقوق..

ص:159

1- (1) - انظر: ((رأس المال)) كارل ماركس ج 22 ص 221-294 + ج 3 ص 151.

النساء... الاطفال... ويتباكى على الحريات المضطهدة، والحقوق السلبية، والبشرية التي تتلوى تحت عصا رأس المال...

الدولة:

ان الدولة هي السلطة الموجهة لنشاطات الشعب، وحيث انها تملك جميع الطاقات الجبارة، تستطيع من فرض ارادتها على الشعب، بحيث لا يشذ عنها احد، فاذا كانت الدولة منبعثة من صميم الشعب، ولمصالح الشعب، وتبنت نظاما ينسجم مع العواطف، والغرائز، والاتجاهات الفطرية المركزة فى الانسان، لا تحتاج الى اعمال مزيد من النشاط، واستخدام القوة، والعسف والارهاق.. وانما يكفى ان تحد من نشاط المنحرفين بتوجيههم، او قمعهم اذا الحوا فى الشذوذ وهكذا يتقلص جهاز الدولة، الى ان تبلغ حد المراقبة على الشعب من بعيد، كما لا تحتاج عندئذ الى السلطات التنفيذية لان الشعب يعملون معها كجنود متى تفرسوا فيها الخير والصلاح... ولكن يجب ان تبقى لتكون كموجه ومؤدب للشعب، وكحامية عن العدو. شأنها شأن راعى القطيع الذى يحرسه من السباع، ويرد الشاذ، والشريد، او كفلاح الحقل يتعهده بالسقى والتهذيب، ويطارد عنه اللصوص... فلا بد من بقائها ولكن بصورة بسيطة، ومتعاونة مع الشعب... ولا يمكن الغائها ما دام هناك اناس يتشذرون عن الطريق عن عمد او لا عمد.

اما اذا كانت الحكومة اجنبية مفروضة على الشعب او تبنت نظاما جائرا تلفظه فطرة الانسان وركائزه الذاتية الاساسية، وتتحاماه الطبائع، وتنبو عن اطاعتها او مجاراتها، فلا بد حينئذ - لو ارادت البقاء - من استخدام صلاحيتها

ص:160

وامكانياتها، واستباحة القسوة فى البطش والتتكيل كى لا تقلت من يديها الزمام، ولا يتمرد عليها الشعب بضربة قاضية تطويها فى بطون التواريخ...

ومهما كانت الحكومة الشيوعية، فانها لا تستطيع من تغيير طبيعة الانسان، ولن تقدر على ان تخلق من الناس ملائكة، لا يتجاوزون حدودهم المرسومة لهم... زيادة على ان الحكومة الشيوعية اجنبية عن غرائز الشعب وحاجاته، فتكون من النوع الثانى، التى لا بد لها من تنفيذ اقصى صلاحياتها وقواها، لتبقى على كيانها رغم مجموع الشعب...

فاذن لا يمكن الغاء الدولة، كما كان يحلم به ماركس واذنابه!!

خاتمة:

لقد تلخص - من ذلك كله - ان الشيوعية ليست الا - مجموعة الاغلاط، فكل بند من بنودها خطأ مفضوح لا يمكن الغض عنه.. وانها مبادئ اسطورية، بعيدة عن طبيعة الانسان وواقع الحياة... ورغم المحاولات القاسية، والضحايا الكثار التى قدمها لينين... وحيث لم تكن هذه الفكرة منتزعة من صميم الحياة تذرعت بالدكتاتورية... وسلبت الحريات.. وفرضت الافراد أدوات ميكانيكية بسيطة مسخرة لانجاز واجباتها... ثم اصطدمت بالأديان... والاخلاق... والقوانين.. فألغتها... واحتكرت مصادر الانتاج والملكيات الخاصة.. وقضت على العائلة.. وحاولت تحطيم الطبقات... وتكفلت توزيع البضائع بنفسها ليكون مصير الناس وحاجاتهم طوع إرادتها.. وهتفت باسم العمال والفلاحين لتكسبهم قوة هائلة عمياء... وارتكبت شتى الجرائم والمهلكات عليها تفلح فى فرض نفسها على الشعب، ولكنها فشلت.. وفشلت... فهى إذن فاشلة!!

ص:161

التي تغرى وتعجب الكثيرين.. والواقع ان الشيوعية لا تغرى ولا تعجب لو عرفها الناس كما هي ولكن قادة الشيوعية بادروا الى ستر اخفاق الشيوعية، وجرائمها وسيئاتها، خلف ستار حديدي، بصورة فنية دقيقة، ثم انطلقوا في الارض: ان هلموا الى الفردوس الاعلى، ودار السلام، والحرية، والسعادة، والرخاء، والحضارة، والتقدم والعلم والجمال... مستغلين في ذلك حقد الطبقة الكادحة الفقيرة على الاوضاع والمستثمرين، وسرعان ما تفعل هذه الدعاية المغرية مفعولها السحري، فينصاع الفقراء السذج الى توجيهاتهم متجمهرين، بدافع التغرير، او التلويين من طعم المحنة - على اقل تقدير - حتى اذا نجحت الثورة الشيوعية انفلق الستار الحديدي، ليتسع لهم فينغلق عليهم... ومع انغلاق الستار الحديدي، يفتحون اعينهم على القوانين المرعبة الرهيبة... وسوف تشملهم حملة التطهير، اما من اعلن نغمته على الاوضاع، أو انهم بعد ولائه للحكومة، فسوف تطويه السجون، ومعسكرات السخرة، ومجاهل سيبيريا، حسب خطورته، ونقاوته. (1)

1- (1) لقد اصبح البحث اوسع من موضوع الكتاب، وذلك بغية ان نعطي نظرة موجزة كاملة عن المبدأ الشيوعي، ولكي لا نرتكب جريمة تجزئة الفكرة الواحدة.

الاقتصاد الاشتراكي

الاقتصاد:

الاقتصاد الاشتراكي:

ص: 163

تلك المآسى والويلات التي استعرضنا شطرا منها في الاقتصاد الرأسمالى، احدث برما، وانفجارا شاملا فى الوعى العام، وسادت فى الاوساط المضطهدة فكرة الانقلاب، وحيث كانت نعمتهم تنصب على النظام الاقتصادى الرأسمالى، عمدوا الى تشخيص الداء، وتعين الدواء(1) ليكونا نظاما ناضجا متبلورا حتى يسنح لهم تطبيقه غب اكتساح الرأسمالية، وخرج الجميع من بحوثهم الطويلة، بالاتفاق على تصديق اللائحة التالية: التى تتضمن الخطوط العريضة للمبدأ المسمى ب - (سوسياليزم) اى (الجماعية) بازاء (الفردية) التى تبنها النظام الرأسمالى.

أما النقاط الرئيسية فى اللائحة، فتتلخص فى:

(ان مصدر الاخطاء والشورور - فى عالم الاقتصاد - إنما هو (الملكية الفردية) ولا بد لتنظيم الاقتصاد العادل من اخذ التدابير التالية:

1 - إلغاء الملكية الخاصة الغاءاً كلياً او جزئياً.

2 - تنظيم الانتاج والتوزيع بواسطة المجموع.

3 - تحقيق نوع من المساواة الفعلية).

تلك هى الجذور المركزية للاقتصاد الاشتراكى، المتفق عليها لدى الجميع...

ص:165

1- (1) والواقع انهم عرفوا الداء، ولكنهم لم يعرفوا الدواء كما لم يعرفوا مبعث الداء، فظنوا: ان الملكية الفردية، هى مبعث الداء، عندما كان اطلاق الملكية مصدر الداء، لا اصل الملكية الفردية، وتبعاً لهذا الخطأ أخطئوا فى جميع التدابير التى اتخذوها لمكافحة هذا الداء.

وبعد الاتفاق على هذه الاسس تشعبت واختلفت المذاهب وتناقضت وتضاربت الآراء، وتحيزت إلى كل مذهب كتلة من الناس... غير أن هذه المذاهب لم تفتح طريقها إلى التطبيق غير:

1 - الاشتراكية العلمية: الماركسية اللينينية.

2 - الاشتراكية النازية.

3 - الاشتراكية الفاشية.

ونحن لا نناقش هذه المذاهب مناقشة موضوعية مجردة، لأن أصحابها لا يعيرون اهتماماً للمباحث الموضوعية النظرية كما لا نبحت عن سائر المذاهب الاشتراكية، التي أعلن الزمان والتاريخ عجزها وفشلها، لأنها صوت إن صح فقد يح، والمذاهب الطائشة في العالم كثيرة لا تجلب الانتباه.. ونبتدى ب -.

اشتراكية روسيا:

ويجدرى - قبل البدء - أن أنه إلى الحقيقة التاريخية، والعوامل التي دفعت بهذه الاشتراكية الى الوجود:

لم تكن اشتراكية روسيا قبل ثورة أكتوبر، مبدئاً أو فكرة قائمة بذاتها، وإن كان ماركس قد وضع النظرية الشيوعية كاملة، ولكن ماركس لم يضع تصميم هذه الاشتراكية، وإنما ارتجلها لينين بعد ثورة أكتوبر تدريجاً وفي غمرات الصراع مع البشرية... فقد كان يقود الجماهير باسم الشيوعية ولكنه بعدما نزوى على العرش، وحاول تطبيقها، استعصت عليه واصطدم بالواقع الحى، الذى لم يتطوع له... فكان يقاسى الامرين، بين ضغط الجماهير من الرفاق، التى كانت

ص:166

تطالبه بتطبيق الشيوعية، وبين الواقع الحى الذى ابى عليه تطبيق الشيوعية... لذلك كان يأخذ المادة من النظام الشيوعى، ويحاول تطبيقها، حتى إذا استعصت عليه حرفها كما تسجّم مع الواقع، وكلما سئل عن ذلك اعتذر: بأن الشيوعية لا تطبق فجئة، ولا تنزل من السماء، ونحن نطوى فترة الانتقال. وحيث كانت تأبى عليه غلوائه أن يعلن عجزه، وفشل الشيوعية، جعل يمنى الناس بقيام الشيوعية بعد حين.

فمجموعة الأنظمة التى طبقها لينين، كمرحلة بدائية لشق الطريق الى الشيوعية هي: (الاشتراكية الماركسية اللينينية) التى ظلت حتى اليوم -

سائدة فى روسيا ومستعمراتها بغية ان تودى إلى الشيوعية، كما يهتف بذلك خروشوف: (... والاحزاب الماركسية اللينينية تعتبر أن الهدف النهائى هو بناء المجتمع الشيوعى، ولكن المجتمع لا يمكن له أن يقفز من الرأسمالية إلى الشيوعية، دون أن يجتاز المرحلة الاشتراكية من تطوره، قال لينين:

(إن الانسانية لا تستطيع الانتقال مباشرة من الرأسمالية إلى الاشتراكية) (المؤلفات، المجلد 24 ص 62).... رغم كل الفرق بين المرحلة الشيوعية والمرحلة الاشتراكية، لا يوجد سد يفصل بين هاتين المرحلتين... وما من تقويم يعين موعد مجيء الشيوعية. ولن تأتى أبدا لحظة نستطيع فيها أن نغلق بابا ونعلن قائلين: (إن بناء الاشتراكية قد انتهى) ونفتح بابا آخر ونقول: (لقد وصلنا إلى الشيوعية).⁽¹⁾

ص:167

فأذن لم تنته بعد فترة الانتقال، ولا زالت اشتراكية لينين هي الطابع العام لروسيا ومستعمراتها كما ينص على ذلك الدستور السوفيتي المادة الاولى:

(إن اتحاد جمهوريات السوفيت الاشتراكية، دولة اشتراكية(1)).

وتتلخص الخطوط العريضة لهذا النظام فى المواد التالية:

1 - دكتاتورية الحزب الشيوعى

2 - مصادرة كافة الحريات

3 - تحديد الملكية الخاصة

4 - مساواة الرجل والمرئة فى الحقوق والواجبات

5 - تأمين موارد الثروة العامة والخاصة

6 - توزيع البضائع حسب مشروع الدولة

7 - إجبارية العمل

فأما

دكتاتورية الحزب:

كان ماركس، ولينين، والحزب الشيوعى يعدون العمال والفلاحين بانهم

ص:168

1- (1) الدستور. القانون الاساسى، لاتحاد جمهوريات السوفيت الاشتراكية، مع التعديلات والاضافات التى تقرر إدخالها أثناء دورات اجتماع السوفيت الاعلى: الاولى والثانية، والثالثة، والسادسة والسابعة والثامنة ص 3.

سيتولون قيادة روسيا فور تنازل قيصر عن الحكم وستحظى البروليتاريا بسيادة الامة وزعامتها، إذا عملت على زوال قيصر، وهذه الوعود الخلافة كانت تستخف العمال الذين كانت تلهب ظهورهم تحت سياط رأسمال المال والعمال - أبدا - أقوى مضطهدون، وصدر القوى المظلوم بركان لا يخبو إذا انفجر.

دور الطبقة الكادحة:

ولهذه الحقيقة استعارهم الحزب الشيوعي، من مزارعهم ومعاملهم، ليكونوا عمالا عنده، لا فى الانتاج الاقتصادى، بل فى الانتاج الثورى، ليكونوا له الجيش الباسل الامين، فى الانتفاض على الحكم القيصرى وإشعال نار الثورة عليه. أما جزائهم، فلا يعدو الوعود المغرية التى استلموها سلفا عن الحزب... كما افصح عن ذلك انجلز عام 1872: (علمنا كارل ماركس: أن الصراع الطبقي الذى يحقق لنا الشيوعية، يعتمد أول ما يعتمد على القوة... ولهذا وقفنا إلى جانب العمال، لأن العمال هم أقوى طبقة فى المجتمع⁽¹⁾).

وما إن نجحت الثورة، حتى تقدم الحزب الشيوعي، وأزاح العمال والفلاحين عن الطريق، امرأ إياهم أن ينصرفوا مشكورين، فقد نجحت الثورة، ولا مهمة غيرها، وقبض الحزب الشيوعي، والحزب الشيوعي وحده على زمام الحكم..

ص: 169

1- (1) (النظام الشيوعي) ص 23.

وحيث لم تكن الثورة - حتى ذلك الحين - ناضجة مضمونة النجاح كان الحزب يوجه بطشها وعنفها نحو أذئاب قيصر، ودعاة القيصرية، وحزب المنشفيك: - المناوء للحزب الشيوعي - والرأسماليين، والبورجوازيين والاقطاعيين وكان بحاجة ماسة الى استخدام العمال والفلاحين، فى القضاء على هؤلاء، وإنجاز مكاسبه الدامية... لذلك كله عندما طالب العمال والفلاحون قيادة البلاد من الحزب الشيوعي، استمهلهم، معتذرا بأننا فى اخرج ساعات الصراع مع اذئاب الحكم البائد والبورجوازية والرأسمالية، وهذه فترة حاسمة لا بد للنجاح فيها مزيداً من الوعى السياسى والتجارب الكافية سيما وأن المستعمرين - من وراء الحدود - لنا بالمرصاد، وأنهم ينتهزون الفرص للتريص بنا، والقضاء علينا قضاءً مبرماً، الان دعونا نكافح هؤلاء، ونثقفكم تثقيفاً دقيقاً، ثم نسلم الحكم اليكم، ونحن الان إنما نعمل نيابة عنكم، بصفتنا منظمة مثقفة منكم، ولا فضل لنا عليكم فانصرفوا الى أعمالكم مجتهدين، فقد عاد الحكم اليكم، واسترجعتم كافة الحريات بايديكم...

ازاحة الطبقة الكادحة:

بهذا المنطق المعسول والمواعيد المنمقة، خدع العمال والفلاحون، وراحوا إلى معاملهم وارضيتهم فرحين مستبشرين، وراح الحزب الى تركيز منظماته وقواته، والتغلغل فى جميع الاوساط، كما اطلق حملات التطهير من كل جانب، للقضاء على اعداء الشيوعية، باسم مكافحة الرأسمالية والبورجوازية، والقيصرية... حتى أمن الحزب مستقبله وساد الارهاب وخفقت الاصوات، وتغنى

ص:170

الرصااص؁ وأعلن الحزب دكتاتوريته الكاملة... كان اول رأس هشم تحتها هو رأس الطبقة الكادحة؁ إذ قام الحزب بتشكيل (الكولخوزات): المزارع التعاونية؁ وراح يجبر الفلاحين على الانضمام اليها عن طريق تهديدهم بمصادرة ممتلكاتهم؁ تحت لائحة من قوانين الجور والاستعباد.

مجازر وسجون:

هنالك ثارت حفيظة العمال والفلاحين؁ واندفعوا ثائرين لحقوقهم وكراماتهم؁ وثورتهم... فقد علموا ان كل الجهود والاتعاب الخيالية التي بذلوها في سبيل الشيوعية؁ عادت لعنة عليهم؁ فأخذوا يقاومونها مقاومة صادقة؁ واعترضهم الحزب بالحديد والنار... حتى قدر: أن من قتل من الطبقة الكادحة؁ في سبيل هذا المشروع بنحو 000 ر 19000 نسمة وحكم على نحو 000 ر 2000 نسمة بعقوبات فادحة مختلفة؁ كما نفى عن البلاد نح 000,4000 او 000,000 نسمة؁ حتى ان اخلص الرفاق؁ وأكبر دعاة الشيوعية؁ لم يكذ يصبر على ما اقترفه الشيوعيون داخل بلادهم؁ في سبيل تنفيذ مشروع الزراعة الاجتماعية وحدها؁ من قتل لملاكي الاراضى الادنين؁ والمتوسطين بمنتهى القسوة والعنف.(1)

والتجئ العمال والفلاحون... الى احراق الكثير من محاصيلهم؁ وتبديد مواشيهم واموالهم؁ كى لا تقع فريسة في ايدى الحزب... ونشأت عنها المجاعة

ص:171

الرهيبة عام 1929... وحوار الحزب دستوره ثلاث مرات عام 1924 و 1936 و 1944. غير ان يد التحريف لم تتل المواد المركزية التي اثار غضبة الشعب.

وراح لينين يزأر في وجوههم: (ان من يضعف ولو قليلا في نظام الطاعة الحديدى، في حزب البروليتاريا يساعد البورجوازية في الواقع ضد البروليتاريا(1)).

ومنع اللجوء الى الاضراب، كما اعطى الصلاحيات الكاملة للنقابات في معالجة الحوادث بأسرع ما يمكن، واذا استعصت عليها، او تفاقمت المشاكل، فعليها ان تراجع السلطات العليا، قائلا: (... وينبغي عليها (النقابات): ان لا تخفى عن العمال والجمهير الكادحة، ان اللجوء الى النضال الاضرابى، في دولة تتولى البروليتاريا السلطة السياسية فيها، امر تفسره وتبرره فقط، تشويهاً بيوقراطية للدولة البروليتارية. فواجب النقابات في حالة حدوث احتكاكات ومنازعات.. ان تساهم في حل هذه النزاعات بأسرع ما يمكن... واما ان ترجع الى المراجع العليا في الدولة(2)..).

وجعل يزعق في وجه الحزب، كى يأخذ موقفا حازما لا ستئصال دابر التمرد على النظام، دون ان تحدد جرائمه البربرية، الرقة والعاطفة الانسانية، مناديا عام 1920:

ص:172

-
- 1- (1) ستالين. (اسس اللينينية) ص 99 نقلا عن لينين في كتابه (مرض الطفولة) المجلدات الكاملة الجزء 25 ص 19.
 - 2- (2) لينين (حول دور النقابات ومهامها) ص 12-13.

(يجب ان تكون القوانين التى نطبقها فى بلادنا صارمة، ويجب ان تتميز بحمل المواطنين على اطاعتها، ويجب ان يبلغ احترام هذه القوانين أقصى الحدود، فنحن لا نتساهل مع اى فرد يتجاوز سلطة الدولة(1)).

وعقبه ستالين عام 1951:

(ان الشيوعى الذى يتسامح مع الخارجين على القانون الشيوعى، لا يقل عداوة لنا عن اعداء الشيوعية، ولهذا فاننا لا نرحم الرفاق الشيوعيين، الذين لا يطبقون القانون الشيوعى بقسوة وصرامة(2)).

هكذا سحقت الطبقة الكادحة، التى دارت على اكتافها الثورة وظل الحزب الشيوعى دكتاتورا جائرا، معلنا انه سوف لا يتنازل عن الحكم، وان فترة الانتقال لا تزال مستمرة، وانها لا تنقضى فى اليوم القريب وأطلق لينين كلماته الصارمة:

(ان الحزب هو الزعيم السياسى للطبقة العاملة... ان الحزب هو اركان الحرب لكفاح البروليتاريا(3)).

وجعل ستالين يربط الطبقة الكادحة بعجلات الحزب قائلا: (ان نقابات العمال هى اجهزة تابعة لأجهزة الحزب(4)) ، (ان نقابات العمال كلها يجب ان تكون

ص:173

1- (1) (النظام الشيوعى) ص 28.

2- (2) (النظام الشيوعى) ص 30.

3- (3) ستالين (اسس اللينينية) ص 90 نقلا عن لينين فى كتابه (مرض الطفولة فى الشيوعية) ص 173.

4- (4) (النظام الشيوعى) ص 48.

فى خدمة الحزب(1)، (ان الحزب يضع لانتاج كل عامل منسوباً معيناً يجب عليه ان يبلغه(2)).

مصادرة الحريات:

وبعد ما قرر النظام الاشتراكى كالنظام الشيوعى دكتاتورىة الحزب كان من الطبيعى تقرير مصادرة الحريات! ولقد كانت الدكتاتورىة، التى اعلنت اول يوم - باسم البروليتاريا - اقوى حجة على ان هذا النظام لا ينسجم مع طبائع الافراد، كما لا يمكن تنفيذه إلا بالقهر والارغام. وكيف ينال الشعب حرياته، والنظام الاشتراكى، هو وحده مصدر القوانين التشريعية، والجزائية، وهو يحدد كافة الاعمال والافراد، بحدود ضيقة جائرة، ولا يعترف للانسان بأية كرامة لو لم يقتنع بصدق أنظمتة وقوانينه، ومنطق دعائه: اننا يجب ان ننشر فكرتنا حتى ولو كان فى ذلك فناء مئات الملايين من الناس. ولقد صرح لينين عام 1920: (نحن نعرف: ان نظامنا الجديد لا يحظى بتأييد كثير من المتدمرين. ولكننا لن نحفل بهؤلاء المتدمرين... بل اننا لن نسمح لهم بالتدمر.. وكل متدمر ضدنا هو فى الواقع عدو لنا. ونحن لا نرحم أعدائنا، ولهذا لن نرحم المتدمرين(3)).

فاذا لم يكن هناك مجال للتدمر على النظام، فهل يبقى معنى لسائر الحريات الواسعة النطاق، التى يشرعها كل نظام؟. ولكن ستالين لا يكتفى بعدم التدمر

ص:174

1- (1) (النظام الشيوعى) ص 48.

2- (2) (النظام الشيوعى) ص 49.

3- (3) (النظام الشيوعى) ص 23.

على النظام، وإنما يريد أن يكون الجميع شيوعيين، أما من لم يؤمن بالشيوعية، فلا تشمل الرحمة، فقد هتف عام 1935: (نحن لا نرحم أحداً ممن لا يؤمنون بالشيوعية⁽¹⁾).

وحيث كان بعض الرفاق ينتقد هذه الدكتاتورية المقيتة - فقد خدعوا باسم الحرية، وأصبحوا من الرفاق لينالوا أوسع الحريات - فردهم لينين عام 1921 بهذه الكلمات النابية: (يقع كثير من الناس فى خطأ فاحش، هو الاعتقاد بان القوانين يجب أن تحمى الحريات، ونحن نرد على هؤلاء البلهاء، قائلين: إن القوانين لا توضع لحماية الحريات، وإنما توضع لحماية الدولة⁽²⁾).

فأذن جميع الحريات محظورة فى البلدان الاشتراكية، لأن القوانين لم توجد لتحمى حريات الشعب، وإنما وجدت لحماية مصالح الدولة، المتكونة من الفئة الخاصة.

تحديد الملكية:

ليس لأحد - فى النظام الاشتراكي - حق امتلاك أى شىء إلا الأجور التى يتقاضاها من الدولة، إزاء جهوده أو خدماته، وله الحق فى التقتير على نفسه، ليدخر الزائد عن استهلاكاته، فاذا تجمعت لديه ثروة كان له أن يشتري بها الأدوات المنزلية البسيطة، أو أن يبني داراً، ويقتنى عدة طيور ومواشى...

ص:175

1- (1) نفس المصدر ص 24.

2- (2) نفس المصدر ص 28.

(... توجد فى الاتحاد السوفياتى ملكية شخصية، للمداخيل المتأتية من عمل المواطن واستثماراته، وللبيت الذى يسكنه، واقتصاده المنزلى المساعد، ولسلع الاستعمال المنزلى، والاستعمال الدارج، ولسلع الاستهلاك(1)).

ثم يؤكد ذلك ويفصله: (.. فلكل مواطن سوفياتى الحق فى أن يتصرف كما يشاء بادخاراته التى هى ثمرة عمله. ويستطيع أن يستعملها لبناء مسكن او فيلا لنفسه. أو أن يشتري بها سيارة أو أى شىء اخر كما يريد كل شىء يتوقف على اجرتة، وإدخاراته المتأتية من عمله(2)).

فلانسان - فى روسيا - الحق فى ادخار قسم من اجوره، كما يوفر له الحق فى ان يشتري بها سيارة أو بينى داراً... ولكن... هل فى وسعه ان يدخر شيئاً من اجوره؟ او انها تقصر حتى عن حاجاته الاساسية؟؟ اننا سنعرض فى الصفحات القادمة ان عوائل العمال تقطن فى الشقات المستأجرة..

اما اذا استنفذ الفرد اجوره فى حاجاته اليومية الاساسية فلا بد له ان يستأجر - من الدولة - محل السكنى.

كما يوفر النظام الاشتراكى الحق للفرد فى ان يعمل لنفسه ساعات إضافية خارج الدوام، او ان يقوم بانتاج ما يجد فيه راغباً خارج ساعات العمل فيكون له ربحه، شريطة ان لا يستثمر فيه مجهود الاخرين.. ثم يكون لورثته ممتلكاته بعد موته..

ص:176

1- (1) (الاتحاد السوفيتى فى مائه سؤال وجواب) ص 24.

2- (2) نفس المصدر ص 42-43.

ذلك مجموع حقوق الفرد، فى الملكية الخاصة، وليس له ان يملك اى شىء وراء هذه.. نجد التصريح بهذه الحقوق مجموعة فى دستور الاتحاد السوفيتى:

(الى جانب النظام الاقتصادى الاشتراكى، الذى هو الشكل السائد فى اقتصاد الاتحاد السوفيتى. يسمح القانون بالمشاريع الاقتصادية الصغيرة، الخاصة بالفلاحين الفرديين، وبالحرفيين، على ان تقوم على عملهم الشخصى، وبشرط ان لا يستثمروا فيها مجهود الاخرين).

(ان حق الملكية الشخصية للمواطنين فى دخلهم وتوفيرهم الناجمين عن عملهم، وفى مساكنهم واقتصاديات بيتهم الاضافية، وفى الحاجيات والادوات المنزلية، وفى الاشياء ذات الاستعمال الشخصى، والراحة، وكذلك حقهم فى ارث الملكية الشخصية، حق مصون بموجب القانون(1)).

تلك هى الاشياء التى يستطيع الفرد ان يمتلكها، وهى تختصر فى اجوره وما يشتره بأجوره او يستثمره بنفسه...

وهناك اشياء تمنح للعامل كملكية، ولكن ليست بالملكية الحقيقية، التى يستطيع ان يفعل بها ما يشاء، وانما تخول له ليؤدى بها اعمالا خاصة مرسومة من قبل الدولة، ينص على ذلك دستور الاتحاد السوفياتى: (لكل عائلة من عوائل المزرعة التعاونية، بالإضافة الى دخلها الاساسى الذى يأتىها من اقتصاد المزرعة التعاونية المشتركة، قطعة من الارض خاصة بها، وملحقة بمحل السكن، ولها فى

ص:177

هذه الارض اقتصاد اضافى، ومنزل للسكنى، وماشية منتجة، وطيور وأدوات زراعية، كملكية خاصة، وذلك وفقا لنظام جمعية الانتاج التعاونى الزراعى(1).

وهذه الاشياء ليست ملكا للعائلة، وانما هى كملك لها، لأنها تبقى تحت يدها باستمرار، لتعمل فيها باستمرار، . فتتقاضى اقتصاديا اضافيا... وما عدا ذلك.

إن هناك نوعين من الملكية كما ينص على ذلك الدستور السوفياتى (للملكية الاشتراكية فى الاتحاد السوفياتى شكلا. فهى إما ان تكون على شكل ملكية للدولة (ثروة الشعب بأسره) او ان تكون على شكل ملكية تعاونية اشتراكية (ملكية حقول تعاونية - كولخوزات - وملكية جمعيات تعاونية). (2)

أملكية الدولة:

اي ملكية الدولة: القادة الزعماء فى الحزب الشيوعى.. وهذه ملكية واسعة النطاق، تشمل جميع الموارد العامة والخاصة، يصرح بها الدستور السوفياتى: (ان الارض، وما فى بطنها، والمياه، والغابات، والمصانع، والمعامل، والمناجم، والمعادن، والسكك الحديدية، والمواصلات المائية والجوية، والمصارف، ووسائل المخابرات، والمشاريع الزراعية الكبيرة المنشأة من قبل الدولة (حقول حكومية، ومحطات آلات، والتراكتورات الخ..) وكذلك مشاريع البلديات، والمجموعات الرئيسية من المساكن فى المدن، والمراكز الصناعية، هى ملك الدولة(3).

ص:178

1- (1) نفس المصدر ص 4 المادة 7.

2- (2) نفس المصدر ص 3 المادة 5.

3- (3) (الدستور السوفياتى) ص 4 المادة 6.

فهذه الاشياء كلها ملك للدولة، بصورة رسمية صريحة.

ب - الملكيات الاشتراكية:

تتألف من ملكية الجمعيات التعاونية، و ملكية الحقول التعاونية: (الكولخوزات) أما ملكية الجمعيات التعاونية فهي الممتلكات العامة التي شيدت على نفقة الكولخوزات، وأما الحقول التعاونية، فهي الاراضى التي انتزعت من الفلاحين لتكون ملكا للدولة ولما أن تفاقمت غضبات الفلاحين ضد الدولة وقدموا الارقام الهائلة الخيالية من الضحايا واستبدت بهم الثورة، وتحالفوا على الثبات فى كفاحهم المرير، اضطر لينين إلى إرجاع الاراضى إلى أصحابها بشرط أن ينتظموا فنظمهم فى شبكة قوية من شبكات الحزب الشيوعى كى لا تختلف شؤونهم عن الفلاحين، الذين يعملون للحكومة وقرر أن ليس للكولخوزيين الحق فى امتلاك الالات الزراعية، وليس لهم إكراه إنسان لمساعدتهم فى أداء مهماتهم، فالاقتصاد الاشتراكى أسس على أنقاض هذين العنصرين، كما يقرر ذلك الدستور السوفياتى: (يتألف الاسس الاقتصادى الذى يقوم عليه الاتحاد السوفيتى، من النظام الاقتصادى الاشتراكى، ومن التملك لأدوات الانتاج ووسائله، وهما اللذان ثبتت دعائهما بعد تصفية النظام الاقتصادى الرأسمالى، وبعد إلغاء الملكية الخاصة لأدوات الانتاج ووسائله، وبعد إلغاء استثمار الانسان للانسان(1)).

ص:179

كمان ان الكولخوزات ليست حرة فى تنظيم أعمالها وفق نظام تقرر لها لنفسها، وإنما تديرها جمعية الكولخوزيين العامة(1) وتوافق الجمعية العامة على تقرير الهيئة الادارية السنوى، وعلى برنامج الانتاج السنوى، وعلى معدلات كل عملية من العمليات، وعلى اجرتها محسوبة بأيام العمل، وعلى قدر ما يوجب توظيفه من الاموال الجماعية، وعلى مقدار ما يجب تقاضيه من منتجات زراعية ونقد لقاء يوم العمل.(2)

ثم لا- يكون لكل عامل مقدار ما أنتجه، وإنما تعتبر المنتجات وجميع الآلات والادوات والمواشى... ملكا اشتراكيا كما ينص على ذلك الدستور السوفياتى: (المشاريع العامة فى الحقول والمنظمات التعاونية، بما فيها من آلات وأدوات، ومواشى، ومنتجات هذه الحقول والمنظمات، وكذلك أبنيتها العامة، كل ذلك يكون الملكية العامة الاشتراكية، للحقول والمنظمات التعاونية(3).

ص:180

1- (1) لا بد أن نعرف أن أعضاء جمعية الكولخوزيين العامة، لا ينتخبون من قبل الكولخوزيين أنفسهم، وإنما ينتخبهم الحزب بالتركيبية، ويعيرهم اهتماماً بالغاً، كى لا يفسحوا المجال أمام الفلاحين، فيطغى على الشيوعية سيل الفلاحين العرم... وهكذا نرى (خروشوف) يؤكد على ضرورة حسن إختيار رؤساء الكولخوزات، هاتفاً فى مؤتمر العشرين: (.. فقد أصبح كلشىء يتوقف على كفاءة هيئات الحزب الادارية منها والزراعية... وبالدرجة الاولى على حسن اختيار رؤساء الكولخوزات... خروشوف (بيان اللجنة المركزية الشيوعية فى المؤتمر العشرين) ص 108-109.

2- (2) انظر (الاتحاد السوفياتى فى مائة سؤال وجواب).

3- (3) (الدستور السوفياتى) ص 4 المادة 7.

وعلى هذا الضوء فكل شيء ملك اشتراكى يجب تفويضه الى جمعية الكولخوزيين العامة، لتصرفها فى مصارفها المرسومة... فتدفع الجمعية الى الدولة من مجموع المنتجات، الضرائب المتصاعدة الفادحة، وأقساط التأمين والديون المترتبة عليه، وتكاليف حاجات الانتاج الجارية ونفقات الادارة كما ترصد وفرا منها باسم الحاجات الثقافية، وتقدر شطرا هائلا منها لشراء العتاد، والماشية. وتشيد الابنية الضخمة، للمدارس، والاندية ودور الحضانة، والمستشفيات...

وبعد ذلك كله تعد الجمعية أيام عمل العامل، وتدفع اليه الاجور بنسبة العمل المبذول ونوعه: حراثة هكتار من الارض، تعشيب دونم من دوار الشمس، حلب الف لتر من الحليب..... الخ

فاذن لا يختلف الكولخوز عن الفلاح الاخر الذى يعمل للدولة، نعم إذا خرجت معدات الدولة من مجموع الانتاج، وبقيت المنتجات أقل من أجور الكولخوزيين، توزع عليهم بنسبة أجورهم ويخسرون الاجر العادل... أما اذا فاضت المنتجات فانها تدخر فى صندوق الجمعية... ولا تدفع الاجور الى الكولخوزيين نقداً وإنما تحول اليهم كما تشاء الجمعية، بضائع أو نقوداً، او قسطاً من الانتاج وقسما من النقود...

وحيث لا تؤمن حياتهم البضاعة المعينة التى ينتجونها، يلتجؤن إلى بيعها من منظمات الدولة، التى لا تشتري الا بابخس الاثمان، ولا تبيع إلا باقدح الاسعار.(1)

ص:181

وقدر بنفسك الحياة التي يقدرها الحزب الشيوعي للكولخوزيين كم ذا تكون مضمينة متقشفة؟ ولقد أدى ذلك إلى انفجارات وانتفاضات هددت روسيا بالدمار والهلاك.. كما رأوا أن من الممكن استغلال الكولخوزيين أكثر من ذلك، فوضعوا قانون يمنح الكولخوزيين الحق في أن يتقاضوا أجراً إضافياً، مقابل تجاوز البرنامج: (... ولذا وضع نظام ينص على منح أعضاء الكولخوز أجراً إضافياً، عينا أو نقداً، مقابل تجاوز البرنامج(1).

فاذن لم يختلف الكولخوز عن فلاح اخر يعمل لحساب الحكومة، لأنه الثانى الذى لا يملك الانتاج، ولا يملك حريته فى العمل، ووضع المنهاج، والمخطط. ولا يملك الآلات، ولا يملك الارض، لانها تعتبر ملكا للدولة أبيع له التصرف فيها، كما ينص على ذلك الدستور السوفياتى: (إن الارض التى تشغلها المزارع التعاونية معطاة، كملك لها، تستفيد منها مجاناً إلى أجل غير مسمى(2).

مساواة الرجال والنساء:

من الضرورات الاساسية فى النظام الاشتراكى، مساواة الرجل والمرئة فى العمل وتلك تعتبر من الاهداف الرئيسية فى المجتمع الاشتراكى كما يقول إبراهيم الحداد: (أما الاصلاح الذى تسعى الاشتراكية إلى تحقيقه فى المجتمع الحاضر، فيمكن تلخيصه فيما لى: 1 - إعلان المساواة التامة بين المرئة والرجل(3)...).

ص:182

-
- 1- (1) أنيسيمون (الزراعة السوفيتية) ط موسكو ص 22.
 - 2- (2) (الدستور السوفياتى) ص 4 المادة 8.
 - 3- (3) (الاشتراكية العملية نشوئها وتطورها) ص 7.

والان تعمل المرثة فى البلاد الاشتراكية الى جانب الرجل، تدلنا على ذلك الجمل التالية:

(فموجب القوانين السوفياتية، يدفع معاش التقاعد على مدى الحياة، إلى العمال والمستخدمين الذين بلغوا سن الستين... أما النساء فينلن هذا المعاش عندما يبلغن سن الخامسة والخمسين...[\(1\)](#)).

(وهناك قوانين خاصة، لتنظيم عمل النساء الحوامل...[\(2\)](#)).

(... وفى ميدان التعليم العام يعمل اكثر من مليون معلمة، ويزيد عدد النساء اللواتى يشتغلن فى المستشفيات والمستوصفات والمنشآت الرياضية عن المليونين. كما يشتغل فى المنشآت العلمية والثقافية والتربوية اكثر من 2700000 امرئة، وثمة 1300000 امرئة يدرسن فى منشآت التعليم العالى، والتعليم الثانوى الاختصاصى. والنساء فى الاتحاد السوفياتى يدرن كثيراً من معاهد البحوث العلمية، والمدارس العليا، والمصانع الكبيرة، والسوفخورات [\(3\)](#) والكولخوزات، والمدارس، والمستشفيات [\(4\)](#)).

(ينص التشريع السوفياتى على شروط خاصة لعمل المراهقين والنساء،... وعندما تحمل المرثة تنقل الى عمل أسهل...[\(5\)](#)).

ص:183

1- (1) (الاتحاد السوفياتى فى مائة سؤال وجواب) ص 37.

2- (2) نفس المصدر ص 51.

3- (3) مؤسسات زراعية حكومية.

4- (4) نفس المصدر ص 59-60.

5- (5) نفس المصدر ص 87.

من هذه النصوص نعرف أن الرجال والنساء والمراهقون يعملون سواء بسواء، في النظام الاشتراكي القائم..

مصادرة الاملاك:

على أثر قيام ثورة اكتوبر صادر لينين جميع الملكيات الكبرى، والاراضى، والنقود... ثم أخنى على أصحاب الملكيات الصغيرة وصادرها... غير أن ذلك الثانى حيث اثار غضبة العمال والفلا-حين، التجيء الى منح حق امتلاك الافراد لاجورهم، وما يشترونها بأجورهم... كما أن الحكومة اضطرت - بعدما رأّت قلة الانتاج على أثر إجبارية العمل - إلى تجارى الحاح الفلاحين، فضمنت المادة السابعة والتاسعة(1) من دستورها إعطاء الحق لهم فى استثمار قطع صغيرة من الاراضى، وتربية بعض المواشى والطيور، شريطة أن لا يستثمر فيها مجهود اخرين، وأن يدفعوا الضرائب التصاعدية حتى عن المواشى والطيور، والتأمينات الاجتماعية، و...

فأذن يقرر النظام الاشتراكي مصادرة جميع الملكيات الصغيرة والكبيرة أما هذه الاخريات التى فصلناها، فليست ملكية، وإنما هى أشبه بالخداع وتخدير المشاعر، فالفائض الناتج من هذه الملكيات، لصاحبها القانونى، ليس باكثر من الاجر الذى يتقاضاه، لو عمل أجيراً، اما الوفر الفائض فان الحكومة تستأثر به...

ص:184

1- (1) فصلنا ذلك تحت عنوان (تحديد الملكية).

كان ماركس يحاول أن يلغى النقود، ويعمل كل فرد حسب طاقاته ثم يستهلك من البضائع حسب حاجاته، ولكن لينين حيث عجز عن تطبيق ذلك، جعل يوزع البضائع حسب مشروع الدولة، وذلك بأن يدفع نوعاً من البضائع، بدل قسم من الاجور، ويدفع القسم الاخر من الاجور نقداً الى العمال، ويستعرض بقية البضائع فى الاسواق الحكومية، ليشتريها العمال بذلك القسم من الاجور، الذى استلموه نقداً...

أما كمية الاجور، ومقدار ما تستلمه العمال، نقداً أو عيناً، فان ذلك كله يقدر حسب مشروع الدولة(1) الذى ينظم تبعاً لجداول الاجور التى تشترك فى وضعها النقابات، وتوافق عليها الحكومة بالتزكية، وهذه الجداول عبارة عن توزيع التعريفات، ومقادير الاجور، تبعاً لمستوى العامل المهنى، وصعوبة العمل، وتعقد التكنيك، وخصائص مراحل الانتاج(2) ولقد قرر ستالين ان لا تمنح الاجور للعامل بمقتضى نوع العمل الذى يؤديه وإنما تقدر الاجور بمعدل كمية الانتاج فمن يعمل 8 ساعات يمنح 3 روبلات - مثلاً - سواء أنتج ذلك العمل اكنثالا من القمح، أو أنتج صاروخاً، فالفلاح لا يختلف عن رئيس المهندسين كما هتف بذلك عام 1930:

ص:185

1- (1) انظر المادة 11 ص 5 الدستور السوفياتى.

2- (2) انظر (الاتحاد السوفياتى فى مائة سؤال وجواب) ص 91.

(نحن لا نمنح (1) العمال أجوراً بمقتضى نوع العمل الذى يؤدونه، وإنما نمنحهم هذه الاجور بمقتضى كمية العمل، التى ينتجونها(2)..
وإن كانت الكتب الصادرة فيما بعد تخالف هذا التصريح كما اثبتنا شطراً منها فى الصفحات السابقة..

فأذن يوزع الانتاج بدل الاعمال، ولكنه ليس كل الاجور وليس لاشباع الحاجات الاساسية(3) وإنما هو بدل قسم من الاعمال، حسب موازين، وبرامج النفايات.

العمل الاجبارى:

ولم تحرف نظرية ماركس فى إجبارية العمل، رغم أن الاشتراكية حورت جميع الركائز الاساسية لمبدأ ماركس لذلك هتف لينين عام 1920 مبشراً بخلق معنى جديد لحرية العمل: (إن حرية العمل لا تعنى حرية العامل فى ترك عمله... فنحن لا نستخدم العمال باعتبارهم احراراً يعملون أولاً يعملون، وإنما نستخدمهم باعتبارهم مكلفين بالعمل... ولهذا فانهم لا يملكون حق ترك العمل المحدد لهم...(4).

ص: 186

1- (1) يلاحظ الانسان ما فى كلمة (نمنح) من الاذلال لكرامة العامل، فكأنه لا يستحق الاجور، وإنما تمنح له كتبرع.

2- (2) (النظام الشيوعى) ص 48.

3- (3) انظر نفس المصدر ص 137.

4- (4) (النظام الشيوعى) ص 47.

فالعمال ليسوا احراراً في أن يعملوا أو لا يعملوا. وإنما هم مرغمون على القيام بأى عمل يعهد إليهم وحرية العمل إنما تعنى حرية الحزب الشيوعى فى أن يحملوا العمال ما يشاؤون من أعمال فادحة، بأجور ضئيلة. وحيث رأى ستالين أن ارغام العمال على العمل، جعلهم يتوانون عن استفراغ جهودهم بنشاط واندفاع، فى سبيل توفير الانتاج وازدهاره لذلك اخذ يزعم فى وجوههم بكل صفاقة، ان يبذلوا أقصى امكانياتهم ومواهبهم فى سبيل الانتاج والا فان الرحمة سوف تدرأ عنهم، وحتى لو استنزفوا طاقاتهم ومقاديرهم فى سبيل النهوض بمستوى الانتاج، فان ذلك لا يبرر ان يتقاضوا على ذلك اجورا إضافية، فالحزب يقدر لكل عامل منسوباً معيناً لو لم يبلغه يعتبر مجرماً يعاقب على إجرامه... اما لو ضرب رقماً قياسياً بين العمال، فان ذلك يؤهله للاجر الاضافى، ما لم يتجاوز مستواه عامل اخر، اما اذا كان ذلك فان المكافئة لا تمنح له لان الرقم القياسى اصبح لغيره او اذا اخذ الحزب موقفاً جديداً، ليفصل للعمال منسوبات اوسع... وذلك فى تصريحه عام 1934: (... نحن لا نرحم اولئك الذين لا يعملون على رفع مستوى الانتاج بكل ما وسعهم من جهد ولن يكون رفع مستوى الانتاج مسوغاً لزيادة الاجور، فالحزب يضع لانتاج كل عامل منسوباً معيناً يجب عليه ان يبلغه، فاذا لم يبلغه اعتبرناه اداة تخريب... اما العامل الذى يتجاوز هذا المنسوب فانه يستحق المكافئة... ولكن هذه المكافئة لا تمنح له اذا ظهر عامل جديد يتجاوز مستواه، او اذا قرر الحزب منسوباً جديداً للانتاج(1).

ص: 187

1- (1) نفس المصدر ص 49.

وعلى هذا الضوء سار الدستور السوفياتى مؤكداً اجبارية العمل، (العمل فى الاتحاد السوفيتى واجب على كل مواطن يستطيع ان يعمل، ومدعاة شرف له، وذلك وفقاً لمبدأ: (من لا يعمل لا يأكل).

(ولقد تحقق فى الاتحاد السوفيتى مبدأ الاشتراكية القائل: من كل فرد حسب مقدرته، ولكل حسب عمله(1).

فاذن العمل فى البلاد الاشتراكية اجبارى، لا يرفضه احد الا ويعتبر اداة تخريب يفت فى عضد النظام، وينال من كرامة البلاد، فيجب إدانته وتعريضه للحساب.

تلك هى الجذور الام، والقواعد الرئيسية فى النظام الاشتراكى، كما فصلها زعماء الاشتراكية...

ص:188

1- (1) (الدستور السوفياتى) ص 5 المادة 12

لم تكن اقتصاديات روسيا القيصرية فائزة على الارقام الاقتصادية في البلاد الاخرى، ولكنها لم تكن متخلفة عن سائر البلاد الرأسمالية، وكانت تسير في قافلة الشعوب المضطهدة تحت كابوس رأس المال ولم تكن يوماً بحاجة الى الخبز بصورة مطلقة... وما فاجنتها ثورة اكتوبر إلا- وعلى صوت لينين، وهو ينتكص على عقبيه، قائلاً: (موسكو بحاجة مطلقة وماسة للخبز. لذلك طبقوا) السياسة الاقتصادية الجديدة) وسلسلة من التنازلات، والمساعدات الى التجار(1) وفي نفس الوقت اعتلى صوت لينين ايضاً وتعالت معه عقيرة عبيده وعملائه ترثي ألوان التأخر الاقتصادي والثقافي في روسيا القيصرية، وتصب لعائنها المضاعفة على الرأسمالية التي أخرت البلاد، وربطتها الى عجلات الورا... ولكن يجدر بنا أن نتساءل عما: إذا كانت روسيا متأخرة كما تصفون؟ فمن أين جاء أولئك البورجوازيون، والرأسماليون، والاقطاعيون.. الذين كان نضالكم المقدس (!) لمكافحة هؤلاء؟؟ ولقد اضطر لينين فيما بعد إلى التصريح بأن الماشية في عهد قيصر كانت أكثر منها في عهد الشيوعية.. ولكنه كان يلقي هذا الذنب على عاتق الحرب الاهلية، وثورة الفلاحين الذين اعدموا محاصيلهم ومواشيهم خشية ان تقع في ايدي الشيوعيين!! ولكننا نتساءل - أيضاً - هل كانت الحرب الاهلية الطاحنة، وثورة الفلاحين، إلا من لعنات الشيوعية؟ وهل كانتا منبعثتين إلا من صميم الشعب الذي تهتفون باسمه؟ ومن آثار الحرب الاهلية، وثورة الفلاحين، غير لينين وأذنا به وزملائه...؟ ومن ذا قلب الفلاحين والشعب ضدكم، وقد

كانوا الجنود المتطوعين فى ثورتكم؟ إذن فهذه الخسائر كلها كانت من صنع أيديكم، ومن تعسف نظامكم الذى طبقتموه بالجور والتعذيب.

فشل الاشتراكية:

إن أشع الوان الفشل - بما للكلمة من معنى - ظهر على جبين النظام الاشتراكى السائد فى روسيا، فان اكبر الفشل لنظام أن يعجز من بلوغ هدفه... ولقد كان الهدف الوحيد الذى من أجله تكونت الاشتراكية، هو إصلاح ما أفسده النظام الرأسمالى، فقد كان الاشتراكيون ينتقدون: أن خيارات الارض كافلة لتنظيم حياة مرفهة سعيدة، لجميع البشر ولكن النظام الرأسمالى أفسد التنظيم الواعى العالمى للاقتصاد، وسبب توزيع المجتمع إلى طبقة مترفة متطفلة، وطبقة كادحة محرومة، فلا بد من اكتساح هذا النظام لیسود محله النظام الاشتراكى، فيوجه الانتاج والاستهلاك توجيها عادلا صحيحا، لينعم الجميع بالرخاء والرفاه..

وهذه النظرية تدل على ان النظام الاشتراكى - على أیحال - خير من النظام الرأسمالى... وبعد ذلك فمن الفشل المخزى الذريع أن يعلن قادة الاشتراكية: أن هذا النظام أفسد من النظام الرأسمالى، ونحن لا نعلم فى هذه النقطة على غير كلمات خروشوف، لأنه أكبر المسؤولين اليوم، فيعبر عن اخر الانتصارات الاشتراكية، ولن يحاول تحطيم نفسه وحكومته ولتكن اعترافاته مقتضبة من خطبته الطويلة، التى قرر فيها الارقام التوجيهية لمشروع السنوات السبع، فى المؤتمر الحادى والعشرين للحزب الشيوعى، فليدل إلينا باعترافاته:

ص:192

(والان يشغل الاتحاد السوفيتى المكان الاول فى أوربا، والثانى فى العالم، من حيث الانتاج الصناعى(1).

فأمريكا الرأسمالية الفاسدة، متقدمة على البلاد الاشتراكية، وهذا يدل على أن الرأسمالية المقيمة، أفضل من الاشتراكية.

وبعد ذلك يرى خروشوف أن عليه أن لا يقف مكتوف الايدى تجاه انتصارات البلاد الرأسمالية، بل الواجب يحتم عليه أن يرهق الشعب ليلتحق بأمريكا الرأسمالية، ويسبقها فى الانتاج... ثم يرجع إليه وعيه، ويعرف أن هذه الكلمات التى صدرت عن لسانه، كانت على اثر نوبة عصبية عصفت به، والعالم سيحاسبه عنها، فيتدارك الامر، معلناً أن ذلك يتطلب مدداً من الوقت تخرج عن نطاق مشروع السنوات السبع: (... ومن الناحية العملية، يجب تنفيذ مهمة تاريخية، وهى اللحاق بأكثر البلدان الرأسمالية تطوراً، وسبقها فى الانتاج بالنسبة للنسمة الواحدة من السكان. وسيتطلب تحقيق هذه المهمات مدداً تخرج عن نطاق مشروع السنوات السبع(2).

فلا بد إذن أن تعمل البلاد الاشتراكية بسرعة فائقة فى السنوات السبع، وبعد السنوات السبع، عليها تلحق بالمستوى الحالى فى الولايات المتحدة، ولنستمع الى خروشوف نفسه ليحدثنا عن ذلك: (.. ولذلك فاذا ما حسبنا بالنسبة لكل نسمة

ص:193

-
- 1- (1) خروشوف (الارقام التوجيهية لتطوير الاقتصاد الوطنى فى الاتحاد السوفيتى لأعوام 1959-1965) ط موسكو ص 7.
 - 2- (2) نفس المصدر ص 18.

من السكان، فإن الأمر يتطلب في أكبر الظن بعد مشروع تنفيذ السنوات السبع، خمس سنوات أخرى، للحاق بالولايات المتحدة الأمريكية(1).

ولكن هذا الأمر سوف لا يكون إذا تباطأت البلاد الاشتراكية في سيرها، إن اللحاق بالولايات المتحدة، أمر يتطلب فيضاً وافراً من الجهود الحثيثة، وليحدثنا خروشوف بنفسه عن مدى ما يقتضيه الأمر من تحفز ونشاط: (فنحن نركض بسرعة تعادل أربعة أضعاف سرعة الولايات المتحدة ونضيف كل سنة كميات أكبر من المنتجات. وإذن فاللحاق بالولايات المتحدة قد غدا اليوم أسهل جداً(2). وبعد أن تركض البلاد الاشتراكية بسرعة تعادل أربعة أضعاف سرعة الولايات المتحدة، يكون اللحاق بالولايات المتحدة أسهل منه فيما مضى..

وتأخر البلاد الاشتراكية ليس في ناحية معينة من جوانب الاقتصاد وإنما هو تأخر في كل فرع من فروع الاقتصاد، حتى في الحليب، والزبدة واللحم.. فهذا خروشوف يردد: (لقد أصبحت بلادنا تشغل المكان الأول في العالم، من حيث الانتاج الاجمالي للبن الحليب، والزبدة، وفي السنوات القليلة سنلحق بالولايات المتحدة الأمريكية... لتحقيق النداء الصادر عن شغيلة الكولخوزات، والسوفخوزات الطليعيين، والداعي الى اللحاق بالولايات المتحدة، في الانتاج الحيواني(3):

ص:194

1- (1) نفس المصدر ص 93.

2- (2) نفس المصدر ص 92.

3- (3) نفس المصدر ص 44.

(... وبالتالي الاسهام، بسقط هام فى تنفيذ نداء الكولخوزات الطليعية، إلى اللحاق بالولايات المتحدة فى إنتاج اللحم).

وسوف لن يكون اللحاق بالولايات المتحدة فى إنتاج اللحم وسائر المنتجات الزراعية، أمراً هيناً تستطيع ان تنهض بعينه روسيا وحدها، بل لا بد من توزيع الالتزامات على هذا التقدير: (... أما نصيب كل جمهورية، وإقليم، ومقاطعة، ومنطقة، وكولخوز، وسوفخوز فى النضال لتنفيذ نداء الكولخوزات والسوفخوزات الطليعية، إلى اللحاق بالولايات المتحدة، فى إنتاج اللحم، وغيره من المنتجات الزراعية فيجب تقديره على أساس المئة هكتار من الارض).

وهذا الفشل الذريع الذى يلاحق الاشتراكية فى كل مكان، حتى ينبعث من لسان رئيس البلاد الاشتراكية، كشىء طبيعى بارز، لا يقبل الجحود والاختفاء، ليس مختصراً فى روسيا ومستعمراتها، وإنما هو ملازم للاشتراكية، تلازم الحرارة للنار، فالصين الاشتراكية، تقتضى اثر روسيا فى التطفل بالمبارات الجانبية مع إنجلترا... وحسب الصين تأخراً وانحطاطاً أنها، بما لا يبينها، وفخفخاتها، وصرخاتها المسعورة، تتعرض بالمبارات الاقتصادية المحدودة مع إنجلترا. ولكن الصين مع ذلك ترهب أن تعلن مباراتها، وإنما يعبر عنها خروشوف بأسلوب يمكن سحبه بعد حين قائلاً: (.. فمن المعروف مثلاً: أن الحزب الشيوعى الصينى قد وضع فى سنة 1957 مهمة سبق إنجلترا فى غضون 15 سنة من حيث الانتاج الاجمالى فى الفروع الصناعية الهامة⁽¹⁾).

ص: 195

1- (1) خروشوف (الارقام التوجيهية..) ط موسكو ص 99.

عندئذ يجدر بنا أن نتساءل هل إن الشعب السوفيتي يعيش أرفه وأسعد من الشعوب الرأسمالية؟ أم أن الشعب السوفيتي الاشتراكي أشقى وأكند عيشاً من الشعوب الرأسمالية؟؟ لا بد أن يكون الجواب: أن الشعب السوفيتي أشقى من الشعوب الرأسمالية تبعاً لتصريحات خروشوف: زعيم الاشتراكية العالمية!..

وإذن ففي وسعنا أن نقول بكل جرأة وقوة: إن النظام الاشتراكي نظام فاشل، وإنه أفسد من النظام الرأسمالي، وإن الاشتراكية عاجزة عن تنظيم الاقتصاد، رغم أنها ترهق الشعوب وتعدو بها بسرعة تعادل أربعة أضعاف سرعة الشعوب الرأسمالية، ورغم أنها صادرت جميع الاملاك وخنقت كافة الحريات، وقضت على الأديان والأخلاق، وقتلت الملايين وسجنت وسفرت الملايين...

كما ظهر: ان الشيوعيين - جميعاً - كذابون لا يتورعون عن التلفيقات المزورة، لتغريير عباد الله، فقد كانوا يقولون: ان الشعب السوفيتي اسعد الشعوب، ان العامل والفلاح يعيشان عيشة مترفة مرفهة وان روسيا تقيض بخيرات الارض وبركات السماء...

وما ان اعتلى خروشوف منصة مؤتمر الحادى والعشرين الا وظهر ان الشعب السوفيتي اتعس الشعوب، وان اقتصاده متأخر 12 أعوام - على الأقل - عن اقتصاد الولايات المتحدة، هذه الدولة التى يصب الشيوعيون نغماتهم ولعائنهم عليها. وقد تبين: ان العامل والفلاح فى روسيا يعيشان فى شظف وتكشف وحرمان، ويركضان بسرعة تعادل اربعة اضعاف سرعة العامل والفلاح فى

وعلينا حينئذ ان نتساءل: لماذا تدعون الى هذا النظام الفاشل لو كنتم احرار كما تزعمون؟ وماذا يعجبكم من هذا التأخر المتعب إن كنتم تقدميين كما تقولون؟ وبأى مبرر تسوقون الناس الى تلك البؤرة الجرداء ان لم تكونوا مأجورين؟..

مناقشة الاشتراكية:

ما ان نعرض الاشتراكية على المشرحة، الا وتتكشف عن مجموعة اخطاء واغلاط، وسيئات ومناقضات، وتشف عما تنطلي عليه من استعباد واستثمار.. لذلك لا نكلف انفسنا بالتعمق فى مناقشتها، وانما نكتفى بالقاء الضوء على اسسها ومبادئها الرئيسية، بعجالة واختزال:

دكتاتورية الحزب:

اول ضرورة من ضرورات الاشتراكية، اطلاق الدكتاتورية للحزب الشيوعى (1) واستبداده بفرض احكامه على الشعب، مهما كلف الامر من الخسائر والضحايا..

ص: 197

1- (1) لم يكتب النشور للشيوعية فى اى بقعة من بقاع الارض، ولكن الحزب - قبل ثورة اكتوبر - حيث كان يقود الجماهير باسم الشيوعية ولاجل تطبيق المبادئ الماركسية، سمي نفسه بالحزب الشيوعى، وبعد ما اعلن التاريخ فشل الشيوعية والمبادئ الماركسية، واستعصائها على التطبيق، وارتجل لينين الاشتراكية، لم يجد الحزب محفزا الى تبديل اسمه، تغريرا للجماهير، كما لم يجد بأسا بترديد المبادئ الماركسية، رغم ان التاريخ طواها فى قائمة الاساطير الأفلوطية، التى تحيا وتعيش وتموت فى الاوهام.

وهذه النظرية ترشدنا الى ان الاشتراكية ليست لصالح الشعب، وانما هي تؤمن اغراض القادة المنظمين فى الحزب فقط، رغم الشعب ومصالحه، ولولا ذلك لاستجاب لها الشعب بكافة عناصره وقومياته، ولما احتاجت الى التوسل بالعنف والدكتاتورية.

والعجيب ان الاشتراكية استقامت على اكتاف المضطهدين لانقاض الدكتاتورية، واستبدالها بالحرية الكاملة، والديمقراطية الصحيحة... فاذا بها ترفض الديمقراطية، والحرية، وتتبنى اقسى دكتاتورية خيالية، والدكتاتورية اول ما يكرهها الشعب، ويعمل لتحطيمها ومكافحتها بكل ما يملك من قوى وجهود. فضرورة الدكتاتورية فى الاشتراكية، كأكبر دعائمها، اغلوطة لا سبيل الى تصحيحها، او تبريرها...

مصادرة الحريات:

وتتلو تلك، مصادرة الحريات - بما لها من معنى - واستعباد الملايين لاسياد الكرملين..

تلك هى الثانية التى تهدينا الى مدى مناقضة هذا النظام، للانسانية وارادة الشعب، فالنظام الصالح هو الذى يسعى الى أهداف الشعب وآماله، وينظم الحياة السياسية وفق دستور يستطيع توجيه الشعب الى مصالحه فى زحمة الحريات، واطلاق الصلاحيات الكاملة... ولولا ذلك لم يصح اعتباره نظاما، وانما الاجدر ان نعبر عنه ب - (شبكة اللصوص) فالنظام يجب ان يكون لصالح الشعب، لا ضد الشعب، ومركزا على اساس الايمان بالشعب ومصالحه، لا على

ص:198

اعتباره جسرا الى اهدافه واغراضه وبعد ذلك فان كبت الحريات، تؤدي الى كبح المواهب وخنق روح الابداع، وغريزة المبارات ثم الاستباق على الصعيد العلمى، والاقتصادى، والفنى، والثقافى... ولعل هذا التأخر الملموس فى روسيا ومستعمراتها - الذى اعترف به خروشوف - ناجم عن كبت الحريات.. فكما ان الانسان لا يبتسم للأفق الخائق، كذلك لا تتفتق مواهب المرء، ومقاديره وطاقاته الكامنة، لو لم توقظها انسام الحرية والنتائج المتكافئة.

تحديد الملكية:

من ذا يعمل لغيره؟ ومن الذى يضحى بوقته وقواه فى سبيل عدوه؟ وهل تحمل الشاة السكين الى جزاره؟ ان الانسان لا يخلص فى العمل، الا- على صعيد تكافؤ الفرص، والا اذا علم ان جهوده لا تسلب منه.. ولن يتدفق نشاط المرء على ساحة العمل الا بالحافز الداخلى أو الخارجى فاطلاق الملكية الفردية، هو الذى يستنزف طاقات الفرد، كما لا يستنزفها اى شىء اخر. ولقد كفر لينين بهذه الحقيقة، حتى تراكمت امامه اتلال الضحايا، وانقراض الاقتصاد.. فاستسلم للواقع الحى، ولكن بعد ان فلت من يديه الزمام فاطلق صرخته الاخيرة: (ينبغى تأسيس كل فرع من فروع الاقتصاد الوطنى، على المصلحة الشخصية⁽¹⁾).

ولقد اضطر خروشوف فيما بعد ان يأخذ بكلام لينين، فجعل ينادى فى مؤتمر العشرين:

ص:199

1- (1) خروشوف (بيان اللجنة المركزية الشيوعية فى المؤتمر العشرين) ص 117 نقلا- عن لينين: (مؤلفات لينين المجلد 33 الصفحة 47).

(... ففيمآ يتعلق بالمهندسين، والاختصاصيين وكذلك رؤساء المؤسسات، ينبغي ان يتوقف قسم من راتبهم، توقفا دقيقا على معدلات العمل الاساسية، فى المعمل، والمؤسسة، والفرع الاقتصادى والكولخوز(1)).

فكما ان لينين وخروشوف عرفا: ان الغاء الملكية الفردية يشل الاقتصاد الوطنى، ولا- يمكن ترميمه الا بترتب المنافع الشخصية على معدلات العمل.. كذلك تحديد الملكية الفردية ينخر فى كيان الاقتصاد ويلويه الى الورا.

تحديد الاقتصاد الوطنى:

ان تقدير معاش الناس حسب مشروع الدولة، تنفع لتحديد الاستهلاك، والتقتير على الشعب، للتوفير على خزائن الدولة، ولكنه يضر من ناحيتين:

أ- ان الشعب ينقلب الى فقراء مدقعين، وذلك هو المستمسك الوحيد الذى يحتج به على فساد الرأسمالية، والذى اخنى عليه الشيوعيون باللائمة الكبرى.

ب- ان الشعب متى علم ان معيشته ترسم من قبل الدولة، تبعاً لمشروع عام ينبوعن التحويل والتبديل، يصاب بخور الحافز الفردى، ويسعى للهروب عن العمل جهد الامكان، وفى ذلك انهيار الاقتصاد، وتجمده فى موقفه...

ص:200

1- (1) خروشفوف (بيان اللجنة المركزية الشيوعية فى المؤتمر العشرين) ص 117.

ان مساواة الاكفاء مستحبة في كل مكان، اما مساواة الرجال والنساء في العمل فهي من سيئات النظام، ولكن الاشتراكيين لا يعقلون!! والاشتراكيون انفسهم يزنون طاقات الحديد، والخشب والتراب فيمتنعون عن تحميل كل واحد الا بمقدار طاقته، او اقل منها..: فيقدرون ان الطائرة المعينة تحلق بالف كيلو غرام. وان العمود الساجى المعين يستقل ب - 500 كيلو غرام. وان التربة السبخة لا تتحمل الا طبقتين من البناء - مثلا - فيكلفون كلا من الحديد، والخشب، والتراب، ان ينهض بما لا يبهضه عبئه...

اما الانسان: هذا الكائن المسكين، فيجب ان يعمل على قدم المساوات، دون ان يكون هناك من يقدر طاقات افراده، ويكلفهم العمل بموجبها.. فالمرأة رغم ان كيانها ادق واوهى من كيان الرجل، يجب ان تعمل كما يعمل، تحقيقاً لمساوات الاشتراكية.. وهكذا قد تكون المساواة من سيئات النظام، واكبر دليل على عدم نضوجه وتبلوره.

وهناك حقيقة ثانية يجدر بنا ان نستوعبها في هذا المجال، هي ان طبائع الاشياء بذاتها تقرر اعمالها، وتحدد كمية وكيفية انتاجها.

والاشتراكيون - رغم كفرهم بالحقائق الصارخة - آمنوا بهذه الحقيقة، ولكن.. إيماناً ناقصاً.. والحقيقة كلها: ان طبيعة الشيء، وقواه ومقاديره الكامنة، هي التي تحد له منسوباً معيناً من العمل، ونوعاً خاصاً من الانتاج، يتحطم ان تعدهما الى اوسع منهما، كما تتعطل تلك الوظيفة شاغرة، ان تركها لغيره...

مثلا- ان التراكثور يؤدي واجبا زراعيا، والقمر الاصطناعي يؤدي واجبا فلكيا. وهذان الواجبان انما تفرضهما طبيعة التراكثور والقمر الاصطناعي، لا السلطات الحاكمة، حتى ولو بلى الناس بسلطة تشريعية شانت ان يؤدي التراكثور واجب القمر الاصطناعي، وان يؤدي القمر الاصطناعي واجب التراكثور، ليتحطما معا دون ان يؤديا واجبا.

تلك هي قضية المرأة والرجل، فطبيعة الانثى وتركيباتها السيكلوجية والبيولوجية، ونداءاتها الفطرية والعاطفية، تقرر لها مسؤولية البيت والاعمال البيتية، من حضانة الاطفال، وتربيتهم، وتنظيم الشؤون المنزلية البسيطة لان دقة كيان المرأة ورقة عاطفتها، تؤهلانها للوظائف البسيطة العاطفية الدقيقة، كحضانة الاطفال، التي تحتاج الى دقة عاطفية، بريئة عن البطش والحماس، وكالاعمال البيتية البسيطة، التي لا تحتاج الى عضلات مفتولة تتفجر قوة ونشاطا، ولا تتطلب عقلية واسعة جبارة وانما تكفيها اعصاب المرأة وعقليتها... كما ان طبيعة الرجل وطاقاته، وطموحه الغلاب، تقرر له مسؤولية خشناء كالقيام باعمال المعامل والمناجم، والمؤسسات، والفروع الاقتصادية والكولخوزات، والسوفخوزات. وسوف يعجز عن تنظيم البيت وحضانة الاطفال - لو كلفت بهما - او يحول البيت الى سجن السفاكين من ذلك كله نستلخص: ان مساوات الرجال والنساء فى العمل ليست الا من بواذر الترف، والطيش البليد، ومناقضة طبيعة الرجل والمرأة معا.

اجبارية العمل:

ان الناس كانوا يعملون، ولا يزالون يعملون، حتى ان الانسان القديم كان يعمل ليأكل، دون ان يحفزه اية قوة اجنبية فكم يقتضى ان يكون النظام طائشا، حتى يمتنع الناس - فى ظله - عن العمل؟ ويلجوا فى اضرابهم، حتى يلتجىء النظام الى اجبارهم على العمل؟.

والواقع ان الاجبار حيلة العاجز، واكبر دليل على ان النظام السائد هو الذى عرقل سير البشرية، حتى اذا تورمت اقدامها، وسقطت على الارض، لتتفرض عن نفسها التعب والسهاد، شهر سلاحه فى وجهها صارخا بها: سيرى، والا جعلت الارض مقبرة واسعة..

فالناس - ابدأ - سائرون فى مسراهم، وليست مسؤولية النظام الا ان يوجههم ويرشدهم، ثم يعبد لهم الطريق، ويغذيهم بالعتيدة، ليستحثوا خطاهم، ويشذب المتشذر. وليس النظام جلادا تائها، يقذف الناس فى المهاوى والتلال، ثم - يسوقهم بالحديد والنار، والتهديد والارهاب من ذلك كلمة نستنتج: ان التجاء النظام الى الاجبار يشف عما ورائه من عجز، وطيش، وفشل...

ذنوب الاشتراكية:

وبعدما وقفنا على فساد اسس الاشتراكية، ومدى تكلفها، ومعاكستها لواقع الحياة، وطبائع الاشياء، نحاسبها مرة اخرى، من جديد لنحصى عليها بعض جرائمها ومؤامراتها ضد البشرية والشعوب:

ص: 203

لم تكن سيئات الرأسمالية، هي التي اثارت ضجيج الاشتراكيين كما لم يكونوا اناساً متطوعين بالفداء، لحماية مصالح الشعوب، ومكافحة اعدائها الرأسماليين، وانما كانوا اناساً منبوذين - وحق لهم ان يكونوا منبوذين - فى حين انهم كانوا يشعرون بحسب الذات، والعظمة الكاذبة بينما المجتمع الرأسمالى، قد القى بهم بعيداً... بعيداً... فى قرارة الاكدار وبؤرة المفسدين المهرجين: اعداء الانسان حتى عز عليهم ان ينالوا حظوة فى ظل النظام (1) والذى كان يحز فى قلوبهم اكثر من كل شىء انهم كانوا يرون زملائهم - فى عداوة الانسان - يتصدرون مناصب الحكم الرأسمالى... هذه العوامل كلها دفعتهم الى اختلاف نظام جديد، يتبنى فكرة (الديالكتيك) البعيدة فى الرجعية، حتى يثير ذلك ضجة شاملة، وحيث ان فى المجتمع - ابداً - اناساً منبوذين، فسيلتفون حولهم، ويتوسعون فى التهريجات التى تهدد النظام والسلطة والشعب، وذلك يجلب انتباه كافة الطبقات...

وحيث ان الطبقة الكادحة مضطهدة وغاضبة - وفى نفس الوقت - بعيدة عن الوعى السياسى والاجتماعى، يمكن استغلالها لصالحهم.. وهكذا يتكون لهم كيان. لهذا الهدف راح الاشتراكيون يضعون مبادئهم ومناهجهم.

ص:204

وكانوا يستلهمون افكارهم من الرأسمالية نفسها، رغم انهم كانوا يهتفون ضدها.. حتى اصبحت الاشتراكية صيغة أخرى للرأسمالية، غير أنها صيغة مزورة، تنطلي على خداع وتمويه للحقائق - ولكنها تخدع الطبقات الامية، وذلك يكفى الاشتراكيين لبلوغ السيادة والسيطرة - ولكن الواقع الراهن خلف الدعايات الكاذبة، كان يخفى حيناً، ويظهر حيناً، فيفتضح الاشتراكيون، ويتوسلون لتغطيتها بالمبررات الملفقة، ولكن الرأسمالية لا تستأصل جذورها في الحكم الاشتراكي. ولقد صرح لينين بأن التجارة والرأسمالية مسموح بهما اليوم بصورة خاصة، نظراً لتأخر البلاد.(1)

وحتى اليوم نجدهم يرددون نفس النغمة، معترفين: (... وأخيراً تبقى في النظام الاشتراكي رواسب من الرأسمالية.. أما في النظام الشيوعي فستزول جميع رواسب الرأسمالية(2).

والاشتراكية لم بعد تتحقق في جميع البلدان الشرقية، فكيف بالشيوعية؟ كما يصرح بذلك خروشوف: (لقد دخلت بعض بلدان الديمقراطية الشعبية مرحلة إنجاز بناء الاشتراكية(3). أما سائر البلدان فأنها لم تبلغ بعد مرحلة الاشتراكية،

ص: 205

1- (1) لينين (حول دور النقابات ومهماتها) ص 6.

2- (2) (الاتحاد السوفيتي في مائة سؤال وجواب) الطبعة الثانية ص 138.

3- (3) خروشوف (الارقام التوجيهية..) ص 97 ط موسكو.

ورواسب الرأسمالية لا تزول إلا إذا اكتمل بناء الشيوعية.

فأذن لا تزول رواسب الرأسمالية بسرعة، وإنما هي باقية حتى الآن وستبقى مدة أخرى من الزمان، أما موعد زوالها فهو شيء لا يعينه تقويم، ولن تأتي فجئة. (1)

وبعد ذلك فمن الصين أن يصرح ما ونسى تونغ بأن فكرة الكولجوزات فكرة بورجوازية:

(... ولذا فإن اقتراح الارض للفلاحين ليس إلا اقتراحا بورجوازيا ديموقراطيا، وليس اقتراحا بروليتاريا اشتراكيا (2).

فالنظام الاشتراكي - إذن - ليس إلا صيغة ممسوخة للنظام الرأسمالي، او هو بعينه وسنفصل الان: ان جميع المآسى والمظالم التي انكرها الشيوعيون والاشتراكيون فى النظام الرأسمالي، ظلت سائدة - بأقسى مظاهرها - فى روسيا ومستعمراتها:

العطل:

فالعطل لا يزال موجودا فى ظل الاشتراكي، بكثرة هائلة والاعمال الموجودة لا تكفى لأشغال جميع الايدي، وإنما تستخدم كل عام عدد من الايدي العاطلة، تبعاً لتقدم الاقتصاد:

(ويزداد عدد العمال والمستخدمين فى الاتحاد السوفياتى كل سنة. ففى أواخر

ص: 206

1- (1) أنظر نفس المصدر ص 141.

2- (2) ما ونسى تونغ (الحكومة الاتحادية) ص 75.

عام 1950 كان فى الاقتصاد الوطنى من العمال والمستخدمين أكثر مما فى أواخر عام 1940 بسبعة ملايين وسبعمائة ألف وفى عام 1951 و 1952 إزداد عدد العمال والمستخدمين من جديد مقدار 2500 ر 000 (1).

(ستزداد للتوظيفات فى الزراعة مرتين بالنسبة لتوظيفات البرنامج الخامس الخماسى، و 14 مرة بالنسبة لتوظيفات البرنامج الخماسى الاول (2)).

ومن البين أن الشعب لم يزداد 14 مرة بين البرنامج الخماسى الاول والبرنامج الخماسى الخامس، وإن الذى كان هو أن واحداً من أربعة عشر شخصاً كان يعمل فى مشروع السنوات الخمس الاول، والثلاثة عشر شخصاً من كل أربعة عشر شخصاً، كانوا عاطلين عن العمل فى ذلك الوقت، ثم توفر لهم العمل فيما بعد.

ورغم ذلك كله فان اليوم يوجد فى البلاد الاشتراكية عدد خيالى من العاطلين، والنظام الاشتراكى يسعى لإيجاد الاعمال لهم: (.. أما الاصلاح الذى تسعى الاشتراكية إلى تحقيقه فى المجتمع الحاضر، فيمكن تلخيصه فيما يلى: 3000 - تحديد ساعات العمل للعمال، والاهتمام بهم، وإيجاد أعمال للذين بدون عمل (3)).

وقد أكد دعاة الاشتراكية أن: (.. فى عام 1953 شغل فى الاتحاد السوفياتى

ص: 207

1- (1) (الاتحاد السوفيتى فى مائة سؤال وجواب) ص 36.

2- (2) أنيسمون (الزراعة السوفيتية) ط موسكو ص 55.

3- (3) إبراهيم حداد (الاشتراكية العملية نشوؤها وتطورها) ص 70.

آخر عاطل من العمل، وابتداء من ذلك التاريخ لم يعد الاتحاد السوفياتي يعرف البطالة، وفي عام 1953 كان عدد العمال والمستخدمين 000 ر 800 ر 44، أى أكثر مما فى عام 1913 ب 28 مليوناً وفى برنامج السنوات الخمس الخامس: ل - 1951)... سيرتفع عدد العمال والمستخدمين مقدار 15 بالمائة(1).

وإذا لم يوجد عاطل فى البلاد الاشتراكية، فكيف يصح تفسير كلام خروشوف:

(... فى غضون السبع سنوات سيزداد عدد العمال والمستخدمين فى جميع فروع الاقتصاد الوطنى زيادة جديدة تبلغ زهاء 12 مليون شخص(2).

فهل هذا ال - 12 مليون شخص، وذلك ال - 15 بالمائة، ولدوا من جديد، واصبحوا عمالاً ومستخدمين؟ أم جىء بهم من خارج الحدود؟..

إنهم أولئك العاطلون الذين تغص بهم الشوارع، والمعتقلات، والسجون، ومجاهل سيبيريا، والذين يستخدمون تبعاً لحاجات الدولة، ويعطلون متى استغنت عنهم الدولة!

الفقر:

الذى هو أكبر جرائم الرأسمالية، والذى ثار الفقراء ضد النظام الرأسمالى للقضاء عليه، اصبح الطابع العام لشعوب روسيا ومستعمراتها وحتى لو كانت

ص: 208

-
- 1- (1) (الاتحاد السوفيتى فى مائة سؤال وجواب) ص 22.
 - 2- (2) خروشوف (الارقام التوجيهية...) ط موسكو ص 66.

فى المجتمع الرأسمالى طبقات ثلاثة: الطبقة المستغلة، والطبقة البورجوازية، والطبقة الفقيرة، ففى المجتمع الاشتراكى لا توجد إلا طبقتان الطبقة المستغلة الحاكمة: (الحزب الشيوعى)، والطبقة الكادحة الفقيرة: (مجموع الشعب).

وذلك ان مجموع الشعوب الاشتراكية يتألف من العمال والمستخدمين المسخرين للدولة، فليست لهم موارد سوى الاجور التى يستلمونها من الدولة ذاتها - بصورة البضائع أو النقود - والدولة توفر على الخزينة كل عام 7 ر 9 مليار روبل تقريباً(1) ومن البين ان الدولة الاشتراكية لا ياتىها هذا ال - 7 ر 9 مليار روبل من الخارج، اذ ليست لها تجارة خارجية مطلقاً فى بعض الاحيان، وحين تكون لها التجارة الخارجية تستورد اكثر مما تصدر فهذا ال - 7 ر 9 مليار روبل كل عام، انما يستخرج من افواه الشعب ومعنى ذلك: ان الشعب يخسر كل عام 7 ر 9 مليار روبل، لتتخم به الخزانة.

ذلك من جهة، ومن جهة اخرى، ان واردات الدولة الاشتراكية عام 1954 م كانت 5 ر 570 مليار روبل وهذه الواردات انما تتألف من الاموال التى تدفعها المؤسسات الصناعية، والنقلات، والمؤسسات التجارية الحكومية، والضرائب على رقم الاعمال، والرسوم على الارباح والضرائب الاهلية.

وهذا يعنى أن واردات الدولة الاشتراكية مجابة من الشعب فقط... فلننظر

ص:209

1- (1) - ذلك هو معدل زيادة الواردات على النفقات انظر: (الاتحاد السوفيتى فى مائة سؤال وجواب) الطبعة الثانية ص 28 نقلا عن برنامج ميزانية الدولة السوفياتية التى أقرها مجلس السوفيات الاعلى.

كذا من هذه الاموال: - التي انتزعت من الشعب بالصورة الشرعية، وغير الشرعية - عاد الى الشعب فى نفس العام؟.

إن مجموع النفقات المنصوص عليها فى ميزانية عام 1954 م يبلغ 8 ر 562 مليار روبل، والباقي من الواردات ارسد للخرينة، أما فصول تلك النفقات فهى كما يلى: 3 ر 216 مليار روبل ارسد لتوظيفه فى الاقتصاد الوطنى، و 3 ر 141 مليار روبل للتدابير الاجتماعية، و 2 ر 205 مليار روبل للقوات المسلحة والجوايس والمنظمات السرية... (1) فالمنخصص للاقتصاد هو الذى يعود الى الشعب، وهو لا يعدو 3 ر 216 مليار روبل، ومن المعلوم ان قسما وفيما منه يصرف فى تمكنة الاقتصاد أى فى جعل الاعمال الاقتصادية من الحرث والزرع، والنسج... بواسطة الادوات الميكانيكية.

من ذلك كله يستلخص ان الشعب دفع الى الدولة عام 1954 م 5 ر 572 مليار روبل، وعاد الى الشعب فى نفس العام قسم من 3 ر 216 مليار روبل.

على هذا الضوء نستطيع ان نعرف مدى الفقر الذى يصيب الشعوب الاشتراكية كل عام، ومدى رأسمالية الدولة الاشتراكية، وسلبها حقوق الشعوب، لتحقيق أهدافها الكافرة، وليكن الشعب بعد ذلك فقيرا! فإنه لا يهم الدولة بقدر ما تهمها اهدافها واطماعها... كما صرح بذلك ستالين عام 1951 م

ص:210

: (يجب ألا نغير افتقار المواطنين السوفيت الى وسائل الراحة المنزلية اى التفات.. فنحن لا نستطيع ان نقدم للسيدات الجوارب الحريرية، بينما نحن فى حاجة الى مدافع نستخدمها فى تحقيق اهدافنا(1)).

فكان الشعب انما يعمل لحساب الحكومة، حتى ليس له الحق فى استهلاك إنتاجه لمصالحه، بل الواجب أن تقدم حاجة الحكومة الى المدافع التى تحقق أهداف الشيوعية، فى استعمار العباد والبلاد، على حاجة المواطنين الى وسائل الراحة المنزلية!!.

على ضوء هذه النظرية يرسم مجلس السوفيت الاعلى برامج الاقتصاد الوطنى، التى تقدم مصالح السياسة - فى المجال الاقتصادى - على مصالح الشعب، وحاجاته الاساسية... ولا بد بعد ذلك ان يعم الفقر جميع مرافق الحياة الاقتصادية لمجموع الشعب.

وقد نجم من جراء ذلك فشل الحكومة - ذاتها - فى المجال الاقتصادى، حتى أنها نأثت بحمل الفرائض التى أوجبتها على نفسها:

قلة البضائع:

فقد أصبحت المطاعم أقل من حاجات الشعب، كما يعترف بها خروشوف: (... ومن الضرورى، أيها الرفاق، أن نشير إلى ما للمطاعم العامة من الأهمية الكبرى، فينبغى أن توسع لدرجة أكبر شبكة المطاعم.. لكيما يستطيع أفراد

ص: 211

عائلات الشغيلة الاستفادة من هذه المطاعم(1)..).

من ذلك نعلم: أن افراد عائلات الشغيلة - فى الوقت الحاضر - لا تستطيع الاستفادة من المطاعم، حتى أن خروشوف يهيب برفاقه: أن يوسعوا شبكة المطاعم كى تستطيع أفراد عائلات الشغيلة، الاستفادة منها...

ومن الطبيعى أن تقصر البضائع عن إشباع حاجات الشعب، إذا كثر العطل، وقل العاملون، وضئل استنفاد الطاقات ومنابع الثروة الكامنة فى الاراضى الاشتراكية.

وقبل كل شىء يجب أن نعلم: أن العطل السائد على شعوب روسيا ومستعمراتها، يسبب قلة البضائع إلى درجة بعيدة، فأن عدد سكان روسيا ومستعمراتها ينوف على 200 مليون نسمة. أما العمال والمستخدمون منهم - فى الوقت الحاضر - لا يزيدون على 54 مليون نسمة. كما نعرف ذلك من تصريح خروشوف: (فى غضون السبع سنوات سيزداد عدد العمال والمستخدمين فى جميع فروع الاقتصاد الوطنى، زيادة جديدة، تبلغ 12. مليون شخص، وسيزيد عدد العمال والمستخدمين بالمجموع على 66 مليون و 500 ألف شخص(2)).

فعدد العمال والمستخدمين، إذا اضيف اليه 12 مليون يبلغ 66 مليون فهو الاين 54... وحتى لو وفى خروشوف بما وعد، وأصبح عدد العمال والمستخدمين

ص:212

1- (1) خروشوف (الارقام التوجيهية...) ص 73 ط موسكو.

2- (2) نفس المصدر ص 66.

66 مليون شخص، فان هذا العدد لا يكفي لا اعداد البضائع الكافية لا شباع حاجات الشعب، البالغ عدده 200 مليون - على أقل تقدير - ثم ان 66 مليون شخص ليسوا عمالا- وفلاحين وإنما فيهم عدد كبير من المستخدمين الذين لا يعملون فى الانتاج، وإنما هم موظفون الذين يشغلون الدوائر وبعد ذلك كم يكون عدد العمال والفلاحين؟ بطبيعة الحال يكون أقل من 50 مليون شخص ومعلوم أن هؤلاء العمال، لا يعملون - جميعا - فى إنتاج البضائع وإنما يعمل قسم كبير منهم فى إنتاج المعامل، والمكائن والاسلحة البحرية والجوية... وبعد إخراج هؤلاء، كم ذا يكون عدد العمال المنتجين للبضائع.؟ إن عددهم يكون ضئيلا وضئيلا جداً... ومن الطبيعى - بعد ذلك كله - أن تقصر البضائع المنتجة عن إشباع مجموع حاجات الشعب.. وإنما نجد خروشوف يعترف بمدى تأخر روسيا ومستعمراتها فى المجال الاقتصادى، عن مستوى الولايات المتحدة، كشيء طبيعى يأبى الجحود والانكار، وذلك فى مجالى الانتاج الصناعى والزراعى: (- يؤلف الانتاج الصناعى الاجمالى فى الاتحاد السوفييتى تقريبا نصف الانتاج الصناعى فى الولايات المتحدة الامريكية، ويؤلف الانتاج الزراعى الاجمالى فى الاتحاد السوفييتى حوالى 75-80 فى المائة من الانتاج الزراعى الاجمالى فى الولايات المتحدة الامريكية).

(- ومن حيث الانتاج الصناعى بالنسبة لكل نسمة من السكان تتفوق الولايات المتحدة على الاتحاد السوفييتى بما يزيد على 100 فى المائة وتتفوق من

حيث الانتاج الزراعى بما يقرب من 40 فى المائة(1) والواقع ان هذا التصريح يدلنا على مدى الانهيار الاقتصادى فى الحياة الاشتراكية، حتى ان رئيس الدولة الاشتراكية، يهتف فى مؤتمر الحزب الشيوعى: (ومن حيث الانتاج الصناعى بالنسبة لكل نسمة من السكان تتفوق الولايات المتحدة على الاتحاد السوفييتى بما يزيد على 100 فى المائة.) أى ان معدل انتاج البلاد الاشتراكية أقل من الصفر بالنسبة الى الولايات المتحدة التى تسودها الرأسمالية الفاسدة، والتى ينقم عليها الشيوعيون.

وعلى هذا الحساب فالاشتراكية أقل من الصفر فى مقابل الرأسمالية الفاسدة، وهنا نعرف مدى فساد الاشتراكية وبعدها عن صلاحيتها للحكم والسيادة.

كما ان هذا التصريح ينص على ان الولايات المتحدة تتفوق على البلاد الاشتراكية من حيث حجم الانتاج الزراعى، بما يقرب من 40 فى المائة واذا علمنا ان فى الولايات المتحدة ينتحر الكثيرون لينقذوا انفسهم من الم الجوع، عرفنا مدى شيوع الفقر وقلة البضائع فى البلاد الاشتراكية.

فهناك الفقر، وقلة البضائع، تجتاحان الملايين، ويعجز النظام الاشتراكى عن اشباع الحاجات الاساسية لجميع أفراد الشعب، حتى ان من المستبعد إمكان تحقق ذلك فى ظل النظام الاشتراكى، على ما يقرره الرفاق انفسهم، غير ان خروشوف يهب ليقول: إن ذلك ممكن فى المستقبل: (... فهل لا يزال بعيدا ذلك

ص:214

1- (1) نفس المصدر ص 91.

الوقت الذى يمكن فيه تلبية حاجات جميع السوفيتيين؟...

لا ريب ابدأ فى أنه سيكون من الممكن فى مستقبل قريب تلبية حاجات جميع السوفيتيين كلياً الى الطعام واللباس والمسكن ضمن حدود المعقول والضرورى.. يقينا اننا حين نتحدث عن تلبية حاجات الناس، لا نقصد الالهواء، أو حب أشياء الترف(1).

وهذا اعتراف بأن البضائع - فى الوقت الحاضر - لا تكفى لسد الحاجات الضرورية، لجميع الافراد، وإنما تتضارب الاراء حول إمكان ذلك فى المستقبل، أو عدم إمكانه مطلقاً.

وسوف لا- يدهشنا هذا الانحطاط الهائل فى الاقتصاد الوطنى إذا علمنا: أن عدد العمال ضئيل جداً بالنسبة الى مجموع الشعب، وأن الاراضى الشاسعة المترامية الاطراف ظلت حتى اليوم قاحلة جرداء، دون أن تخصصها يد زارع، وأن المناجم والمعادن الفياضة لا تزال حتى الان دفينة فى التراب، وأن هذه الكمية الضئيلة من البضائع التى تستحصل لا تفرق على الشعب، وإنما يدخر قسم منها من عام الى اخر، إعداداً للشوعية

قلة المساكن:

ولقد أعلن النظام الاشتراكى عجزه عن تلبية حاجات الشعب بالنسبة إلى المساكن، رغم أن العائلات لا تنفرد بالبيوت، بل نجد فى كل شقة عائلة أو أكثر،

ص:215

كما يهتف بذلك خروشوف: (... إنه مهما اتسع نطاق إشغال بناء المساكن، فإن الحاجة إلى أبنية السكن تكاد لا تنقص (1)).

لذلك اعتمد الحزب الشيوعي إلى صد انهماق القاطنين فى القرى والارياف على المدن، عليها تفلح بذلك فى إعداد الكمية الكافية من البيوت للمقيمين فى المدن فقط... ولكن ذلك وحده غير ناجح فى معالجة هذه المشكلة، فأن الانهيار الذاتى فى الاقتصاد الاشتراكى يحجزه عن تقدير الاعتمادات الكافلة لسد الحاجات الضرورية إلى المسكن بل لا بد من أن تبني العمال لا نفسها البيوت الفردية. على ما يصرح به خروشوف: (... وإذا أفلحنا فى صد تدفق سكان المدن الاخرى على المدن الكبيرة فاننا سنؤمن حاجات سكان المدن سريعاً فيما يتعلق بالمساكن... وينبغى إنماء أعمال البناء الفردى، ومساعدة العمال والمستخدمين فى بناء مساكن لأنفسهم على نفقتهم (2) أما المتدفقون على المدن الكبيرة، فلن ينالوا نصيبهم من المنازل - على أى حال -.

قلة الاعتمادات العامة:

لقد تعالت اصوات الرفاق ناقلين على قصور النظام الاشتراكى، عن تخصيص الاعتمادات الكافية للحاجات العامة، وهناك ينبرى خروشوف ليهدأ اعصابهم، او يخفت اصواتهم منادياً فيهم: (يشكو بعض الرفاق من ان النظام ما يزال غير كاف فى تخصيص اعتمادات التعليم والصحة وبناء المساكن،

ص: 216

1- (1) خروشوف (بيان اللجنة المركزية الشيوعى فى المؤتمر العشرين) ص 124.

2- (2) نفس المصدر ص 124.

والمؤسسات الاجتماعية، والتجميل إلخ... (1).

ولا- تكشف شكاوى الرفاق إلا- عن فراغ هائل فى الاعتمادات وثورة مكبوبة فى جميع الاوساط، ولكن خروشوف - كعادته - يعدهم ويمنيهم وما يعدهم خروشوف إلا غروراً قاتلاً: (... لا يقتضى لنا وقت طويل) لكى... نضمن لجميع الاطفال الاماكن فى دور الحضانة ورياض الاطفال، والمدارس الداخلية.. (2).

فالفر هو الطابع العام، والمشكلة السائدة، فى جميع مرافق الحياة الاقتصادية، سواء فى ذلك الاوساط الشعبية والحكومية، الفردية منها والاجتماعية. ما عدى الحزب الشيوعى، والاسلحة الحربية، فان الحزب الشيوعى يعيش كما يعيش المترفون من الرجال المالىين الكبار، والاسلحة الحربية التى وجدت للقضاء على السلام العالمى، ولأجل استعمار العالم كله، تستنفد اوفر الحظوظ، واوسع كمية من الثروات، والطاقت، والجهود، والخدمات.

الطبقات:

ان اعظم مقومات الرأسمالية يتمثل فى نظام الطبقات الجائرة، وحتى اليوم يثير الاشتراكيون حربا شعواء ضد الطبقات. ورغم ذلك نجد سلم الطبقات، يشكل النظام والحكم، فى روسيا ومستعمراتها. والطبقات توجد فى النظام

ص:217

1- (1) نفس المصدر ص 139.

2- (2) خروشوف (الارقام التوجيهية...) ص 142.

الاشتراكي كشيء طبيعي لذات النظام: (في الاشتراكية تبقى الطبقات الكادحة: العمال والفلاحون، وكذلك المثقفون، وتبقى ايضا الصفات التي تميز بعضها عن بعض(1)).

فالقادة المنظمون في الحزب يتربعون على الذروة، وتتوالى بعده طبقات الحزب نفسه - ذلك العملاق الكبير المفضل على الناس اجمعين -، ثم طبقات الشعب. وحتى من العمال تتكون طبقات مختلفة الاجور فهناك الفئات الدينية الواطئة الأجور، والفئات العليا الضخمة الراتب كما نجدها في خطاب خروشوف:

(ان لجنة الحزب المركزية، ومجلس وزراء الاتحاد السوفياتي، يتخذان تدابير من اجل تنظيم معاشات التقاعد، والتعويضات بحيث تزداد فئات معاشات الدينية بقدر محسوس، وتخفف المعاشات المفرطة نوعا ما(2)).

فالرواتب تتصاعد كلما تدرجت الطبقات، فالحزب الشيوعي له رواتبه المفرطة، المختلفة تبعا لاختلاف الافراد في مدى اخلاصهم لقائد الكرملين، وتتلوه النقابات، ثم المخترعون(3).

ثم الاختصاصيون الفنيون ثم المعلمون(4)..

ص:218

1- (1) (الاتحاد السوفيتي في مائة سؤال وجواب) ص 137.

2- (2) خروشوف (بيان اللجنة المركزية الشيوعية في المؤتمر العشرين) ص 121.

3- (3) انظر: (الاتحاد السوفيتي في مائة سؤال وجواب) الطبعة الثانية ص 92-93.

4- (4) نفس المصدر ص 41.

اما العمال والفلاحون الذين دارت الثورة باسمهم وعلى اكتافهم، فهم الملايين الذين يجمعهم الفقر والشظف، والحرمان...

وبعد ذلك فهناك طبقات توزع العمال والفلاحين:

(نعم ان فى الاتحاد السوفياتى طبقات اجتماعية... لقد بين احصاء عام 1939: ان 7,49 بالمئة من سكان الاتحاد السوفياتى هم من العمال والمستخدمين وعائلاتهم، وان 47 بالمئة تقريبا هم من الفلاحين الكولخوزيين واصحاب الحرف المجتمعين فى تعاونيات، اما الفلاحون الفرديون واصحاب الحرف الفرديون فكانوا يشكلون (مع عائلاتهم) 5 ر 2 بالمئة من السكان(1).[\(2\)](#).[\(3\)](#)).

الربا:

ان اكبر ركائز الرأسمالية، وقواعده ومقوماته، هو الربا. وهو اقوى مظاهر الاستغلال، ورغم ذلك كله فالنظام الاشتراكى يقرر الربا ويعترف به، ويأخذه ويعطيه، والدولة الاشتراكية تمنح الربا الى المقرضين بصورة الربا، وبصورة

ص:219

1- (1) نفس المصدر 17-18.

2- (2) بقى هناك قسم آخر يبلغ 8 بالمئة لم يذكر لهم عمل. أكثر الظن أنهم العاطلون!

3- (3) ان ذلك كذب مفضوح فلقد نقلنا كلام خروشوف - أنفا - الذى يدل على ان مجموع العمال والمستخدمين فى الوقت الحاضر لا يعدو 54 مليون فكيف اصبحوا الآن 92 من السكان. ثم اين ذهب الجيش بملايينه المكدسة على الحدود والفلوات؟ واين اختفى الموظفون والكتاب والمخترعون، والمخرجون... الذين يعدهم نفس المصدر بالملايين؟ فراجع ص 92 و 101 و 114.

(... ففى مدة برنامج السنوات الخمس بعد الحرب 1946-1950 دفعت الدولة الى الاهلين 17 مليار روبل جوائز وفوائد، وفى عام 1953 نال الاهلون بشكل جوائز 9 مليارات و 800 مليون روبل(1).

فالدولة تأخذ ما لدى الشعب من روافد - خصوصا فى الازمات الاقتصادية والسياسية - لكى يبقى الشعب فى مستوى واحد من الفقر والحرمان سواء منهم يملك شيئا من النقود ومن لا يملك شيئا. ثم يمنحهم الربا على اقراضهم الدولة...

كما ان الدولة تأخذ الربا من افراد الشعب الذين يقترضون الكميات المحددة لمصالح معينة، فى الاوقات الخاصة. نعرف ذلك من تعاليم ومخططات ماوتسى تونغ: (- تقليل الإيجار والفائدة... ومنح قروض صغيرة الفائدة الى الفلاحين الفقراء(2).

أما كمية اقصى القروض، ومقدار الفائدة، فيقال عنهما: (ثم ان العمال والمستخدمين الذين يرغبون فى بناء مسكن لانفسهم ينالون من الدولة قطعة ارض مجانا. كما ان بنك الدولة يمنح هؤلاء، بطلب من الادارة والنقابة، قروضا طويلة الاجل، من (500) الى (1000) روبل قابل للوفاء فى خمس او عشر

ص:220

1- (1) نفس المصدر ص 98.

2- (2) ماوتسى تونغ (الحكومة الاتحادية) ص 58 تحت عنوان: (برنامجنا الخاص).

سنيين، وبشروط متساهلة، بفائدة 2 بالمئة فى السنة(1).

فالربا مشروع فى النظام الاشتراكى، ولكن المحظور هناك شىء واحد، هو ان يأخذ الربا واحد من افراد الشعب(2) بل اللازم ان ترتكب الدولة وحدها جميع ألوان الاستغلال والاستعباد.

اضطهاد العمال:

لا- تختلف حياة العمال فى روسيا ومستعمراتها، عن حياتهم فى الدولة الرأسمالية الا فى شىء واحد، هو ان العمال فى ظل النظام الرأسمالى يتمتعون بكافة الحريات المضمونة، فهم ينعمون بحرية العمل لهذا أو ذاك او الاستقلال بالعمل لانفسهم، او ترك العمل مطلقا - متى وجدوا لديهم ثروة كافية تعيلهم، وتغنيهم عن تحمل ارهاق العمل فى سبيل البقاء كما ينالون حرية اختيار أى عمل شاءوا، وحرية الاضراب، والاحتجاج والمظاهرة، وتكوين الاحزاب التى يريدونها، وتشكيل النقابات والغائها واما العامل فى روسيا ومستعمراتها فمسخر مرغم على العمل، وای نوع تختاره الدولة له من الاعمال، وفى أى مكان تحدده الدولة(3) دون ان تكون له حرية الاحتجاج، او الاضراب، او المظاهرة، او تكوين الاحزاب - فهناك حزب واحد لا يسمح لغيره ابدأ - او الحرية فى

ص:221

1- (1) (الاتحاد السوفيتى فى مائة سؤال وجواب) الطبعة الثانية ص 43.

2- (2) نفس المصدر ص 43.

3- (3) انظر (النظام الشيوعى) 64-69.

انتخاب النقابات ورؤسائها، فانهم يرشحون وينتخبون من قبل الحزب الشيوعى بالتركية.

الاجور:

وليس للعمال الحق فى تحديد الاجور، او المناقشة حولها، وانما تحدده النقابات: (وفى كل فرع من فروع الصناعة جدول للاجور تشترك النقابات فى وضعه، وتوافق الحكومة عليه، وهو عبارة عن توزيع للتعريفات، ومقادير الاجور... اما اجر العمال والمستخدمين المحدود، فيقرر حسب التعرفة(1)).

وتجرى هذه التحديدات الاجور، تبعا لساعات العمل، ومعدل الانتاج، فى الاعمال اليومية، المحددة بالساعات وهناك ثلاثة انواع اخرى للاجور هي:

1 - الاجر اليومى المحدود على العمل المعين، مع الجوائز على تعدى البرنامج الخاص، والزيادة عليه زيادة بارزة، وهذا هو الضرب الاول باضافة الجائزة على ازدياد كمية الانتاج.(2)

2 - الاجر على القطعة، وذلك بتقدير تكنيكية العمل: (الوقت اللازم لصنع كل قطعة) ويقوم هذا التقدير على اساس صارم، وعلى تقرير المعدلات لمدة سنة(3).

ص:222

1- (1) (الاتحاد السوفيتى فى مائة سؤال وجواب) ص 91.

2- (2) نفس المصدر ص 90

3- (3) ص 90.

3 - الاجر التصاعدي على القطعة، وهي تجمع بين الاجر على القطعة والاجر مع الجوائز، وفي هذا الحال ينال العامل الذي ينتج أكثر من المعدل، اجراً يحسب على اساس تصاعدي. وهذا النظام يطبق عادة على الصناعات الرئيسية. (1)

والاجور - في هذه الاشكال ايضا - تكون اجبارية تحددها النقابات، وتوافق عليها الحكومة، اما العمال فليس لهم الحق في المطالبة بأجور اكثر مما تحددها الدولة.

دوام العمل:

اما ساعات العمل - في القسم الاول - فيتراوح بين الثمانية ساعات واكثر. وأما الذين يعملون تحت الارض فلا يقل عملهم اليومي عن السبع ساعات، وهذا التقدير يوافق أقصى مدة الاعمال التي يفرضها الرأسماليون على العمال والمستخدمين. نعرف هذا التحديد في ساعات العمل من وعود خروشوف عندما قال: (وقد نص مشروع الارقام التوجيهية على ان ينجز في سنة 1960 م تخفيض.. يوم عمل العمال والمستخدمين الى سبع ساعات، وتخفيض يوم عمل العمال الذين يعملون تحت الارض، المهن الرئيسية، في صناعات استخراج الفحم والمعادن الى ست ساعات).

ذلك في الاجر اليومي، اما في الاجر على القطعة، والاجر التصاعدي على

ص:223

1- (1) ص 91.

القطعة، فيوم العمل غير محدد فيهما، وعلى العامل ان يستنفد طاقته وجهوده، بدافع الخوف حيناً، والرجاء حيناً آخر، وقد وضع هذان القسمان من الاجر لغرض اعتبار ساعات العمل، ثم ان تقرير الجوائز فى القسم الاول لمن تعدى المقدار المحدد من الانتاج، يدلنا على ان تقدير ساعات يوم العمل، ليس الا لتحديد اقل ساعات يوم العمل، خلاف ما هو موجود فى البلاد الرأسمالية.

اعمال فادحة:

وليست الاعمال فى روسيا ومستعمراتها، الا اعمالا تكنولوجية قاسية، تتطلب مزيدا من الدقة والانتباه، اضافة على ان تقدير الاعمال يكون - دائما - بصورة مرهقة باهضة، فالعامل فى روسيا ومستعمراتها، يجب ان يركض بسرعة تعادل أربعة اضعاف سرعة العامل فى الولايات المتحدة(1) واذا كان العامل فى الولايات المتحدة مرهقا متوتر القوى والاعصاب فماذا يبلغ من النصب بعامل يجب ان يركض بسرعة تعادل أربعة اضعاف سرعته.

استخدام النساء والاطفال:

ان النظام الاشتراكى يستخدم النساء والاطفال، كاستخدام الاماء والعبيد... ومن العجيب جداً ان الشيوعيين والاشتراكيين يوجهون دعايتهم ضد النظام الرأسمالى، بحجة انه يستخدم النساء والاطفال، وعندما ننظر فى نظامهم الشيوعى او الاشتراكى، نجدهم يستخدمون النساء والاطفال - ايضا - أليس

ص:224

1- (1) خروشوف (الارقام التوجيهية...) ص 72 ط موسكو.

هذا هو التناقض المريب؟

ولقد كان استخدام النظام الرأسمالي للنساء والاطفال، يعنى انه كان يسمح بذلك، والرأسماليون كانوا لا يسخون بأموالهم الا ازاء العمل دون ان يفرقوا بين الرجال والنساء والاطفال، اما النظام الاشتراكى فانه يقهر النساء والاطفال على العمل، حتى لو استعصى واحد منهم. اعتبر هذا ما يجب مؤاخذته وتعريضه للعقاب.

النقابات ضد العمال:

إن من طبيعة النقابات ان توجد لحماية مصالح العمال، وردء المظالم والضربات الموجهة إليهم، ولكن النقابات فى روسيا ومستعمراتها ليست إلا شبكة من شبكات الحزب، ودوائر حكومية متغلغلة فى اعماق الحركات العمالية، ومسيطرة عليها، لتكون اقدر على استعبادها.. كما صرح بذلك ستالين عام 1933: (يجب ان يكون مفهوما ان نقابات العمال لا- تعمل لحساب العامل باعتباره عاملا، وإنما تعمل لحساب العمال باعتبارهم ادوات من ادوات الانتاج... ولهذا فأن هذه النقابات لا- تحمى مصالح العمال التى تتعارض مع مصالح الحزب(1)).

فالنقابات يجب ان تعتبر العمال من ادوات الانتاج، وتعمل لحساب الحركة العمالية: الشيوعية، بهذا المقياس. كما يجب ان تعرف النقابات موقفها من العمال

ص:225

1- (1) لقدم التصريح به من خروشوف (الارقام التوجيهية...) ص 92.

ومن الحزب، فهي ليست إلا فصيلة عن الحزب، يكونها الحزب، ويختار قاداته لتكون جهازا تابعا مساعدا له، وهذا ما نادى به ستالين عام 1933: (دعوني اوضح بصراحة: ان نقابات العمال هي اجهزة تابعة لأجهزة الحزب... ويجب ان يكون مفهوما: ان الحزب هو الذى يختار قادة النقابات، لأن فروع النقابات داخل الحزب هي المسؤولة عن هذه النقابات(1)).

فالنقابات عملت وفق مؤامرة رئيسها ستالين، ووقفت من العمال موقف العدو المتربص، فكانت الحكومة تحتسى دماء العمال - كالعلق - وكانت النقابات هي الاخرى، التى تكونت باسم الصديق، وتكشفت عن عدو لدود...

لهذه العوامل كلها ظل العمال يرزحون تحت كابوس الفقر ونير الاستعباد، دون ان يطيقوا الدفاع عن انفسهم بشطر كلمة، لأن النقابات تملك الصلاحيات الكاملة لكبت الاصوات المعارضة، بما تراه صالحا لخنق الصوت المناوء.

اهمال العجزة:

والنظام الاشتراكى لا يختلف عن النظام الرأسمالى فى إهمال العجزة وعدم الاهتمام بهم، حتى يلقيهم الموت جوعا وعريا، على ما نطق به ستالين عام 1936 م: (جرت العادة فى وقتنا هذا على إهمال شأن الضعفاء، وعدم الاهتمام بهم. فالاهتمام كله مقصور على الاقوياء وحدهم(2)).

ص:226

1- (1) (النظام الشيوعى) ص 48.

2- (2) (النظام الشيوعى) ص 19.

وحتى ان الكولخوزات التي تخرج من فائض انتاجها الضمانات الاجتماعية، دون ان تنفق الحكومة شيئاً عليها، يمتنع ستالين عن ان يتكفل صندوق الضمانات الاجتماعية إعالة العجزة، مع انها لا تعود الى الدولة بخسارة، فكان النظام الاشتراكي يأبى ان يعيش الا من يكون مطية خاضعة. وذلك في تصريحه عام 1936 م: (يجب ان يكون مفهوماً: ان نظام المزارع الجماعية. لا يعنى مجرد احتكار الدولة لكل مصادر الانتاج الزراعى فحسب بل يعنى ايضاً: جعل العمل شرطاً اساسياً للحصول على لقمة العيش... فنحن لا نقيم المزارع الجماعية لنطعم المتطفلين(1)).

رأس المال والربح الناتج منه:

إن النظام الرأسمالي يتكون من هذين العنصرين: رأس المال والربح الناتج منه. وجميع انتقادات ماركس وسائر الشيوعيين والاشتراكيين تنصب على رأس المال، والربح الناتج منه، لا غير حتى لو فرض نظام لم يكن فيه وجود لرأس المال والربح الناتج منه لما كان للشيوعيين والاشتراكيين فيه مجال للنقد والنقاش... ولكن المدهش جداً ان نرى النظام الاشتراكي يقرر رأس المال والربح الناتج في اجلى واقسى مظاهرها اما رأس المال فلأن هناك الاموال كلها بيد الدولة إلا ما يدفعها من الاجور الى العمال كما ان وسائل الاستثمار كلها ملك للدولة، كالمعامل والمصانع والمكائن، والالات، والاراضى، و.... والدولة تستثمر هذه

ص: 227

1- (1) نفس المصدر ص 47.

الاموال والاعيان فتوظفها فى شتى المشاريع والمتاجر، وتقوم بالتجارة الداخلية والخارجية(1) فتستورد من الخارج الوان البضائع والخامات كما تشتري من الكولخوزات بضائعها الفائضة عن حاجاتها ثم تبيع تلك إلى البلدان الخارج، وإلى افراد شعوب روسيا ومستعمراتها، فالاستيراد والتجارة موجودتان فى النظام الاشتراكى، وهما لا يكونان إلا بواسطة رأس المال، فرأس المال موجود فى النظام الاشتراكى.

وأما وجود الربح الناتج من رأس المال فى النظام الاشتراكى فلأن الدولة تستورد البضائع من الخارج بأسعار معينة، أو تشتريها من أصحاب الكولخوزات، بما تقدر لها من اسعار... ثم تبيع نفس هذه البضائع بأثمان خيالية باهضة حسب ما يقدرها جشع الدولة ف-: (إن أسعار البضائع الموحدة فى الاتحاد السوفياتى تضعها هيئات برنامج الدولة، ثم تصادق عليها الحكومة(2).

من هنا تنشأ مضاعفات الارباح الخيالية، كما ليست موجودة فى النظام الرأسمالى، لأن التجار لا يستطيعون أن يطيشوا فى تقدير الارباح لأن التنافس الحر يوقفهم عند الحد العادل - نسبيًا - ولكن فى روسيا ومستعمراتها حيث لا يوجد إلا تاجر واحد: هو الدولة فباستطاعته أن ينطلق فى استغلال حاجة الناس الى ما فى يديها من البضائع، بتقدير أفدح الاسعار، وليست هناك تجارة

ص:228

1- (1) إقرأ (الاتحاد السوفيتى فى مائة سؤال وجواب) ط 2 ص 72-75.

2- (2) نفس المصدر ص 100. وللمزيد انظر المصدر ص 98-100.

وهذا الربح هو الذى عزفه ماركس باللصوصية، أصبح الان جزءاً لا يتجزأ من النظام الاشتراكى، وهذا اكبر دليل على رأسمالية النظام الاشتراكى، رغم أنهم يعتبرونه نظاماً مناوئاً للرأسمالية.

ولكن هناك اختلاف بين هذين النظامين فى نقطة واحدة، هى أن الرأسماليون فى ظل النظام الرأسمالى كثيرون متنافسون فيما بينهم، وفى النظام الاشتراكى لا يوجد إلا رأسمالى كبير، هو وحده يرتكب جميع المظالم، ويترك للتاريخ أساطير مفعمة بالدماء والدموع، دون أن تستطيع أية قوة مناوئة تحديد جرائمه وسيئاته....

استثمار الانسان للانسان:

طالما رفع الاشتراكيون عقيرتهم المتخترسة بالنقد اللاذع البذء للنظام الرأسمالى، بحجة أنه يسمح باستثمار الانسان للانسان، وذلك صاحب المعمل حيث يستخدم العمال، ولا يوزع عليهم مجموع الانتاج، بل يقسم الانتاج بين نفسه وبينهم، فهو يستثمرهم، ويضطهدهم فى ذلك القسم الذى يستأثر به.

ص: 229

1- (1) لست احاول بهذا الكلام ان اسجل العدالة للنظام الرأسمالى، فقد اتفقنا: انا وانت على فساد الرأسمالية، وقفنا على اخطائها واطارها ولكن الحقيقة التى اشرحها الان، هى ان النظام الاشتراكى ليس إلا صيغة اخرى للنظام الرأسمالى، غير انها صيغة جديدة متطورة، متناهية فى القسوة والصلف والاستغلال.

وعندما تحكّم الاشتراكيون على روسيا ومستعمراتها، جعلوا يتبجحون ب - : أننا حررنا العمال من الاستغلال والاستثمار، وسوف لا يستطيع إنسان أن يستثمر إنسانا - فى ظل النظام الاشتراكى...

ومن المدهش جداً: أن الاشتراكيون - فى نفس الوقت - يقومون بأوسع الاستغلال والاستثمار، فالحكومة الاشتراكية تستثمر مجموع الشعب لمصالحها الخاصة، ولا تدع أى فرد يهرب من هذا الاستثمار الشامل لأنها تقهر الجميع وتسخره للعمل وفق برامجها الخاص بما تقدر من الاجور حتى الكولخوزات، والحرفيون، والفلاحون الفرديون، الذين عجز النظام عن إخضاعهم الكامل للدستور، والذين يعتبرون متحررين - نسبياً - ألفتهم الحكومة، تحت نظام التعاونيات والنقابات، إلى الرضوخ للاستثمار الحكومى، كى لا يختلفوا عن العمال والفلاحين المأجورين.

فالاستثمار العام الشامل هو النظام الوحيد، الذى تعيشها شعوب روسيا ومستعمراتها. ولكن الحكومة حيث تحاول أن تستثمر - وحدها - مجموع الجهود والخدمات، تمنع بكل صرامة أن يستثمر إنسان من أفراد الشعب إنسانا اخر، على سبيل تكافؤ الفرص، والجهد والجزاء...

الايجار:

ان هناك قوانين طبيعية لا يشذ عنها حتى المستثمرون والمضطهدون التزاما بحكم الطبيعة القوى الصارم، التى لا يخبو صوتها حتى فى الحالات الشاذة، فالانسان متى استعبد انسانا ليسخره فى مصالحه، فلا بد ان يضمن له القيام بحاجاته الاساسية، بان يلتزم بتسليم قوته، وملبسه، ومسكنه اليه... ولكن

ص:230

النظام الاشتراكى يتنمر حتى على هذه الحكومة، ويكفر بحاجات الانسان.. فهو عندما يقرر للعامل معدلا من الاجور، لا تضمن له غذائه الكامل الملائم، يطالبه بأجور المسكن - حسب ما تقدر الحكومة اجور المسكن - واليك النص التالى، الذى يشف عن القسوة والتقتير فى بيوت السكن:

(... يقضى القانون بان بدل الايجار يجب ان لا يزيد عن روبل 32 كوبيكا(1) على كل متر مربع واحد من المساحة القابلة للسكن... وهكذا فان اقصى حد لبذل ايجار من 35 الى 40 متراً مربعاً، يتراوح بين 46 و 53 روبلا فى الشهر(2).

اجور على الحاجات العامة:

كذلك ينكل النظام الاشتراكى عن تحمل الحاجات، وانما يوفرها للعمال و الفلاحين، وسائر المسخرين من افراد الشعب، شريطة ان يدفعوا الاجور، والا فالحكومة تأبى عن اسداء الخدمات للمواطنين، فحضانة الاطفال(3) وتربيتهم على الاباء(4) الا ان يدفعوا اجوراً باهضة رغم ان المرأة والرجل المسخران للعمل الاجبارى، لا يستطيعان ان يقوموا بحاجات الاطفال التى تستغرق الوقت الطويل... وحتى ان أى فرد التجئ الى دخول المصح لمرض او نقاهة، يجب عليه

ص:231

1- (1) الكوبيك جزء من فئة جزء من الروبل.

2- (2) (الاتحاد السوفيتى فى مائة سؤال وجواب) الطبعة الثانية ص 50.

3- (3) - اقرأ المصدر السابق 59.

4- (4) المصدر السابق 59.

ان يدفع السعر المقرر.(1)

الضرائب التصاعدية:

ثم.. وبعد ذلك كله.. لا تعفى سكان المساكن من الضرائب التصاعدية، بصورة جائزة ليس لها مثيل في دول العالم، وحتى هذه الضرائب المفروضة - حاليا - لا تسد جشع السادة المترفين فماوتسى تونغ - فى الاونة الاخيرة - يطلق هذا النداء: (- تأسيس جهاز تقدمى ينظم الضرائب(2)).

ومن المدهش: ان اسياى الكرمليين وعملائه يحقرون الضرائب الخيالية التى يجنونها من السكان.. وهذا خروشوف يقول: (... ان الوزن النسبى للضرائب التى تجبى من السكان، قد اصبح فى الوقت الحاضر ضئيلا لا يزيد على 7.8 فى المئة من واردات الميزانية(3)).

ويسير على خطة خروشوف فى تضليل الضرائب النص التالى: (... اما الضرائب التى يدفعها الاهلون، فليس لها الا دور ضئيل فى الميزانية: فهى لم تشكل الا 9.3 بالمئة من الواردات عام 1952 و 8.4 بالمئة عام 1953، 8 بالمئة عام 1954(4)).

ص:232

1- (1) انظر نفس المصدر ص 37.

2- (2) ماوتسى تونغ (الحكومة الاتحادية) ص 58 تحت عنوان (برنامجنا الخاص).

3- (3) خروشوف (الارقام التوجيهية...) طبعة موسكو ص 66.

4- (4) (الاتحاد السوفيتى فى مائة سؤال وجواب) الطبعة الثانية ص 28-29.

ماذا يريد هؤلاء؟ أيريدون ان تتألف ميزانية الواردات كلها من الضرائب؟ او يريدون ان يأخذوا مجموع الاجور التى يدفعونها الى الشعب بأسم الضرائب؟ ام ماذا يأملون؟.

ان فكرة جباية الضرائب فكرة مغلوبة بالذات، سواء أكانت فى النظام الرأسمالى، او الشيوعى او الاشتراكى، او اى نظام اخر!!

فالضرائب ليست الا- اموالا تغتصب من الناس بصورة رسمية قانونية ولا مبرر لها الا ان الدولة تملك القوة، والقوى له ان يفعل ما يشاء، وهذا المنطق لا- يشبه الا منطق ذلك اللص يشهر سلاحه فى وجوه الناس ليسلب اموالهم بالعنف والارهاب الا ان الناس روضوا على تحمل مظالم الحكومات حتى طمئنوا اليها، واذعنوا بها ثم استسلموا لها، دون ان يشعروا بوقوع الاضطهاد، ولم يتعودوا منطق اللص، او علموا: ان اللص ضعيف يستطيعون مقاومته، وتعريضه للعقاب، فثاروا ضده، ثم ان الضرائب لا تفرض على اجور العمال، والفلاحين والمستخدمين وانما الحكومات تتذرع بهذا السلاح فى نهب الاموال الوفيرة، والتجارات الضخمة، لا فى الدنيا رأوا الدرهم المرتعش فى يد الفقير العارى الهزيل.

وبعد هذا... فان ال - 8 بالمئة من ميزانية الواردات التى هى معدل الضرائب التصاعدية، ليست بالنزر اليسير - كما يصفها الشيوعيون، ليهونوا بذلك مظالمهم، واضطهادهم للشعب - وانما هى مصفى اعمار وجهود، وخدمات.

واننا نستطيع، ان نعرف مدى قسوة الضرائب هناك بالبيان التالى ان 8 بالمئة من ميزانية الواردات هى كمية الضرائب فى عام 1954 م (1) - ولنفرضها المقياس المعدل للضرائب، كل عام، على اقل تقدير - وميزانية الواردات فى نفس العام 572.5 مليار روبل (2) و 8 بالمئة من هذا العدد يربو 71.5 مليار روبل.. فهو اذن مجموع الضرائب فى ذلك العام. ومجموع الاموال التى ارصدتها الدولة، لتوظيفها فى الاقتصاد الوطنى، ذلك العام 216.2 مليار روبل (3) و 71.5 يقرب من ثلث 216.2.

من ذلك نستنتج ان ضرائب عام 1954 م كانت تساوى ثلث مجموع النفقات التى وزعت على جميع مشاريع الاقتصاد الوطنى... وهذه كمية جدا هائلة، لا نجد لها نظيراً فى اية دولة من دول العالم.. من ذلك كله نستنتج.. ان النظام الاشتراكى ليس الانواع من الرأسمالية، وهو اقصى انواع الرأسمالية، وان جميع التضاربات بين الرأسمالية والاشتراكية، ليست الا على الهدف الموحد، وهو الاستغلال والاستعباد، اما الكلمات الخلافة، والقوالب الجاهزة المغربية.. فليست الا حبال وشبكات لصيد الملايين من بنى الانسان.

هذه اشتراكية روسيا:

ذلك هو النظام الاشتراكى السائد فى روسيا ومستعمراتها، وتلك بعض

ص: 234

1- (1) نفس المصدر ص 29.

2- (2) نفس المصدر ص 28-29.

3- (3) نفس المصدر ص 28-29.

سيئاتها وجرائمها، او بعد الاحاطة بما سبق هل يروق لاحد ان يعيش فى جو يسوده هذا النظام؟؟ مع العلم: اننا لم نسجل جميع النقاط التى تلفت الانظار، وتبتهت المرء، وتحفزه الى التسائل: هل تقود المطاعم والاهواء، اناسا من اولاد ادم وحواء، الى ان يصبوا هذا السعير الفوار على رؤس الملايين من اخوانهم فى البشرية؟ ان هذه اعجوبة لم نجد لها مثيلا فى تاريخ الانسان، حتى ان الوحوش الهاصرة، وجوارح الطير، تأبى ان تضطهد اخوانها هذا الاضطهاد الدائم الاليم... الا ان البشر: هذا المخلوق الضعيف الجبار، لا يربو بنفسه ان ينزل الى ابعد من قرارة الوحش الضارى، فى سبيل مطامعه الوقتية الرخيصة، واهوائه الدنية القذرة.. ان هذا لشيء عجاب... والاعجب من هذا كله: ان نجد اناساً من السذج البسطاء، والمغفلين المعتوهين، او العملاء المأجورين، يطالبون باستيراد ذلك النظام، وتطبيقه على الملايين... والملايين... فى سبيل اللا-شىء ظانين: انهم يستطيعون العيش فى ذلك الجو الخائق القاتم، أرفه مما هم اليوم وهم لا يعلمون: انهم فى طليعة الذين تدرأ عنهم الرحمة، ويشملهم العذاب.

مناقشات على الاعقاب:

على انقاض الحديث يتسائلون:

1 - وإذا كانت الاشتراكية كما تصفون؟ فكيف استطاعت ان تهض بشعوبها الى هذا المستوى الرفيع فى الحقول العلمية، والصناعية، والاقتصادية، والحربية؟ رغم ما كانت عليه فى عهد قيصر من التأخر والجمود والانحطاط..؟ اذن فهذا الفضل كله يرجع الى صلاحية النظام

ص: 235

الاشتراكي، وامكاناته وطاقاته!!.

والجواب على هذا الكلام يأتي من وجوه:

أ- ان جميع البلاد كانت متأخرة في عهد قيصر، في المجالات العلمية، والصناعية، والاقتصادية والحربية. ثم تقدم العلم الحديث فسببت تقدم جميع البلاد، على حد سواء، ما عدى المستعمرات التي لم تكن تتمتع بالحكم الذاتي.

ب- ان ميزان النجاح والفشل، في دولة او نظام، ليس مجرد الارقام التي تحرزها الحكومة في داخل صندوقها، او الطاقات الحربية التي تعبئها في معسكراتها، ولكن المقياس الوحيد هو سعادة ابنائها، أو شقايتهم اذ ان الدولة شعب وافراد قبل ان تكون جيشاً وصندوقاً..

ومن السهولة بمكان ان تعتمد اية دولة الى تسخير شعبها تحت عصي القسر والاكراه، في شتى المجالات السياسية والاقتصادية، حتى تسبق سائر الدولة، في تلك المجالات، او تسلب اموال شعبه، كي يفيض صندوقه بين عشية وضحاها بالمال الوفير... ولا يكلفها ذلك الا قدرة على البطش وقوة على الظلم والاضطهاد...

ولكن الصعب ان توفر الدولة جميع الحريات، والوان السعادة لشعبها، وتضمن لنفسها التقدم والازدهار.

فالحكومة لم توجد لتلوك شعبها بين ماضيها، فتزداد سمناً وترها، وانما وجدت لتحمي مصالحه وحياته.

ص:236

ج - اننا لو اوزنا بين ما احرزته روسيا فى هذه السنين الاربعين الاخيرة من النجاح والتقدم وما رزقته بلاد اليابان، او المانيا، او امريكا، فى مثل هذه السنين الاربعين، من المكاسب والانتصارات، لرأينا ان روسيا لم تضرب اى رقم قياسى فى اى مجال، بالنسبة لكل نسمة من السكان.

2 - اذن لماذا تمعن حكومة روسيا فى الدعوة الى الشيوعية ونعيمها، وتتحمس للدفاع عنها، دون ان تعلن فشلها واستعصائها عن التطبيق؟؟.

والجواب: ان حكام روسيا لا يهدفون من وراء الشيوعية غير الاستيلاء العسكرى والسياسى على اكبر رقعة من العالم، او ربط البلاد بزمام التبعية لها - على اقل تقدير - كى يستطيعوا بذلك من استثمار البلاد الغنية، واستلاب خيراتها ونعيمها، ليوفروها على شهواتهم الجشعة الفاجرة، والسيطرة والسيادة منبثا الجائرين المفسدين الذين يريدون علوا فى الارض وفسادا..

والحكومة لو تعلن فشل النظام الشيوعى او الاشتراكى، لما استجاب لها احد، ولما استطاعوا من استعمار البلاد الاخرى، لذلك ظلوا محتفظين بعدة من الكلمات والالفاظ كى يستعبدوا بذلك الملايين...

كما ان مبادئ الشيوعية الماركسية بائت بالفشل الذريع، ورغم ذلك بقى حكام روسيا متعصبين لماركس ومبادئه، واستمروا فى المواعيد بان الشيوعية ستطبق، بالرغم من انهم حوروها وزيفوها، ثم القوا بها فى زاوية الاساطير والاهام واختلقوا مكانها النظرية الاشتراكية...

كل ذلك لان كل دولة كبيرة لها وسائل، منتزعة من صميمها تتوسل بها فى استعمار البلاد، والوسيلة التى تبنتها روسيا فى استعمار البلاد هى الوقوف الى جانب الفقراء، وترديد المبادئ الماركسية، والهتاف بالحريات والحقوق، والتهجم على الظلم والظالمين، والبورجوازية والرأسمالية... لذلك تحافظ على هذه الجمل والعبارات..

3-: واذا كان كذلك؟ فلماذا تندفع الجماهير، وتلبى هذا النداء الكذوب، وتنتشر الفكرة الشيوعية فى كل مكان، وكيف لا تقضح الدول الرأسمالية هذه الاكاذيب؟؟.

الجواب: اما الجماهير التى تندفع تلبية لهذا الصدى المستطار، فلأنها ناقمة على حكوماتها، والقوانين السائدة فى بلادها، وهى أبدا تتوقع الخلاص منها، ولو الى أسوأ منها، فتلبى داعى الشيوعية، عله يزيج عنها هذا الكابوس، الذى طالما رزحت تحته.

ب-: ان الواعين الذين يقودون هذه الجماهير، أناس نفعيون مأجورون، وانتهزيون محترفون، يعملون فى هذا السبيل ليكسبوا به الرزق ويحصلوا - فى نفس الوقت - على السلطة والكيان... واما الجماهير التى لا- تعرف شيئا فى العالم غير الخبز، فتتطلى عليها الحقائق المروعة، الكامنة خلف الوعود والاكاذيب...

ج-: ان الحكومات الرأسمالية - قبل ان يأتى خروشوف الى الحكم - كانت تعرف صورة باهتة عن الاوضاع السائدة فى روسيا ومستعمراتها ولم تكن

تعرف كل الحقائق، فالستار الحديدي انما نصب ليفصل البلاد الاشتراكية، عن العالم كله، وحتى لا يستطيع احد ان يتسقط اخبارها مهما بلغت به الحيلة والدهاء. وهكذا كانت الدول الرأسمالية بعيدة عن اكثر الاوضاع الاشتراكية، وكانت تعرض تلك الصورة الباهتة - التي عرفتها رغم الستار الحديدي - على الناس، ولكنها حيث لم تكن صورة قوية حية لكل ما هنالك، عجزت عن مقاومة دعايات الشيوعيين..

إضافة على ان الناس كانوا ينظرون الى الحكومات الرأسمالية نظرهم الى اعداء الانسانية والشعوب، فكانوا لا يصدقونها في شيء مما تقول، وكانوا يظنون انها دعايات مغرضة، يجب ان يغلقوا افهامهم دونها...

ولكن بعدما جاء خروشوف الى الحكم، ونفض فصولا من الستار الحديدي، وانطلقت الوفود والبعثات، تروح لتحمل اليها الانباء المدهشة الهائلة، وجائنا من روسيا بعض البضائع التافهة، وعدد من الخبراء والاطباء... التافهين، واطلقت الاحزاب الشيوعية هنا وهناك، لتعرف الشيوعية والشيوعيين للناس و... اذا بال جماهير المتفانية في سبيل الشيوعية تنفض عن جفونها الرقاد، وتندفع - في المرة الثانية - لتحارب الشيوعية، كما كانت في السابق تعمل للشيوعية لذلك كله نجد الاحزاب الشيوعية تتساقط في كل مكان. حتى لم تبق للشيوعيين خلية امينة، وانما خسروا الكادحين، واصبحوا مطاردين منبوذين، تطاردهم الشعوب قبل السلطات، ويلاحقهم الخزي والعار، أينما اتجهوا...

وهكذا سقطت الاحزاب الشيوعية - بعدما كانت اقوى من الحكومات المحلية - فى ايران، ومصر، وسوريا، ولبنان، والعراق، والأردن، وأندونيسيا، والحجاز، وتركيا... وسائر الدول الاسلامية والرأسمالية... وسوف تسقط الشيوعية العالمية، وتدحر روسيا ومستعمراتها فى يوم قريب... وقريب جداً...

التقرير الأخير:

يدل جميع ما سجلناه الى الان على ان المذهب الاشتراكى مذهب فاشل، لم يطبق الا بقتل الملايين، والسجن والتعذيب والارهاب، ثم لم يستطع ان يعيش الى جانب الحريات والاديان والاخلاق، فصادرها - جميعا - ولم يتمكن من ان يسير الناس بحكمة ورزانة وهدوء، فجعل يسوق الناس بعصى القسر والارهاب، ولم يتطوع له الناس فيما يرسم من مخططات واهداف، فالتجىء الى اجبار واكراه الناس حتى على الاعمال الطبيعية البسيطة... ومع ذلك كله فشل فى رفع المستوى السياسى، والاقتصادى الثقافى لروسيا، فظلت متأخرة بكثير، عن كثير من البلاد الرأسمالية... فالنتيجة: ان هذا النظام كالنظام الرأسمالى والشيوعى - فاشل لم يكتب له البقاء!!!..

ص:240

وبعدما تمر السفينة على سطح الماء - بعدة دقائق - توجد مويجات صغيرة على الضفاف، فتضارب وتتلاطم، ولا تستطيع ان تفعل شيئاً دون ان تعكر نفسها، وتبلل الغادين والرائحين، ولن تمر عدة ثوان حتى تتلاشى وتعود زجاجة الماء الى هدوئها ولمعانها الفتان، وانغامها المتزنة الوديعة...

تلك هي اسطورة المذاهب الاشتراكية المرتعشة، التي حدثت بعد ثورة اكتوبر:

فبعدما انتشرت دعايات الاشتراكية فى البلاد الرأسمالية، استجاب لها الكادحون المضطهدون، فأحدث رجات عنيفة فى الحكم الرأسمالى، وأنذر الحكام بالمصير المظلم، فالتجنوا الى تلبية مطالب الجماهير، عليها تخفف ثورتها الجامحة. هذا من جهة، ومن جهة اخرى وجد الحكام: ان النظام الاشتراكى ينفعهم الى حد بعيد، لان الاشتراكية تضع فى يد الدولة جميع الثروات، وتعبد العمال والفلاحين للحكومة، بصورة اجبارية واسعة النطاق، وذلك ما تتلهف اليها الحكومات...

الاشتراكية الفاشية والاشتراكية النازية:

لهذين العاملين سارع هتلر النازى فى المانيا، وموسولبنى الفاشى فى إيطاليا، الى اختلاق مذاهب اشتراكية، فالتقطا من اشتراكية لينين، تلك المواد التى تنسجم مع ميولهما واهدافهما، وانتخبا تلك المواد التى تلائم افكارهما واغراضهما بشىء من التحوير والتطوير، فطوراها كما اشتها..

وبذا المواد الاخرى، التى لا تلتئم مع اهوائهما ومطامعهما اولا يجداها صالحة للتطبيق..

وحيث لم يكن هتلر وموسوليني، واتباعهما وانصارهما، الا من ابناء الرأسمالية، الذين ورثوا من العقلية الأوربية، جميع اخطائها، ونقاط الضعف فيها... اصف الى ذلك دكتاتورية هتلر وموسوليني، والفكرة النازية والفاشية و...

هذه العناصر كلها تفاعلت فى ادمغة هتلر وموسوليني وزبائنتهما منذ سنين حتى اختمرت وتجسمت... فلما حاول تكوين فكرة اشتراكية، تناولوا طائفة من الحقائق ومزجوها بكثير من الغلوا والمبالغة، واستبدلوا كتلة من الاباطيل والخرافات، بمجموعة من الحقائق الاخرى، وأقاموا للحياة البشرية نظاما جديداً، كان فى الواقع مزيجا مركبا من عناصر شتى فجمعت كثيرا من اخطاء الرأسمالية والاشتراكية معاً..

ورغم سوء المزاج، وفساد التركيب، الذان انطبعت بهما الاشتراكية النازية والفاشية، كانت بريئة من كثير من اغلاط الشيوعية والاشتراكية فقد رفضوا نظرية الصراع الطبقي فى المجتمع، وقالوا بامكان تأخر طبقات المجتمع. كما نبذوا نظرية لزوم القضاء على الملكية الفردية والطمع فى المنافع الشخصية وقالوا بوجود تقرير الملكية الفردية والمنفعة الذاتية.

وايضا حاربوا جملة من الافكار السخيفة التى منيت بها الرأسمالية، فمثلا، ناقضوا نظرية وجوب اهمال العجزة، فقالوا بلزوم اعالتهم، وانتشالهم من ضائقة الجهل والفقير والمرض، وفى حالات العجز الدائم، يجب اعالتهم حتى يقضى عليهم، لانهم كانوا اعضاء فى المجتمع، فلا نبتهم بمجرد انهم عاجزون.

هكذا كانت الاشتراكية النازية والفاشية نقيية من كثير من الاوهام والاطغالات، فى حين انها كانت مليئة بشتى الرواسب والاطغالات المخلفة من الانظمة القديمة والرأسمالية والاشتراكية معاً...

واننا لا نستعرض هذين المذهبين، كما لا نستعرض اهتماما لوضع النقاط على الحروف لانهما مذهبان مغلوطان، ولقد وقفنا على اخطائهما عند استعراضنا النظام الرأسمالى والاشتراكى، فلا حاجة، ولا مبرر للتكرار... خصوصا بعدما اعلن التاريخ فشل هذين المذهبين، واندحر لغير عودة...

اشتراكيات هوجاء:

وبعدما انتضى دور الفاشية والنازية، اخذت السياسة فى استغلال سذاجة الجماهير الغريرة، التى كانت تطالب باشتراكية روسيا فجعلوا يطبقوا فى بلادهم بعض مواد الاشتراكية، التى كانت تنفق وافكارهم ومصالحهم واهملوا بنية النظام، وهكذا قضوا على الحركات الشيوعية، التى كانت تستفحل فى بلادهم وفى نفس الوقت، غدوا سيظرتهم الاقتصادية والسياسية بمواد قانونية جريئة، التى لم يكن فى وسعهم ان يضعوها من قبل.

ولكن اقتصادهم اصبح شيئا مضطربا مضمناً لا- يتركز على فكرة جامعة. ومن هذا النوع تكون اشتراكية الهند وبريطانيا، واكثر البلاد الرأسمالية... لكن هذه الاشتراكيات كلها تدور فى حلقة شاغرة، وليست من الصحة فى شىء لانها لا تعدوان تكون مركبة من الرأسمالية والاشتراكية ففيها من اخطاء وسيئات الرأسمالية والاشتراكية، وهذا يكفى دلالة على بطلانها، وسيعلن الزمان بعد حين فشلها...

ص:245

للاسلام رأى آخر حول مكانة الفرد، يختلف عن فكرة الرأسمالية ومنطق الشيوعية والاشتراكية، لأنه يعرف الفرد موجودا ذا اعتبارين - فى آن واحد -:

1 - صفته كفرد مستقل، له كيان خاص، ومؤهلات معينة.

2 - صفته كعضو فى المجتمع، فهو يلبي حاجاته الفردية حيناً، ويستجيب لعلاقاته الاجتماعية مرة، فلا بد وأن يكون للفرد كيان، وللمجتمع كيان.. طبقان لموازن لا يصطدم احدهما بالآخر... وعلى ضوء ذلك، يرسم الإسلام خطة جديدة بين المرحلتين، على حد سواء، ثم ليسيير قدما والى الأمام حيث يأمن العثار.

ويجعل حجر الزاوية للمجتمع: المال والروح... وليضع الدولة مهيمنة عليها...

وهنا نستعرض بعض النماذج، من شتى ادوار الاقتصاد: التى يسنها بوحى من هذا المبدأ الرشيد...:

الملكية الفردية:

هنا منبع الاقتصاد.. او مفترق الطرق.. الذى تذهب منه الشيوعية الى الملكية الجماعية.. والرأسمالية الى الملكية الفردية المطلقة.. والاسلام الى الملكية الفردية المقيدة.

وقد ذكرنا ما فى الملكية الفردية المطلقة من سوء.

ويزعم الاشتراكيون: ان الملكية الفردية قارنت الظلم والاستعباد - على مدار التاريخ - وقبل اكتشاف الزراعة كانت (الفترة الملائكية) التى رأّت مجتمعا

فاضلا: يسوده التعاون والتعارف والاخاء.. لذلك لا بد ان نعيد تلك الفترة السحيقة، بالغاء الملكية الفردية!

وهذا الكلام لا يعرفه التاريخ ولا تقرأه الصحف السماوية...

وقد قتل (قاييل) (هايبيل) فى اولى اسرة تكونت على وجه الارض وعلم النفس والاجتماع يحكمان: بان نزعة السيطرة الفردية من الطبائع الفطرية، المركبة على الانسان، ويولد بها.. مع اهمال البيئة، وجميع الظروف المحدقة به من قريب او بعيد.. فهذا الادعاء مختلق!! ثم ان هؤلاء يريدون: ان يرجعوا البشرية الى الوراء... الى الوراء. الى البدوية الاولى... الى اول يوم انطلق البشر فيه على التراب!!

يقرر الاسلام الملكية الفردية - بوسائل مشروعة - ثم يصون هذا الحق لصاحبه. ويقطع الايدى المعتدية عليه.. واثبات الملكية الفردية تحقيق للعدالة بين الجهد والجزاء. (من عمل فلنفسه) ومن اهمل فقد خسر نفسه.

ويساير الفطرة والميول... ويجارى الاشواق البشرية الحافزة على العمل، للحصول على اكبر قدر ممكن من النتائج، فى حين انه يتفق مع المصلحة العامة: باغراء الفرد على انفاق اقصى مجهوده فى سبيل تنمية الحياة والفرد متى علم: انه يعمل لنفسه، والتوفير على حاجاته، يندفع نحو العمل بنشاط وانطلاق.. ويختلس من وجبات فراغه وراحته، ليخصص للعمل اوسع فرصة عريضة، ويستنزف طاقاته بانبساط والحاح، ولا يحس انه مسخر للعمل، ولا يشعر بالتعب مهما كد وكدح، ولا يضيره: ان يسامر سرير الالم بعد ذلك.

ص:250

لهذا الهدف النبيل يعترف الاسلام بالملكية الفردية، ويضع اصولها المعينة: التي تتيح للمجتمع هاته الفوائد الجسيمة من فرد واحد، دون ان يمس كرامة الاخرين.

ومثل عمل هذا الفرد لا تؤديه العشرة من المسيرين قسراً وغصباً، لا يملكون ارادتهم، ولا يعرفون احترامهم، وانما هم ادوات ميكانيكية بسيطة فى المعمل.. على حد تعبيرهم.

نطاق الملكية الفردية:

ولكن الإسلام لا يدع الملكية الفردية تطغى على مصالح الجماعة.. فالإسلام إنما يقنن نظام الملكية الفردية للمصلحة المشتركة بين الفرد والمجتمع، وتقدم ضرورات الجماعة على حاجات الفرد عند الاصطدام

فكرة الاسلام عن الملكية:

تدور فكرة الإسلام عن الملكية على نقطة واحدة: هى مبعث التحليل والتحریم فى منابع الثروة، وهى قانون (تكافؤ الفرص) فالعمل سبب لتنمية المال...، فلذلك العامل يستحق النماء. وأما عين المال، فبنفسه لا ينمو، والنقود لا تلد النقود، ولو مر عليها ألف سنة، فبم يطالب صاحب رأس المال؟

وبمثال اوضح: دع مليوناً من الدنانير فى الصندوق.. ماء عام! هل يزيد عليه واحد؟ وضع اطنان القمح والرز والشعير فى المخازن حتى تبور... لا تنمو نصف مثقال..! ولكن.. تاجر بالدنانير! ستدر عليك ارباحها! واترك الفلاحين يزرعون الحبوب، ويجتهدون عليها بضع شهور سيحصدونها سبعمائة مثقال!!

ص: 251

من وحى هذه الفلسفة الواقعية يضع الاسلام برنامج اقتصادياته ويرسم الحدود والقيود للمكاسب! وعلى هذا الضوء يحرم اشياءً ويحلل اشياءً!!

المتاجر المحرمة فمنها:

1 - الربا:

عصب الرأسمالية ودعامتها الراسية، لأن الربا لا يكون إلا في المجتمع المضطرب، فيه الثرى الذى تقوده أكثر من نفقاته وتجاراته، وفيه المحتاج الذى سدت فى وجهه السبل، فلم يجد منفذاً يرتزق منه أينما اتجه، حتى التجأ إلى المعاملات الربوية بدافع الحاجة والاضطرار، وإن خسر الفائز كل يوم، لكنه كالمقدم على الانتحار... وهكذا الربا ينمو ويزيد أضعافاً مضاعفة، فما هى إلا سنوات حتى تتسرب ثروات هائلة من أنامل الكادحين إلى مخازن المترفين...

وكم نعرف اناساً أقدموا على الديون الربوية لترميم بيوتهم او مصانعهم، ثم عصفت بهم ازمات اقتصادية: عاقتهم عن اداء الديون.. وتضاعف الربا عاما بعد عام.. حتى اخذت المصانع والبيوت من ايديهم.. وضلوا يلفضون حياتهم فى سلسلة من الحسرات والعبرات!

فهذا الفائض يستمتع به صاحب المال، ابتزازا بتحين ساعة احتياج الناس. انه العرق والدماء يلغ فيهما بنهم وشراهة، لا لشيء الا لانه صاحب المال.. والاسلام الذى يقدر العمل، ويجعله السبب الاساسى للربح، لا يعترف بهكذا اموال... ولا يعرفها الا سرقة قانونية.. لان المال بنفسه لا يولد المال، وانما الجهد والعمل يحصلان على الفائدة.. فيجب ان تعود غلة الجهد لصاحب الجهد، وان يعود المال مفردا لصاحب المال..

ص: 252

وهناك الخطر الجاثم خلف اباحة الربا، هو: تمهيد الوسائل لتضخم رؤوس الاموال، بلا جهد وكفاح فى سبيله! وتكاثر الفقر والفقراء... ومعنى ذلك: توزيع المجتمع طبقتين متباعدين: طائفة من المترفين البطالين يعتمدون على الربا فى تنمية اموالهم بلا حساب... وفرقة الكادحين المتسولين يقترضون بالربا - فى ساعة العسرة - ثم يعوزهم الاداء... فىصبح المجتمع اشبه بكفتى الميزان: تعلق الطبقة المترهلة الفاجرة، كلما يشيع الفقر ويزداد الفقراء..

الترف الحرام:

ومتى تأمرون المترفون.. فهم - بطبيعة الحال - يسوقون الاجتماع الى الهلاك والتدمير... فالمترفون ينضب الايمان والضمير فى قلوبهم، وتعلوهم الغلواء والغلظة، والاندفاع الهائج، والوقاحة المائعة.

فالطاقة الفائضة لا بد لها من متصرف.. والمترفون والمترفات يجدون رزمة من الطاقات تتلاطم لتفيض: طاقة الشباب. طاقة الفراغ. طاقة المال. ويعرفون مصارفها فى حياتهم الرخوة الناعمة.. وفى متاعهم المستهتر الداعر... وهم محتاجون الى حاشية وبطانية ترضخ لسخافاتهم واوهامهم الشاذة، وتتحمل خرافاتهم واساطيرهم البالية، وتشترك معهم فى اللهو القذر.. فتجتمع كتلة آسنة، من الامعات العفنة، والمستغلين والمهرجين، والذبول والحواشى، والحشاشة وتجار الرقيق... ينشرون الدعارة والترهل، ويرخصون قيم الحياة الجادة: التى لا تروق للمترفين والمترفات... والى جنب هؤلاء القصر المجنح الذى يرف على المزارع والحقول... والضياء الصفراء الضحوك، تنتزى من

ص:253

عيون الشرفات والزجاج. والاغراء الحاسم الخلاق... وعلى الضفة الاخرى الحطام الآدمى الهزيل، الضحل المتهافت، ومن لا طمع له فى القرص، ولا عهد له بالشعب لا تخشى بواده، ولا ترهب سطواته...

او فى مثل هؤلاء من يستطيع: ان لا- يحشر فى فخاج الفجور... الا- الابطال والقدسيون.. وما اكثر الناس - ولو حرصت - بابطال او قدسين!!!

كذلك يستفحل الداء فى مرافق الحياة!. ثم تكون عاقبة ذلك شيوع الفاحشة فى الامة.. وانتشار الاباحية والفوضى... وخواء الضمائر والاجسام والعقول...

تلك هى فكرة الاسلام عن الربا.. تبدء فردية، ثم تصبح جماعية وكل هاته المظالم تكون.. ومشارها الربا!.

وهناك فلسفة ثالثة لتحريم الربا، هى: ان الربا يوهن علاقات الافراد، بعضها مع بعض، وتقطع الاواصر والصلوات العذبة: فان من يعطيك دينارا ليأخذ منك - بعد ستة اشهر - دينارين هو عدوك، وانت عدوه: لا تجمعكما الاخوة الاسلامية، وروح التعاون والتعاقد: التى بنى عليها الاسلام...

وبالاخوة يفشى التبغض والتكايد، التحاسد: التى تنتهى بالانتفاضات الدامية... ويعتبر الناس روادها ابطالا، وحملة مشاعل الانسانية فى دروب الحياة..

لذلك يحرم الاسلام الربا.. ويبالغ فى تحريمه. حتى لعن النبى صلى الله عليه وآله آكل الربا، ومؤكله.

وكاتبه، وشاهديه، وقال صلى الله عليه وآله: هم سواء! ويأمر بتبادل القروض الاهلية بلا فائدة.. لتنمى - فى المجتمع - المودة والمروءة والتضامن، بين الجماعة: غنيها وفقيرها، وعاليها وسافلها !!

استحباب الزيادة:

ولكن ثمة حقيقة لا تغفلها نظرات الاسلام، العميقة الثاقبة.. وهى ان نفس المال اذا بقى عند صاحبه، ولم يقترضه احد، لتاجر به وربح.. ولكن عندما يقرضه للناس، لا يستطيع ان يستفيد من ماله هذا، لا بالمعاملة ولا بالربا.. وذلك يوجب تجميد المال، وشلل الثروة - بالنسبة لمالكها - عندما ينتفع بها الآخرون، وكذلك تقل الرغبات.. وينقطع الجميع عن اعطاء الديون!

لذلك وازن الاسلام مصلحة المقرض بمصلحة المقترض.. فعندما يكون المقترض فقيرا، يقتضى التكافل الاسلامى: ان يكف الغنى عن الربح قليلا - لامداد حياة الفقير... واذا كانا غنيين قدم مصلحة صاحب المال فكان من المستحب على المقترض - عندما يؤدى الدين - ان يضيف اليه شيئا من المال تبرعا، دون تبان عليه من اول الامر. لئلا يفوت صاحب المال الربح.. فيكره الديون بعدئذ.

وكذلك الاسلام راعى حق الجانبين، باسلوبه الرفيع الحكيم دون ايما محاباة او استئثار.

ص: 255

وحاول فريق اطلاق الربا فى بعض الوانه، فقالوا: ينقسم الربا نوعين: 1 - ربا الاستهلاك. وهى: الديون الشعبية، التى يأخذ الفقراء لسد حاجاتهم الفردية، من تكاليف الغذاء... الكساء... الدواء.

1 - ربا الانتاج، وهو القروض التى تستوفى للاغراض التجارية البحتة.

وقالوا: ان الربا المحرم فى الاسلام هو ربا الاستهلاك لا ربا الانتاج وذلك منطبق لا يلائم نصوص القرآن المطلقة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا». (1)

«لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». (2)

«وَاحِلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا». (3)

ولا- تعتبره فلسفة الاسلام حول فائض المال.. (فالغنى لمن عليه الغرم). ومالم يشترك صاحب المال مع المدينون فى الغرامات لا يشترك معه فى الانتاج. وان اشتركا - معا - فى الخسائر والارباح، فتلك شركة وليس من الربا فى شىء.

وايضا. فالفائدة حصيلة الجهد والعمل.. لا المال الذى يستدينه، فليس لصاحب المال فى المنفعة نصيب!

ص: 256

1- (1) البقرة: 278.

2- (2) آل عمران: 130.

3- (3) البقرة: 275.

تلك هي: نظرة عجلية - على الفقه الاسلامي - حول الربا. وسنلقى نظرة اخرى على الربا، فى افكار العظماء والذساتير غير الاسلامية!

للضعفاء:

الذين لم يحيطوا بفكرة الاسلام القويمة الشاملة، عن الكون والحياة والانسان... فراحوا ينتصروا للاسلام بالعلم الحديث، وآراء العظماء... اما نحن فنستغنى بوثوقنا بروح الاسلام المعصومة - فى اتجاهاته وتوجيهاته - عن الاستنجاد له بغيره... فلا نزداد اطمئنانا اذا وافقه.. ولا نضطرب اذا ما خالفه!!

مع القوانين والعظماء:

1 - كان القانون الرومانى يبيح الفائز... فجاءت الكنيسة الكاثوليكية فحرمته تحريما صارما لانه اكل لاموال الكادحين بالباطل!

ولقد كانت (التوراة) و (الانجيل) يحرمانه من قبل. ثم نقل فقهاء القانون الفرنسى: هذا التحريم وعللوه بسبب اقتبسوه عن (ارسطو) هو: ان النقود لا تلد النقود فتكون المطالبة بفائدة عن النقود ضد طبائع الاشياء.

فى مصر من عهد الاسرة الفرعونية الثالثة سنة 2980 ق.م. لم تعهد القروض الربوية.. الا فى عهد الانحطاط الثانى، فى الفترة الواقعة بين 1200-663 ق.م. فدخلت الفائدة القانون المصرى منقولة عن (الكلدان).

2 - يقول علماء التشريع الحديث: ان اثر ما تقدم على القانون يبدو فى تحديد سعر الفائدة.

ص:257

كارل ماركس: ان الربا واحد من مظاهر اللصوصية، التي تسلكها الرأسمالية فى سلب حقوق الطبقات العاملة.

البنوك:

لقد نشأت المجتمعات اليوم، على فكرة الرأسمالية، فى جميع مرافق الحياة! فصاحب المال لا تسخو نشأته باقراض المحتاج لقضاء حاجته. والحاجة تلح على الفقير فلا بد من سدها ولو بالربا... وهكذا وجدت: المصارف (البنوك) للتعامل بالربا وتأمين حاجات الناس من هذا الطريق الحرام.. والتجار الذين لهم حرية الاستغلال: بالغش والقمار والاحتكار والربا دون رقابة من دولة، او تقييد من قانون، يرون من الضروريات البدائية وجود المصارف (البنوك) لاشباع نهمهم الملتهب الضارى..!

والاسلام لا يعرف مجتمعا يلتجئ الى الربا فى يوم من الايام! بل يرسم المجتمع على لحن: يتحامى الربا بطبيعته، ويعرفه شرا وفتنة، للفقراء والاعنياء سواء بسواء.

لان المحتاجون الى الديون ثلاثة انواع: المحتاجون الى قوتهم اليومى. المحتاجون الى العمل. المحتاجون الى التجارة والاستيراد... والاسلام يضمن لهؤلاء جميعا: تأمين كفاءاتهم..

اما الصنف الاول: وهم المحتاجون الى العيش والحياة، فبيت المال يدر عليهم ارزاقهم، فى صور رواتب رسمية او غير رسمية..!

ص:258

واما الصنف الثانى: وهم المحتاجون الى العمل، فالاسلام مسؤول عن ايجاد اعمال شريفة لهم، تليق بكرامتهم، وتلائم قواهم الجسدية!؟

واما الصنف الثالث: وهم المحتاجون الى اموال طائلة، لتوسعة نطاق التجارة والاستيراد..! فالاسلام فتح امامهم باب...

القرض:

بكلتا مصراعيه! يستعرض الاموال المتخمة - فى هذا الطريق - وحيث يحرض بعض النفوس على بقاء اموالهم المتجمدة فى مخادعها!..

ونجد حرجا فى انفاقها للقروض، ومشقة فى تفتيت ثروتهم فى ايدى الناس وفى الناس - ابدا - مماطلون وسلابون... ثم ليست التجارة مضمونة النجاح دائما، فربما تخسر الصفقة، او تصيب السلعة بأفة سماوية، او ارضية، ويبقى صاحب المال يقلب كفيه على ما انفق فيها، ويذهب الدين هباءا!! لذلك كله يرى الاغنياء: ان الافضل ان يبقوا على اموالهم جامدة: لا يرهبون الضرر ولا يهابون الخسران... وكذلك يقلل سبيل المعروف، وتتبخر الديون فى المجتمع!

ولئن يطمئن الاسلام اصحاب المال من هذه الحوادث يتبادر: اولاً: الى بيان ما فى القرض من ثواب..: حتى ان الملائكة لتصلى على المقرض ما دام ماله فى القرض كما يقول النبى الاكرم صلى الله عليه وآله:

«من اقرض مؤمنا قرضاً ينظر به ميسوره، كان ماله فى زكاة.. وكان هو فى صلوة من الملائكة، حتى يؤديه...».

ص: 259

ويزيد الامام الصادق عليه السلام قائلاً: «القرض الواحد بثمانية عشر.. وان مات حسبتها من الزكاة!!».

الى حيث يبلغ القرآن.. فيعتبر من اقترض المسلمين فقد اقترض الله.. حيث يقول: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ!؟!» .

فمن ذا الذي يرضى: ان يكس امواله ولا يقترضها المسلمين!؟

وثانيا: يفرض الاسلام على المدين: ان يجتهد في قضاء دينه - تمكينا للثقة بين العباد -: (من اخذ اموال الناس يريد ادائها ادى الله عنه! ومن اخذها يريد اتلافه اتلفه الله!!).

فمن يحاول اداء الدين يجد ويكده والمجد الصادق ينال هدفه - غالبا - اما المماطل: الذي استمرراً البطالة، والعيش على فضلات الناس!

فمن الطبيعي ان يسترخى همته! وحتما لا يجد ما يقضى به دينه، الا في الاحوال الشاذة: التي لا تنفع الا للاحلام. والاسلام لم يكن يوما من الحالين! ولا يعلق فرائضه على النوادر.. فالاسلام لا يعتبر هكذا رجل الا سارقا! ولقد قال الامام الصادق عليه السلام: «ايما رجل اتى رجلا فاستقرض منه مالا، وفي نيته: ان لا يؤديه، فذلك اللص العادي..» .

واداء الدين مقدمة - في حكمة الاسلام - على سائر الحاجات!. وقد سئل (سماعة) جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: الرجل منا عنده الشيء يتلغ به وعليه

دين!! أيطعمه عياله حتى يأتيه الله بميسرة... او يقبل الصدقة؟؟

فقال عليه السلام: «يقضى مما عنده دينه! ولا يأكل اموال الناس الا وعنده ما يؤدي حقوقهم»!!

ان الله تبارك وتعالى يقول: «لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ»..!

اما اذا لم يستطيع المدين من اداء دينه، او مات او قتل، فالاسلام يتكفل قضاء دينه! و يقدر له حصة من الزكاة: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ...» (وَالْغَارِمِينَ... (1).

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول في خطبه: «... من ترك ضياعا فعلى ضياعه..! ومن ترك ديننا فعلى دينه»!.

هكذا الاسلام يعالج مشكلة الربا، وحاجة المجتمع الى المصارف: (البنوك) ولكن الاسلام يحمي.

البنوك الاسلامية:

التي يودعها الناس اموالهم الفينة بعد الفينة، من الحين الى الحين، لتكون اعتبارا لهم فى الاسواق العالمية..! وليأخذوا من اموالهم ما شاؤا ومتى شاؤا!!؟؟ دون ان يكلفوا المحافظة عليها بأنفسهم..!

وفى نفس الوقت يقوم صاحب المصرف بالتجارة والاستيراد! بهذه الاموال

ص: 261

1- (1) سورة التوبة: 60.

مع الاذن من اربابها!.. وهذه منفعة لها مكائنها الاجتماعية! فيقتصر عليها صاحب المال المصرف!

هكذا يقرر الاسلام البنوك! اما بنوك اليوم فأنها اوتاد الراسمالية ولا يعرفها الاسلام ابدا!..!

ب - المكاسب الحمراء:

وكذلك للاسلام فلسفة عامة: تعتبر الحد الفاصل بين المكاسب الفاجرة، والمتاجر الشرعية المباحة، هي: ان الاجزاء بلا عمل ولا جزء على الحرام والواجب.. وعلى طبق هذا النظام نرسم ثلاثة نقاط، مع محاولة التبسيط والاختزال!

ص: 262

الغش:

يؤكد الاسلام فى تحريمه... ويفاتح الطريق الى انتزاعه عن المجتمع والغائه عن الاسواق، بجمل تؤلم العواطف والنفوس: (من غش الناس فليس بمسلم!)، «من غش فليس منا».

«.. من غش غُش في ماله» «من غش نزع بركة رزقه، وضيق على معيشته، ووكله الله الى نفسه..».

والغش من عوامل الراسمالية: الذى يمتص دماء الالوف من الشعب، دون ان يعمل شيئاً، او يضحى بشىء من قواه، انما سلعته الدهاء والخداع، ينشر فخاخه والناس يتسابقون اليها، باقدام لاهثة متعطشة، ثم الغش يصيب النفوس، اكثر مما يضر بالمال، فمن غش يمقت الغاش! ولا تنسيه السنين... وهو مما ينم عن قذارة النفس، ودنائة الفطرة، ويبعث على التباغض، فالتشاجر، فالتناحر على اللاشئ، وذلك مما يحاربه الاسلام بمجموعة رسالته، فى صمود وانطلاق!.. وليس الغش باكثر من سرقة نظامية.. بيد انه اعرق جرحاً، واسوء اثراً..

السرقه:

التى هى اهم ما يكف الانسان عن العمل!.. فالرجل ما لم يؤمن بان مجهوده سيحفظ له لا يجد من نفسه رغبة ساحقة، على المثابرة والتجدد فى سبيل الانتاج! لذلك يحرص الاسلام على حماية الحقوق بقسوة عادلة.. فيقطع يد السارق، عبرة للاخرين، واستنكار الثمرة على جهود الكادحين وكان فى وسع السارق: ان يجتهد ويعمل ليحصل على نفس الانتاج من الطرق المشروعة النظامية!

وفى السرقة اهدار للكرامات والدماء: فالسارق الذى يتسلق الجدران - فى

ص: 265

سدف الظلام - لينهب مصفى اعمال السنين القاسية، لا يجد من نفسه حرجا فى ان يعطف على اعراض الناس . مهما ارخى له الموقف -
وصاحب الدار سوف لا يقف مكتوف الايدى تجاه اعتدائاته القذرة.. ولا ينكشف النضال الا عن سابح فى الدماء!!

فالافضل ان يمنع الاسلام عن السرقة، ولو بقطع الايدى... ويسرنى: ان اسجل هاته النكتة التاريخية: ان الاسلام منع من السرقة، ولم يقطع
الا ست ايدى - فى زمان طويل -.

2 - الجزاء على الحرام:

فكرة الحرام:

لم يحرم الاسلام شيئا من منابع الرزق الا واضراره الاجتماعية، تربو على منفعة الفردية.. ويمقتضى العدالة الاجتماعية، والتوازن الدقيق
بين المفسد والمنافع حرم الاتجار به..!

والاسلام لم يكن يوما من الطواغيت الجافة: التى لا تؤمن الا بأتجاهاتها وتسحق كل ما سواها...

فهو يعترف بما فى المحرمات من لهو واغراء! ولكن عندما يقايسها بفجورها الفائض يحكم: بتحريمها. وهو واثق من عدالة حكمه...

ويضع القرآن نفس الحججة امام الناس، ليطيعوه رغبة وطواعية (يسئلونك عن الخمر والميسر! قل فيهما اثم كبير! ومنافع للناس وأثمهما
اكبر من نفعهما!).

ص:266

بهذه الحكمة الرائعة، حرم الاتجار بكل عمل محرم: يضره غيره او يجلب تدهورا خلقيا او ماديا للمجتمع.

وبموجب هذا النظام يحرم: امتهان الخمر وسائر المسكرات. وتعاطى القمار والميسر. واوراق اليانصيب والبغاء والرقص والغناء والسحر وبيع كتب الضلال والوحوش والحشرات والميتة والدم ولحم الخنزير والعدرة واجهزة الغناء وآلات القمار والمجسمات وحلق اللحى وكل محرم فى الشريعة الاسلامية.

3 - الجزاء على الفرائض:

لا تعلق الواجبات:

لا يفرض الاسلام شيئا على المجتمع، ما لم تكن فيه مصلحة ملحة وهو يحاول عتق الرقاب من الالزامات والفرائض، اما وحيث علم ان هنالك اشياء لا بد منها فى تنظيم الاجتماع واسعاد الناس فلا بد من ايجابها والعقوبة على تركها.. ولا بد من الاتيان بها طوعا: من دون اكراه واجور... ولا يغرق الاسلام فى الاحلام. ولا يعلق الواجبات على النيات الخيرة، والنزعات الدينية!!

فمن يضمن للاسلام ان يوجد دائما وفى كل مكان من يدفعون الاجرة ويستأجرون الناس للقيام بالضرورات: التى لولاها يضطرب النظام؟ وهكذا يحرم الجزاء على الفرائض!

سواء أكانت من الواجبات العينية التى تجب على كل فرد فرد، باصل الشريعة الاسلامية، من امثال: الصلوة، الصيام، الحج... ام من الواجبات

الكفائية: التي تسقط عن الجميع بقيام الفرد بها: كغسل الميت، وكفنه، ودفنه،... ومنها:

الرشوة

فانها اجرة على بيان الحكم الواقعي للقاضي! وتلك محرمة يعاقب عليها الاسلام.. فالقاضي ياخذ على وظيفته - من الرواتب المعينة او غير المعينة - ما يكفيه!

فليس له فوق ذلك الطمع، في مال الناس لبيان حكم الله الواقعي!!

هذا اذا كانت الرشوة في اجراء اصل الاحكام الواقعية! اما اذا اخذها الحاكم على الحكم بالباطل، فذلك كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله «الراشى والمرتشى كلاهما في النار».. وينتهي المقام بامير المؤمنين عليه السلام الى حيث يقول: «... وان اخذ هدية كان غلوًا، وان اخذ رشوة فهو شرك».

اما الرشوة التي تعطىها الافراد كل موضع قدم، على الاجازة والتوقيع والموافقة، فهي اكبر ذنبا واشد عقوبة..

الاحتكار:

هو من عناصر الرأسمالية الفاجرة... ويحاربه الاسلام منذ البداية حتى النهاية!.. واذا كان الناس عباد الله، ومنافع الارض مسخرة لهم، فما بال المحتكر يوصد ابواب الرزق في وجوههم، ويكلفهم العنت والشقاء، كالاسد العبوس! تتلاطم خلفه البحار، وامامه الفيافي الضامئة، ترفع الشكاوى الى الله!.

ولقد كانت غضبة الاسلام على المحتكر عاصفة: لا تسمح له بالغفران حتى

ص:268

قال النبي صلى الله عليه وآله: «إيما اشترى طعاما فحبسه اربعين صباحا، يريد به الغلاء للمسلمين. ثم باعه، وتصدق بثمنه، لم يكن كفارة لما صنع!»!

ولقد قال الامام الصادق عليه السلام: «الحكرة فى الخصب اربعون يوما، وفى الغلاء والشدة ثلاثة ايام... فما زاد على الاربعين يوما فى الخصب، فصاحبه ملعون..! وما زاد فى العشرة على ثلاثة ايام فملعون»...!

وعن النبي صلى الله عليه وآله عن جبرئيل قال: «اطلعت على الناس فرأيت واديا فى جهنم يغلى، فقلت: يا مالك لمن هذا؟ قال: لثلاثة: المحتكرين والمدمنين للخمر، والقوادين»!

هذا هو المحتكر: الذى يقفل الموارد العامة، لىسلط على الفقراء قسوته الخشناء، ويسعر لهم تسعيرا جائرا: لا يعرف المروءة والضمير! وكان بعض المحتكرين - فى الحرب العالمية الثانية - يغرقون السكر فى البحر ويدفنون اطنان القند تحت التراب، او يحرقون القمح والشعير... ليضخموا بذلك اموال الحرام..! عندما الناس كانوا يشربون الشاى مع التمر، ويتنازعون الخبز!! ولقد قرر الاسلام اكراه المحتكرين، على تعريض البضائع للبيع بالاثمان العادلة المرفهة!

وفى كتاب امير المؤمنين عليه السلام الى مالك الاشر - واليه على مصر - : «فامنع من الاحتكار! فان رسول الله صلى الله عليه وآله منع منه. وليكن البيع بيعا سمحا - فى موازين عدل - : لا يجحف بالفريقين: البايع والمبتاع! فمن قارف حكرة بعد نهيك اياه، فنكل به، وعاقب فى غير اسراف»!!

وذهب بعض الفقهاء الى التسعير الاجبارى على المحتكرين، متى اسرفوا فى الثمن!

الامتيازات:

ومن نوع الاحتكار البغيض، الامتيازات السائدة: التى يتوليها بعض التجار او الدول! فلا حق لغيرهم: ان يشتري تلك السلعة من منابعها... ولا- ان يشتري احد من سواهم! فيشترىون الخامات من المنتجين باثمان زهيدة! ويبيعونها الى المستهلكين باسعار غالية! ويتحتم على السلطات الحاكمة ان تحافظ هاته الحقوق المختلفة..

من هنا تنشأ ثلاث مشاكل: فسدت الارض وما عليها، الفقر فى جميع الطبقات الرأسمالية. الاستعمار..

1 - اما الفقر.. فلأن المنتجين لتلك السلع لا بد لهم وان يبيعوها من صاحب الامتياز، بثمان بخس ضئيل: لا تسد حاجاتهم الاساسية..! والمستهلكون لا محيص لهم من شرائها من صاحب الامتياز فقط - دون المنتجين - باى ثمن يقدره لها..! وسائر التجار لا حق لهم فى معاطاة هذه الموارد: التى هى عمدة الانتاج والاستهلاك. الا باجازة موقته من صاحب الامتياز، وتلك الاجازة تكلف اكثر من الربح.. وكذلك يخشى الفقر فى الطبقات الثلاث: المنتجين، المستهلكين، التجار، وهم عامة الناس، فشاع الفقر!.

2 - واما الرأسمالية... فلأن اصحاب الامتياز، يكرسون حياة الناس فى ثروتهم الفاجرة ويمتصون دماء الشعوب للتوفير على خزائهم الموقرة بالفضة والنصار! وتلك هى الرأسمالية الشائنة: التى يزرع تحت كابوسها

ص:270

3 - واما الاستعمار.. فلأن المستهلكين لا يستطيعون من استهلاك مجموع الانتاج، مادامت الاسعار رفيعة: لا ينالها الجميع الا بقناعة مقترنة! فتبقى الشركات متخمة الخزان، والمعامل تحب فى الفائض ولا نجد لها مصرفا!! فلا بد لاصحاب الشركات من ان تطلب لها مصارف، فى غير بلدانها وتبحث عن اسواق جديدة: ترغب فى بضائعها. فيكون التنافس على الاسواق.. وحيث ان اصحاب الامتيازات عملوا فى سبيل ارتفاع الاسعار، لا- لاجل اسفافها. فهم لا- يرضون بالتجارة الحرة والتناقص فالدول الكبيرة تحاول: ان تحتكر الدول الصغيرة، لتستورد الحاجات منها لا- من غيرها.. ويكون بعد ذلك من التناطح على الاستغلال، الحروب الباردة ما تنتهى باطلاق الصواريخ، وانتشار القنابل، فالقضاء على البشر المسكين.. وذلك هو الاستعمار...! هذا هو الاحتكار! وهذه نتائجه الثلاث: الفقر، الرأسمالية، الاستعمار...! فلا غرو اذا رأينا الاسلام يندد بالمحتكرين، تنديداً قاصفاً، وتعصف بهم غضبته النكراء، فلا تبقى ولا تذر.. ويصرخ النبى صلى الله عليه وآله فى وجوههم «من احتكر طعاما اربعين يوما فقد برئ من الله وبرئ الله منه»!

من دخل فى شىء من اسعار المسلمين كان حقا على الله: ان يقعه بعضه من النار يوم القيامة وليس من حكمة الاسلام ان يكتفى بالالفاظ والوعود، ثم يسبح فى الاحلام وديع البال، دون ان ينزل فى الميدان، ليعالج المشاكل عمليا ولهذا يضع - بعد ذلك كله - قانون:

وهي: ان الاسلام لا يدع التجار يستأثرون بخيرات الارض ويحتكرون منابع الثروة العامة، وخلفهم الشعب يقاسى الالم والحرمان بل الموارد العامة جميعها ملك مشاع للجميع.. وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «المسلمون شركاء في ثلاث: في الماء. والكلاء. والنار». وفي خبر «الماء والملح والنار» ومن اختلاف الخبرين في تعداد المواد المشاعة تكشف ان النبي صلى الله عليه وآله لم يختصر شركة العامة، في تلك الثلاثة او الاربعة! وانما كانت تلك موارد كلام النبي صلى الله عليه وآله لانها فقط كانت الحاجات الرئيسية، للبيئة العربية: التي ترعرع فيها الاسلام..! كما يدلنا على ذلك ذكر (المسلمين) فقط في الحديث مع ان الناس جميعا شركاء في هذه الثلاثة، او الاربعة بدليل: ان النبي صلى الله عليه وآله نفسه، وامير المؤمنين عليه السلام، اباحا الماء - وقد كان في حوزتهما لجيوش المخالفين... فتلك حجة اشتراك الناس في الحاجات العامة... حتى ولو كان النبي صلى الله عليه وآله اليوم لضم اليها: خيرات البحار والغابات. والجبال والفضاء. والكهرباء. والنفط. والغاز...

الحمى:

وبموجب هذا النظام حرم الاسلام الحمى! واصل الحمى: ان العرب اذا نزلوا منزلا مخصبا، ارسل رئيسهم كلبا على ربوة من الارض، واستعواها فالى حيث يخمد صوته فهو حماه: لا يرعى فيه غيره، وهو يرعى فى مرائع القوم!! وجاء الاسلام فاكتسحه فيما اكتسحه، من تقاليد الفراعنة، وسنن الطواغيت، وقال: «لا حمى الا لله ولرسوله..».

فحمى رسول الله صلى الله عليه وآله (النقيع): - مروج على بعد عشرين فرسخا من

ولقد كان هذا الناموس مقدسا، حتى ارتمى عثمان على فيصلة الحكم فحمى لنفسه دون ابل الصدقة، كما فى (انساب) البلاذر: 5\37. و (السيرة الحلبية): 2\87.. والحكم بن ابى العاص! كما فى رواية الواقدى!.. ولبنى امية كلهم! كما فى شرح (ابن ابى الحديد): 1\67 حتى نتمت عليه هذه الفلته! وقالت عائشة: انا عتبنا عليه... وموضع الغمامة المحمات!.. هذا هو الاسلام... وهذ دساتيره... يمنع من اكل اموال الناس بالباطل.. ومن الجدير بنا ان لا نغفل: ان الرأسمالية لا تتشأ الا فى هذه المراحل السالفة.

والاسلام يجرى على فكرته السابقة، فى تحقيق مناهج الاكتساب فالمال انما هو لله.. ثم للجماعة بواسطة الافراد ومصالحة الفرد محفوظة فى نطاق مصلحة الاجتماع!

اما اذا اختل صالح الفرد بواسطة الجنون او السفه او الافلاس - وهو ان يكون ديونه اكثر من نقوده - فليس له التصرف فى امواله، ولكن الحاكم ينصب له وليا يقوم بمصالحة!

فالملكية ليست ناشئة عن طبائع الاشياء! وانما تثبت باذن من الشارع، من اسباب معينة يجمعها: العمل الحلال! ويفصلها:

1 - الصيد:

سواء كان صيد البر والفضاء، من الحيوان والطيور... ام صيد البحر والنهر.. من الالآىء والمرجان والاسفنج... كما يقرره القرآن الحكيم:

«أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا» (1).

«... وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا...2»، «يَسَّ تُلُونَكَ مَا ذَا أَحِلَّ لَهُمْ قُلْ أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَ مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا

ص:275

والصيد هو الوسيلة البدائية فى حياة البشر.. ولكنها لا تزال من الموارد الضخمة للدول والافراد!

2 - احياء الموات:

من القفار التى لم يسبق اليها مالك... او سبق ثم اعرض... حتى صارت مواتا، لقول النبى الاكبر صلى الله عليه وآله:«عادى الارض لله ولرسوله، ثم لكم من بعد... فمن احيا ارضا ميتة فهى له..! وليس لمحتجر حق ابد ثلاث سنوات».«من سبق الى ما لم يسبق اليه مسلم فهو احق به».

اما القانون الفرنسى الذى يقرر (ان من وضع يده على الموات لمدة خمسة عشرة سنة تصبح الارض ملكا له، سواء احيها ام تركها مواتا...) فهو مخالف لحكمة احياء الموات، لان فى وسع تجار النفوس: ان يضعوا اصابعهم على جميع الاراضى.. ويبقى الفقير يطالب شبرا من الارض لموضع قبره، ولا يجده!

3 - استخراج المعادن والركاز:

من بطون الارض والاولدية، والآجام... ولا فرق بين ان يكون من الموارد العامة: كالبتروال الحديد النيكل. الفحم. الزجاج. البلور. الذهب. الفضة. الرصاص الفافون الصفر الكبريت او كان من غير الحاجات العامة: من المعادن القليلة: كتلة من الذهب الفضة الدر الياقوت الزبرجد الفيروزج الالماس.. وكل ما يستخرج من طبقات الارض فى الحفريات..

ويلحق بهذا كل ما يخرج من الماء: الاملاح الماء الثقيل... او يتصيد من الهواء الاوكسجين الايدروجين الغازات الخائقة والباكية... او تجلب من الشمس: الطاقة الذرية الضياء التي تشربها الاحجار الكريمة والمواشير.

4 - المضاربة:

هى: ان يشترك اثنان فى تجارة.. ويكون من احدهما المال، ومن الاخر اليد.. ثم ليوزع الربح بينهما على حسب ما يتراضيان عليه، وتوحيه الظروف القائمة انذاك.. كالثلث، او النصف او الثلثان او ازيد او اقل وقد حرض الاسلام على هذا النوع من الشركة - تشغيلاً للاموال الجامدة والايدي العاطلة - واكد على محافظة الامانة، والرفق واللين، وتجنب الخيانة. فقال النبى الاعظم صلى الله عليه وآله: «يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا».

(يقول الله تعالى: انا ثالث الشريكين ما لم يخن احدهما صاحبه! فان خان احدهما صاحبه خرجت من بينهما).

5 - الزراعة والمساقات:

هى: ان يستأجر صاحب البستان او المزرعة عاملاً، يقوم بجميع الخدمات اللازمة للزرع او الشجر ويدفع المالك: البذر والبقر وسائر الحاجات... ثم يكون الثمر او الحصيل مشاعاً بينهما... على حسب ما اتفقا عليه: ربعاً. ثلثاً. نصفاً..!

6 - العمل باجر:

ومن المباح الشرعية: ان يعمل الانسان لغير - العمل الحلال - ويستقضى بذلك اجرة معينة... ولا فرق فى ذلك بين الوظائف المستمرة: كعمال المصانع والمطابع والمناجم.. والمتقطعة: كاستخدامات اليومية الموقفة..! ويشترط فى

صحة الاجارة - ان تكون مدة العمل ومقدار الانتاج. والاجرة معلومة من ابتداء التبانى...

وهنا يتقدم الاسلام - لمنع الخصام بين الاجير والمستأجر - فيضع نقطتين:

1 - ان يوفر العامل لنشاطه، ويستفرغ جهوده مدة العمل، بدقة واتقان، وليسبق فرصة العمل، وينتهى بعد انتهائها.. وبدأب فى برنامج المرسوم دون تله بالمهازل والمغريات، والقصص والاساطير او ابداء الكسل والضجر... وذلك ما يكرهه الاسلام، ويعد عليه الفقر والذلة - فى الدنيا والاخرة - يقول الامام الباقر عليه السلام: «انى اكره للرجل ان يكون كسلانا عن امر دنياه. ومن كسل عن امر دنياه فهو عن امر اخرته اكسل». ولقد قال امير المؤمنين عليه السلام: «ان الاشياء لما ازدوجت ازدوج الكسل والعجز، فنتجا بينهما الفقر...».

ب - الاهتمام بشأن الاجير فلا تضيع اجرته! يقول النبى العادل صلى الله عليه وآله: «قال الله عز وجل: ثلاثة انا خصمهم يوم القيامة... ورجل استأجر اجيرا، فاستوفى منه ولم يعطه اجره». ولا يكتفى الاسلام باداء الاجر كاملا، حتى يأمر بادائه عاجلا، ويسارع فى التعجيل، حتى يقول نبى الحياة: «اعطوا الاجير حقه قبل ان يجف عرقه» فالاجير محتاج الى المال ومحتاج الى تقدير عمله.. وفى حصول الاجرة قبل ان يجف عرقه شعور بتقديس العامل، وحرص على كرامته.

والاسلام بتلك التعاليم الانسانية، استنفذ طاقات العمال برغبة نادرة مع المحافظة الكاملة على حقوق الكادحين وارباب العمل.

التي يتعاطاها الافراد.. دون عوض من جهد او مال..! وذلك ان الاسلام احب ب - (انتظام التكافل الاجتماعى): ان يسد الترحة بين الطبقات... فحبيب الى المسلمين: ان ينفقوا فضل اموالهم، وان لم يكن بالجانب الاخر فقر واملاق.. وفى ذلك يقول الامام الصادق عليه السلام: «لا يكمل ايمان العبد حتى يكون فيه اربع خصال... ويخرج الفضل من ماله» وهذا ليس من الزكوة ولا من سائر الحقوق الشرعية، انه كما يقول ابو عبد الله عليه السلام: «... ولكن الله عز وجل فرض فى اموال الاغنياء حقوقا غير الزكاة..! فقال عز وجل: والذين فى اموالهم حق معلوم فالحق المعلوم غير الزكاة.. وهو شىء يفرضه الرجل على نفسه، فى ماله يجب عليه ان يفرضه بقدر طاقته، وسعة ماله فيؤدى الذى فرض على نفسه! ان شاء فى كل يوم، وانشاء فى كل جمعة، وانشاء فى كل شهر...».

وقد سئل الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل: «وَالَّذِينَ فِيْ اَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ...» اهو سوى الزكاة..؟

فقال عليه السلام: «هو الرجل يؤتية الله الثروة من المال، فيخرج منه الالف والالفين والثلاثة الاف، والاقل والاكثر، فيصل به رحمه، ويحمل به الكل عن قومه..» وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«ومن منع الماعون من جاره اذا احتاج اليه، منعه الله فضله يوم القيامة، ووكله الى نفسه، ومن وكله الله الى نفسه هلك، ولا يقبل الله له عذراً»...

ولا يعتبر الاسلام: ان تكون من افضل ما تزين به الاسواق.. حتى يكف الناس عنها بحجة. انهم لا يجدون الافضل! فتقطع هاته الصلة بينهم. ولكن ينص على: ان الهبة مهما كانت بخسة ضئيلة، فهي عند الله مقدره - اليس المقصود منها التكافل والتحابب؟؟ - ويبالغ النبي صلى الله عليه وآله فى ذلك حتى يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمره» فحتى هذا هدية تعصم من النار!

هذه... هي موارد الرزق: الاوليه البدائيه.. والطبقات: التى تتبادل هاته الاعمال، هى التى تستخرج الشعب، والشعب كله عالة عليها اما حقاً او باطلاً...

وبعد ذلك يأتى دور التجارات. وقطائع السلطان وغنائم الحروب والصدقات والحقوق الشرعية والارث... ونغفل الان الثلاثة الاول لخروجها عن نطاق البحث... ونستغنى عنها بالثلاثة الاخيره.. فاما

5 - الصدقات:

مهمة الصدقات:

يجعلها الإسلام كرصيد للفقراء، والحالات الشاذة، والحوائج الوقتية الملحة التى ليس على ولى الامر معالجتها..!، وفيما اذا كانت الدولة الاسلامية مضطربة: لا تستطيع من الثروات: توزيعاً دقيقاً لا يشذ عنه احد.

اولم تشمل الزكاة جميع الفقراء للجذب والمحل.. فهناك الصدقات تقوم بمهمة مقدسة: هى امداد حياة المتبتلين، واسعاف المرضى والمستضعفين حتى تنصرم الازمات، ويسود الامن والرخاء...

لمثل هذه المحارج الصارمة، يطالب الاسلام بالصدقات كالواجب اما اذا استأثر المترفون، ولم يؤدوا الصدقات فيبعث الاسلام قوارعه اللادعة «كَلَّا-بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا * كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذُّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي 1» .

.. فكلمات النفي مع التأكيد. كلا. كلا تصور للانسان: من ينتفض غيضا، ويتميز زئيرا... والنبرات الغضوبة القوية، والمقاطع المشددة لما. جما... والالفاظ الرهيبة المتكررة: دكت. دكا دكا. صفا، صفا، تبرز عتاب الاسلام القاسى على المترفين - بجانب الايتام والمساكين - وتصور: كان من احتدم غيضا، جعل يزجر وتصطك اسنانه فتقطع الكلمات، او كانها انطلاقات الرصاص والمدافع، يتلو بعضها بعضا. وفي نفس الموقف - وبذلك الوزن والقافية والنبرات - «أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِنْفِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ» (1).

ص:281

ويقول النبي العظيم صلى الله عليه وآله: «... فما آمن بي من بات شبعان وجاره المسلم جائع».

هذه من مشاهد المسرفين: الذين لم يرحموا الفقراء ولم ينقذوهم من الكوارث، كله: جهنم. وكذب. وبراءة. ودك. وتأسف. ودع.. اما من رحم.. فسوف ننظر اليهم فى القرآن: «إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعَمُونَ السَّاعَةَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَ لَا شُكْرًا 1» : كلمة: ابرار. وشراب. وكأس ومزاج. وكافور. وعباد الله. ووفاء وحب ووجه الله...

هكذا الاسلام يغضب لمظاهر الجوع والحرمان ويشكر الراحمين المقيمين لحدود الله...

حكمة الصدقات:

اما حكمة الصدقات فى غير المواقف الحرجة:

1 - ان الفقراء بطبيعتهم حاقدون على الاغنياء، حيث يرون المال الوفير بين ايديهم.. وهم فى شظف وتقشف: ليس لهم ما يتقوتون به من الخبز الرخيص.. وتلك عقدة تشتعل وتلتمس منفذا لتنفجر، ولا تخمدها مياه البحار.. وقد صدق (ابوذر) حيث قال: عجبت للفقراء كيف لا يخرجون بسيفوهم على الاغنياء..؟! - وفى نظر الفقراء ان الاغنياء مجرمون،

ص: 282

وأموالهم من الحرام! - وان كان اموالهم من الحلال - والفقير يطلب الخبز! ولا- يعرف المنطق والدليل، بل ولا- يعرف الله، فى بعض الاوقات، كما قال امير المؤمنين عليه السلام: «ما دخل الفقير بلدا الا قال له الكفر خذنى معك».

«... من ابتلى بالفقر فقد ابتلى باربعة خصال. والرقعة فى دينه، وقلة الحياة فى وجهه» وقال النبى صلى الله عليه وآله: «كاد الفقر ان يكون كفرا» ولكن الصدقات وحدها هى التى تخمد ثورة الفقراء... فالدينار الواحد يكتسح غيظ الفقير الى اجل غير معلوم ويجعل بين الغنى والفقير نوعا من اللفة والوداد.. بعدما كان الفقير يتربص بالغنى الدوائر.

2- تقريب مستوى معيشة الفقراء والأغنياء، والحرص على التوازن الاجتماعى بقدر الإمكان! فالحقوق الشرعية لا تجعل الفقراء فى منازل الاغنياء! وان كانت تنتشلهم من الجوع والالم والموت.. ولكن الصدقات تقرب الطبقات.. فاذا جلس الفقير على مائدة الغنى، يشعر بنوع من المساواة، واذا لبس من لباسه بين الحين والحين، ونال من نقوده: التى لم يرها من قبل، فان المساواة الى حد ما قد حصلت!

فان الصدقات - فى عرف الاسلام - ليست كما يتعاطاها البعض ويتصوره الآخرون.. فكلما سمعوا بالصدقة احضروا فى خيالهم: صورة يد عليا هى المعطية، ويد سفلى هى السائلة.. ووجه الفقير فى هالة من العرق والحياء، ووجه الغنى يعلوه الشموخ والكبرياء!

وبالعكس من ذلك، فالاسلام يحب صدقة السر. وصدقة الليل وان ياخذ الغنى الصدقة بانامله، ويجعل كفه تحت يد الفقير، حتى تكون يد الفقير هى

العليا ويد الغنى هي السفلى.. ثم يعطى الاموال الضخمة وقد تصدق ابو عبدالله عليه السلام باربعين ديناراً، ولم يكن عنده سواه، واخرج الامام الرضا يده من اعلى الباب، واعطى ابن السبيل مائتي دينار فسئل عن ذلك، فقال: «مخافة ان ارى ذل السؤال فى وجهه»!. وكان يفرق جميع امواله - فى خراسان - كل يوم عرفة... والمثل العليا لنا فى الاسلام من هذا النوع كثيرة، نرجئها لفرصة اخرى.

3 - ارتفاع نفسية الغنى، او شعوره بانه قوة فعالة فى حفظ امان المجتمع.

يقول علم النفس: ان اساس الصحة العقلية فى اشتراك الانسان فى النشاط الاجتماعى، وشعوره بانه يؤدي نفعا لمجتمعه، ويبنى له الاسس الصالحة فى سبيل اتقائه من براثن الفقر، والذلة والسقوط.

4 - ان الصدقات التطوعية تجعل الانسان يتحلل من عبادة المال وسيطرته الغاشمة التى تؤدى بالانسان الى الانتحار حيناً، والى المرض احياناً.

5 - ما فى الصدقات من الاثار الخارجية: من دفع الفقر، والمرض والموت... كما فى الخبز: «اذا املقتم فتاجروا بالصدقة». «داووا مرضاكم بالصدقة» «ان الصدقة بالليل تدفع ميتة السوء، وتدفع سبعين نوعاً من البلاء».

«ان الصدقة تطفى غضب الرب». «ان الله.. ليدفع بالصدقة الداء. والوبيلة والحرق والغرق والهدم والجنون»، «باكروا بالصدقة! فان البلاء لا يتخطاها». «يستحب للمريض: ان يعطى السائل بيده، ويأمره ان يدعو له».

منابع ثروة بيت المال:

موارد بيت مال المسلمين ستة: الزكاة، الخمس، الجزية الانفال، الخراج، المقاسمة.

ص: 284

الزكاة

صلاة وزكاة:

الزكاة أولى ضرائب الإسلام، والركن البارز في المجالات الاقتصادية، وليست ضريبة نظامية فحسب، بل إنها عبادة وضريبة - في وقت واحد - ليست ركنا عباديا من الاركان العشرة للإسلام.؟ وكلما ورد الامر بالصلاة - في القرآن - اتبعتها الزكاة؟ (اقيموا الصلاة واتوا الزكاة) (و ما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين و يقيموا الصلاة و يؤتوا الزكاة ذلك هو الدين القيم!). (قد افلح المؤمنون: الذين هم في صلاتهم خاشعون - والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون.!!)

ويرتفع النبي (ص) في قيمة الزكاة العبادية حتى يقول: (زكوا اموالكم تقبل صلاتكم)

فالزكاة في آن واحد طهارة للنفس، ونماء للمال، ولذلك سميت ب - (الزكاة) التي هي الطهارة والنماء.

حدود الزكاة:

والزكاة فكرة كريمة سبق إليها الإسلام، فهو:

أولا: يجبيها من الأموال المتضخمة، أو الجامدة، ويعفى النقود السائلة والفقراء. وليست كالضرائب الدولية التي تتحمل منها الفقراء أكثر من الأغنياء أو كلاهما على حد سواء.

ص: 285

وثانيا: يعتبرها الإسلام حقاً لا صدقة، فليس فيها ما يחדش كرامة الفقير، أو يلثم عزته.

وثالثا: يجيئها الإسلام بنفسه، ثم يعيد توزيعها على المرافق المرسومة لها، ولا يدع الفقراء يستقضونها من الأغنياء، لتحول تفضلا وإحسانا من المعطين، وخسنة ودناءة من الآخذين!!

موارد الزكاة:

تفرض الزكاة على تسعة اشياء، هي منابع الثروة الاولية في الحياة: الذهب الفضة القمح الشعير التمر الزبيب الابل البقر الغنم.. ويعتبر في جميعها بلوغ النصاب، حتى لو كانت اقل منه فهي معفوة من الزكاة..

اما الذهب فنصابه الاول 15 مثقالا صير فياً. والفضة نصابها الاول 105 مثاقيل صيرفية وليس في الزينة زكاة!. ونصاب الغلات الاربع ثمان ووزنات وخمس حقق ونصف تقريبا.. وكذلك النصاب الاول في الابل 5. وفي البقر 30 وفي الغنم 40.

وتستحب الزكاة في مال التجارة! وحاصل العقار المتخذ للنماء وكلما يكال او يوزن مما تنبت الارض...

من ذلك يظهر - بوضوح - ان الاسلام لا يعمل في سبيل جباية الاموال، وانما يحاول تحطيم الرأسمالية، ومكافحة الفقر فحسب..!

ص:286

ليست الزكاة كالضرائب القانونية: التي تختلف على حسب فهم الحكام واهوائهم الطائشة، ولكنها حق معلوم: يفرض بسبب اختلاف مواردها.. وتتراوح بين اثنين ونصف بالمائة وعشرة بالمائة.

مصارف الزكاة:

يعدها القرآن بقوله: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ» (1).

أ - الفقراء: الذين لا يملكون قوت سنتهم بالفعل، وليست لديهم حرفة تنهض بواجباتهم في الحياة... فالاسلام يكمل من الزكاة حاجاتهم الاصلية!

ب - المساكين.. وهم المرضى والشيخوخ الناقهون، والاطفال: الذين لم يرشدوا من بعد، ولا يجدون حيلة ولا يكفلهم وال، حتى لو تركهم وحالتهم المرثية، لألتجنوا الى السؤال.. او قضى عليهم الفقر والمرض.!

ج - العاملين على الزكاة من المؤمنين: الذين يضحون باوقاتهم واموالهم، سعيا وراء الزكاة... فهم يقتضون رواتبهم تبعاً لوظائفهم المقررة!

د - المؤلفة قلوبهم.. من الكفار: الذين هم حديثو عهد بالاسلام، ولم يستوعبوا مبادئه الروحية، وافكاره السامية... والمادية الجامحة تسيطر على مشاعرهم.. فان اعطوا منها رضوا، وان لم يعطوا منها اذاهم يسخطون.!

ص: 287

ه -- فى الرقاب.. من الرقيق المسلم: الذى يبادر الاسلام الى فك اسارة.

و- الغارمين: الذين استغرقت الديون ثروتهم، وفاضت تطغى على رقابهم... ولم ياخذوا الديون لينفقوها تبذيرا او فجورا ولا يجدون الان متجرا يستثيرونها على سداد ديونهم، لشلل فى الاعصاب او التفكير.. فيسارع الاسلام الى فك رقابهم.. حرصا على اموال الدائن وكرامة المديون!

ز- فى سبيل الله.. من بناء المدارس، والمصححات، والمستشفيات، والثكنات، والجسور... وسائر المصالح العامة، مما تتحقق به شتى الخدمات الاجتماعية، حسب ما يراه الامام وفق نداءات الظروف والبيئات.

ح- ابن السبيل.. المنقطع عن ماله واهله... كالمهاجرين من الحروب، والغارات، والاضطهاد.

ومتى فقد بعض هذه المصارف توفر حصتها على الباقي ومجموع هذه الابواب كافل بتمويل شتى مرافق العوز، وتأمين الضمان الاجتماعى الكافل.

الزكاة كفاية:

ثم ان فى الزكاة - وحدها - كفاية لسد الحاجات الاساسية للمعوزين فان عوامل الفقر ليس الا المرض، والعجز لصغرا او كبرا، والسفر والدين الباهظ، فالفقراء الذين لا يملكون معالجة فقرهم الا بصب الاموال عليهم حتى يذوب عامل فقرهم، ليسوا الا اربعة: المرضى، العجزة، ابناء السبيل، الغارمون اما غير هؤلاء فمن الممكن مكافحة فقرهم بتوفير العمل لهم.

ص: 288

وأولئك الفقراء الذين لا يبرؤون من الفقر الا بصب الحياة في شرايينهم، حتى تبرؤا من المرض، او يكبروا، او يموتوا، او يرجعوا الى اوطانهم، او يدفع الدين عنهم، لا يؤلفون الا اقلية ضئيلة، لا يكون منسوبهم الى مجموع المجتمع الا منسوبا ضعيفا، والكمية المحددة من الزكاة، فى الاجناس المعينة من الاموال، نسبة كبيرة بالقياس الى عدد الفقراء، فيمكن اعالة الفقراء جميعا - لا بمجموع الزكاة - بل ب 4 من 8 من الزكاة ويبقى 4 من 8 من الزكاة لسد الحاجات العامة لذلك ورد عن الامام الصادق عليه السلام:

«... ان فرض للفقراء فى مال الاغنياء ما يسعهم، ولو علم: ان ذلك لا يسعهم لزادهم».

وعنه عليه السلام: «... ولو ان الناس ادوا زكاة اموالهم ما بقى مسلم فقيرا محتاجا، ولا استغنى بما فرضه الله له، وان الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا الا بذنوب الاغنياء...».

فالزكاة - وحدها - تكفى لاعالة الفقراء، وتفيض عن حاجاتهم الاساسية، وعلى هذا الضوء تقرر الاية الكريمة مصارف اخرى للزكاة:

«إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ» (1).

ص: 289

1- (1) التوبة: 60.

وقد صدق التاريخ ذلك، حيث كانوا يطوفون بالزكاة في الشوارع ولم يكن في المسلمين فقيرا يقبل الزكاة، فكانت تصب في بيت المال، للتوفير على المصالح العامة...

وربما تلتهم الكوارث الشاذة جميع حصص الزكاة على اثر اصابات المسلمين بالزلازل والفيضانات...

ولكنها حالات شاذة، وفي اكثر الاحيان لا يستطيع الفقراء ان يستهلكوا الا نسبة محدودة من الزكاة.

زكوات مسنونة:

ولكن الاسلام حيث يحرص على صيانة الفقراء، من مختلف النوازل الفجائية، يقرر على الاموال الطاغية زكوات مستحبة: للاغنياء ان يدفعوها اولاً- يدفعوها، كي تكون ضمانا للحاجات الاحتياطية، والشعب - على كل حال - لا يخسر هذه الزكوات لانها ان اتفقت والحالات المجدية، كانت خير سلاح لمحاربة الكوارث، وان رافقت حالات الرخاء ارصد مقابلها من الزكاة الواجبة للحاجات العامة. ونحن نقتصر من الزكوات المنسوبة على ما يأتي:

1 - يستحب الزكاة فيما سوى الغلات الاربع (الحنطة، الشعير، التمر، الزبيب) من الحبوب كالسمسم، والارز، والدخن، والحمص، والعدس،... فعن ابي عبد الله الصادق عليه السلام:

«الذرة، والعدس، والسلت، والحبوب، فيها مثل ما في الحنطة والشعير، وكل ما كيل بالصاع فبلغ الاوساق - التي تجب فيها الزكاة - فعليه الزكاة».

ص: 290

2 - يؤكد اخراج الزكاة عن مال التجارة، اذا اشترى متاعا فادخره بغية الفضل حتى دارت عليه السنة، فعندئذ يستحب لدفع زكاته، وذلك غير الخمس الملزم فى مال التجارة عندما يحول الحول. فعن ابى الربيع الشامى عن ابى عبد الله عليه السلام: «فى رجل اشترى متاعا فكسد عليه متاعه - وقد كان زكى ماله قبل ان يشتري به - هل عليه زكاة؟ او حتى يبيعه؟ فقال عليه السلام: «ان كان امسكه التماس الفضل على راس المال فعليه الزكاة».

وعن الامام الصادق عليه السلام: «ما كان من تجارة فى يدك، فيها فضل، ليس يمنعك من بيعها الا لتزداد فضلا على فضلك، فزكه...».

وبهذا المعنى روايات جملة.

3 - ويستحب اعطاء الزكاة عن الخيل الاناث السائمة طوال الحول، عن كل فرس عتيق دينارين، وعن كل برذون ديناراً، كل عام اما فى سائر الحيوانات المسخرة فلا يستحب الزكاة... كل ذلك عدى الانعام الثلاثة: (الغنم، الابل، البقر) التى تجب فيها الزكاة.

صدقات شتى:

ولا ينسى الإسلام عواطف الفقراء، فهى لا تختلف عن عواطف الأغنياء، وربما كانت أشواق الفقراء أرهف وانبض من إحساسات الثرى الكسول، فكما إن الأغنياء يوفرون على أنفسهم وعلى أولادهم فى الأعياد، كذلك الإسلام يرفه عن الفقراء وأطفالهم فى الأعياد، وفى عيد الفطر يأمر بزكاة الفطرة تخرج إلى الفقراء، وفى عيد الأضحى تكون القرابين نصيب الفقراء، وفى سائر الأيام

ص: 291

يتناولون من كفارات (إفطار الصوم)، و (حنث النذر والعهد واليمين)، و (كفارات الحج)، وغيرها ما يغيرون به سير حياتهم البطيء.

حق يوم الحساب:

وعندما ينهمك الزراع في الحصاد، والفلاحون في جز النخيل، يحضرهم الفقير والمسكين، لانهما يبصران بنعمة موفورة، حولها الله لبعض عباده، وآثره عليها، فيحضران ويتسطان اكف السؤال، فمن حقهم على اصحاب الزرع والنخل ان يعطيها الحفنة بعد الحفنة، من البيادر، والضغث بعد الضغث من التمر، حتى يفرغوا من الجز والحصاد.

فعن الامام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: «وَأْتُوا حَقَّ يَوْمٍ حَصَادِهِ» ، قال: «تعطى المساكين الذين يحضرونك تأخذ بيدك القبضة بعد القبضة حتى تفرغ».

وعن الحلبي عن الامام الصادق عليه السلام قال سئلته عن قوله تعالى: «وَأْتُوا حَقَّ يَوْمٍ حَصَادِهِ...» قال: «تقبض بيدك الضغث فتعطيه المسكين ثم المسكين حتى تفرغ، وعند الصرام الحفنة ثم الحفنة حتى يفرغ منه».

ويشدد كراهة رد السائل الاوّل والثاني والثالث، بل يستحب اعطائهم، ثم الفقراء الذين يفدون بعد هؤلاء للانسان ان يمنحهم او يردهم، كما عن مصادف قال: كنت مع ابي عبد الله عليه السلام في ارض له وهم يصرمون، فجاء سائل يسئل، فقلت يرزقك الله فقال عليه السلام: «مه! ليس ذلك لكم حتى تعطوا ثلاثة، فاذا اعطيتم ثلاثة، فان اعطيتم فلکم وان امسكتم فلکم».

ص: 292

ويكره الاسراف فى الاعطاء عند الحصاد والجذاذ، بل يلزم التوازن فى الاعطاء والامساك، فعن محمد بن مسلم عن ابى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى:

«وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» قال عليه السلام: «كان فلان بن فلان الانصارى... كان له حرث وكان اذا جذه تصدق به، وبقي هو وعياله بغير شىء، فجعل الله ذلك سرفا.»

وحيث كان بعض الناس يحتالون للبخل على السائل، وعدم رده، بالحصاد ليلا، على حين غفوة من السؤال، حتى اذا جاؤا مبكرا وجدوا البيادر المعبئة، او آثار الحصاد المبيت سرا، ورد النهى عن ذلك كما عن ابى بصير عن الامام الصادق عليه السلام قال: «لا تصرم بالليل ولا تحصد بالليل، ولا تضح بالليل ولا تبذر بالليل، فانك ان فعلت ذلك لم يأتك القانع والمعتز، فقلت ما القانع والمعتز؟ فقال: القانع الذى يقنع بما اعطيته، والمعتز الذى يمر بك ويسئلك، وان حصدت بالليل لم يأتك السؤال، وهى قول الله عز وجل: «وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ، يعنى القبضة بعد القبضة، اذا حصدته، فاذا خرج فالحفنة بعد الحفنة، وكذلك عند الصرام، وكذلك البذر لا تبذر بالليل، لانك تعطى فى البذر كما تعطى فى الحصاد.»

حق معلوم:

وهناك حقوق اخرى فى الاموال عدى تلك، اكد الاسلام على استحبابها فلنستمع الى الامام الصادق عليه السلام وهو يفصلها ويرسم حدودها: «... ولكن الله عز وجل فرض فى أموال الأغنياء حقوقا غير الزكاة، فقال عز وجل: «وَالَّذِينَ فِي

ص: 293

أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ» فالحق المعلوم غير الزكاة وهوشىء يفرضه الرجل على نفسه فى ماله يجب عليه أن يفرضه على قدر طاقته وسعة ماله فيؤدى الذى فرض على نفسه إن شاء فى كل يوم، وإن شاء فى كل جمعة، وإن شاء فى كل شهر وقد قال لله عز وجل أيضا «أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» وهذا غير الزكاة وقد قال الله عز وجل أيضا «... يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً» والمعون أيضا وهو القرض يفرضه والمتاع يعيره، والمعروف يصنعه، ومما فرض الله عز وجل أيضا فى المال من غير الزكاة قوله عز وجل: «الَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ»، ومن أدى ما فرض الله عليه فقد قضى ما عليه وأدى شكر ما أنعم الله عليه فى ماله... فهذه الفرائض كلها تخرج من الاموال المتخمة المتضخمة، لتنتشر فى المجتمع، فتنتشر المدقعين من المساقط الرهيبة، وتوثق الاواصر والوشائج بين الفقير والغنى، ويأخذ من حدة الصراع الدائب بينهما ولذلك كله لم يقرر الاسلام لها حدودا معينة، وانما فوض تحديدها الى اصحاب رؤوس الاموال لانها لم توضع لتسد فراغا ابديا فى المجتمع، وانما قررت لسد الحاجات الاحتياطية، ولتخفيف التوتر والحروب الباردة، فربما يتطلب الوضع السائد المبالغة فيها، كما قد تستغنى الحالة الراهنة الا عن القليل منها، فليس لها حدوداً الا ما تلهمها الاوضاع، وتناشدها الظروف والملابسات الخاصة كل يوم، حسب ما تقررها العوامل والدوافع الموجودة...

هكذا نجد الشرع يؤكد على توجيه المجتمع نحو الفكرة ذاتها، وينص على عدم حدود مرسومة، وانما يكتفى بالاشعار عنها، لينبه على ان الاسلام يحبذ تبادل العلاقات الودية بين الافراد، كما نجد هذا الطابع باديا على لهجة الامام

زين العابدين عليه السلام فعن ابي جعفر عليه السلام: «إن رجلاً جاء إلى علي بن الحسين عليه السلام فقال له: أخبرني عن قول الله عز وجل: «وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ» ما هذا الحق؟

فقال له علي بن الحسين عليه السلام: الحق المعلوم الشيء يخرج من ماله ليس من الزكاة ولا من الصدقة المفروضتين قال فإذا لم يكن من الزكاة ولا من الصدقة فما هو؟

فقال: هو الشيء يخرج من الرجل من ماله إن شاء أكثر وإن شاء أقل على قدر ما يملك. فقال له الرجل: فما يصنع به؟ فقال عليه السلام: يصل به رحماً ويقرى به ضيفاً ويقوى به ضعيفاً ويحمل به كلاً ويصل به أحماً له في الله أولئذ تنوبه...».

فالحق المعلوم في الاموال الفائضة يلزم ان يعزل جانباً لمكافحة الكوارث الفردية، وتأمين الحاجات المتوقعة، فهو يشبه ما يدخره الرجال المليون اليوم في (شركات التأمين) و (صناديق الضمانات الاجتماعية) غير ان الاسلام بفكرته العميقة الواسعة في رداء الاخطاء والخطوب، ومعالجة المشاكل السوداء بكل بساطة وهدوء لا يقرر الصناديق والشركات كي تشغل شعباً، وتكون مشكلة وتبدد ثروة، وانما يفصل الحق المعلوم من ثروة الانسان، ويدخره عنده، ليسهل ادخاره واسترجاعه.

بين الزكاة والضرائب:

وهناك حقيقة ماثلة يجب ان نتشعب بها، لنقف على تمام فلسفة الزكاة، ومدى الدقة والحكمة في تشريعها، تلك هي المقارنة بين الزكاة والضرائب الوضعية.

وقبل تلك علينا ان نعرف فلسفة الضرائب، والهدف المنشود من ورائها، وذلك هو الاحتفاظ بتوزيع ثروة الشعب على افراد الشعب توزيعاً عادلاً، في نطاق تكافؤ الفرص، وصيانة حق الحياة للجميع، وحيث ان طبيعة الثروة ان تتكدس في جانب، وتتقلص عن جانب، تبعاً للعجز المؤقت او الدائم: العجز البدني او الفكري حيث ان طبيعة الثروة وتكافؤ الفرص، يبعثان على اختلاق ثروة عاتية الى جانب فقر ذريع، وجب ان تؤخذ من الاموال المتضخمة - فقط - حصص لمعالجة هذه المشكلة، وتأمين الحاجات الناتجة من العجز فقط وايضا لتأمين الحاجات العامة، والمشاريع الحكومية العامة التي تمثل مطالب مجموع الشعب...

فأذن تختصر فلسفة الضرائب في تأمين حالات العجز، وتأمين الحاجات العامة. هذه هي النقطة المركزية في فلسفة الضرائب ولا غير.. فلننظر هل الضرائب تؤدي هذا الهدف المنشود منها؟ ام انها اغلال فرضت على الشعب دون ان تحمل فكرة، او تنتج هدفاً؟ وهل الزكاة ادت مسؤوليتها كاملة؟ او ابهضت بحملها.؟؟.

تكفينا الجواب عن كل ذلك جولة مع التاريخ في شعوب الزكاة وشعوب الضرائب الوضعية:

يحدثنا التاريخ ان امير المؤمنين عليه السلام كتب الى عامله عثمان بن حنيف «... ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لاطمع له في القرص ولاعهد له بالشعب...». وذلك يدل على ان امير المؤمنين عليه السلام كان واثقاً من عدم وجود الفقر في ما سوى هاتين المنطقتين، في الوطن الاسلامي الكبير..

ولقد ارسل والى الصدقات بأفريقية الى عمر بن عبد العزيز يقول له: لم يبق فقير محتاج فى افريقية، وبيت مال الصدقات ممتلى، فارسل اليه عمر بن عبد العزيز، يأمره بان يسدد الديون عن الغرماء، فسدد الديون عن المدينين، ثم ارسل الى عمر ايضا بأنه ما زال بيت المال يخصص بالصدقات، فارسل اليه عمر، ان يشتري بها العبيد، ويعتقها، حتى اذا فعل ذلك لم تنفد الصدقات، فوجهها الى عمر نفسه...

ثم ان تاريخ الاسلام كله لم يسجل انسانا واحدا مات من الجوع فقرا.. كل ذلك رغم ان منابع الثروة - فى بدء الاسلام - لم تكن بوفرتها اليوم، وانما كانت ركيزة بيت المال الزكاة فقط.

اما الخمس والجزية والخراج... فلم يكن لها الا دور ضئيل، ومسارب معينة، فكانت الزكاة وحدها تنظم الحياة الاقتصادية العامة، رغم ان المجتمع الاسلامى - ذلك اليوم - كان فى دور الطفولة، وكانت تختلف فيه عملية الهدم والبناء، وكان الترميم الاقتصادى يقوم على انقاض الفوضى الجاهلى او الفارسى او الرومى، وفى مثل هذا الدور يصاب الاقتصاد بتشنج واضطراب مريب وكان الاقتصاد الاسلامى يسخر من هذه العراقيل والصدمات المعاكسة، ويهزأ بالحروب الطاحنة التى كانت تشنها اعداء الاسلام على المسلمين، وكانت جديدة بأن ترتبك بها الحياة الاقتصادية الناشئة على أسس جديدة لم يمارسها الشعب الا منذ فترة الانتقال، من الفوضى الملون الى الاسلام... اضافة على الانحصار الاقتصادى، الذى طوق الجزيرة، من جراء قطع العلاقات مع الدول

القوية، المحدقة بها، وأولئك الزعماء المترفون الذين كانوا يبددون الملايين.. والملايين.. بين عشية وضحاها(1) ويخصصون خراج دولة بكامله لجارية(2) ويبعثون مئات الألوف بين الشعراء(3) والفتيان والغلمان.. كل هاته الضربات النابية لم تهد في كيان الاقتصاد الاسلامي، بل صمد امام هذه المعاول، واجتاح المعاول، دون ان يتأرجح بنفسه، وذلك ما يكشف عن تركيز، وأصالة فائقة في هذه الضريبة الاسلامية (ان صح التعبير): الزكاة.

اما تاريخ الضرائب الوضعية، فهي تشهد مصارع عشرات الألوف من الفقراء الذين يموتون جوعا وعريا، كل عام... وهذا اقوى حجة على فشل نظام الضرائب.

ثم ان موارد الدولة - بما فيها الضرائب - يجب ان تسد الفراغ الهائل بين الطبقات، ويكشح البلاء الفاجر للبشرية جمعاء، ويكمل النواقص في الحاجات العامة، وذلك ما لا يكون، وحتى ان الضرائب لا تستطيع ان توقف مآسى الاقتصاد عند حدها، فنحن نرى النواقص تتزايد، والطبقات تقسو، والفقير يتأزم، يوما بعد يوم.. وهذا دليل اخر على فشل نظام الضرائب..

ص:298

1- (1) صنع محمد الامين للهواء سفينتين احدهما على صورة الاسد والاخرى على صورة النمر، بثلاثة ملايين من الدنانير.

2- (2) خصص الرشيد خراج مصر كراتب اضافي لزوجته زبيدة.

3- (3) ابو اسحاق المغنى مدح الامين ببيتين من الشعر، غنى بهما امامه فوهب له مليون دينار. ومن قبل ذلك مدح الرشيد بقصيدة فأجاز ب - 600 الف دينار.

ثم ان دول الضرائب تحتجز كثيرا من موارد الثروة المشاعة للجميع على قدر حاجاتهم، ثم تبيعها عليهم. وذلك مورد ثرى يتورع عنه الاسلام ورغم ان الزكاة ليست الا 10% او 5% فى الغلات الاربع وما يتراوح بين 2% - 3% فى سائر الاشياء.. ومع ذلك ينهض الاسلام بكفالة شتى الضمانات الاجتماعية والفردية.. والضرائب التصاعدية ربما تبلغ 96%، والضرائب تفرض على كل شىء، حتى على الارث، وعلى الاموال التى تعبر الحدود بأسم ضرائب الجمارك والمكوس، وربما تتكرر على البضاعة الواحدة كلما انتقلت من يد الى يد..

والضرائب - مهما كانت صورها - توجب الغلاء، لان التاجر او المستورد، او صاحب رأس المال، يقدر: انه يجنى من بضاعته ربحا معيناً، لا يتجاوز 20% - مثلا - فاذا فرضت الضريبة على تلك البضاعة، بنسبة 80% فانه لا يلغى ربحه، وانما يضيف الربح والضريبة على أصل رأس المال، فيبيعه بضعفى الثمن العادل لهذه البضاعة..

أما الزكاة فانها تفرض على الناتج - فى الغلات الاربع - بعد إخراج سعر البذر، وأجرة الارض، وسائر التكاليف - كما هو المشهور - فلا توجب الزكاة ارتفاع الاسعار، وانما تقلل قسما ضئيلا من الناتج، فلو كان المأمول ان تثمر النخيل 10 اطنان من التمر، فان الزكاة تجعله 9 اطنان..

تعاليم للجباة:

والاسلام - بنظراته العميقة الواعية - يرى ان استخدام العنف والقسوة فى جمع الزكاة، عجز وهروب مواجهة الحقائق الراهنة، فان الزكاة إنما فرضت

ص: 299

لتكميل النواقص، وتلك النواقص غضبات الفقراء الثائرة فعندما يحاول الاسلام إطفاء تلك الغضبات يجب ان لا يلهب مكانها غضبات اخرى، هي غضبات الاغنياء، لان الزكاة اذا اخذت منهم بالعنف والارهاب فسوف تثور حفاظهم، ولا يقفون مكتوفى الايدى تجاه التعذيب والارهاق. لذلك يكتفى الاسلام بأن ينذر مانع الزكاة بعذاب الله الاليم وحسب، ثم يفوض اليه الامر فله ان يتولى بنفسه اعطاء الزكاة الى من شاء من الفقراء، او ان يدفعها الى جباة بيت المال ليوزعه الامام او نائبه كما يرى، فاذا جاء الجابى الى صاحب الغلات او النقدين او الانعام عرض عليه اخرج الزكاة، فلو قال: ليس فى مالى زكاة، صدق، وان اعترف ان فى ماله الزكاة، لكن اعتذر بأنه سيدفعها الى الفقراء، او دفعها من قبل، قبل كلامه...

كما نجد هذه التعاليم الحكيمة فى كلام على امير المؤمنين عليه السلام، فعن ابي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «بعث أمير المؤمنين عليه السلام مصدقا من الكوفة إلى باديتها، فقال له: يا عبد الله انطلق، وعليك بتقوى الله وحده لا شريك له، ولا تؤثرن دنياك على آخرتك، وكن حافظا لما ائتمنك عليه، راعيا لحق الله فيه، حتى تأتى، نادى بنى فلان، فإذا قدمت فأنزل بمائهم، من غير أن تخالط أبياتهم، ثم أمض إليهم بسكينة ووقار حتى تقوم بينهم، ثم قل لهم: يا عباد الله، أرسلنى اليكم ولى الله! لاأخذ منكم حق الله فى اموالكم، فهل فى اموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟ فإن قال لك قائلا: لا، فلا تراجع!!، وإن أنعم لك فهو منعم فانطلق معهم، من غير أن تخيفه، أو تعده إلا خيرا، فإذا أتيت ماله، فلا تدخله إلا بإذنه، فإن أكثره له، فقل: يا عبد الله أتأذن لى فى دخول مالك؟

فإن أذن لك فلا تدخله دخول متسلط عليه فيه، ولا عنف به، فاصدع المال صدعين، ثم خيره أى الصدعين شاء، فأيتها اختار فلا تعرض له!! ثم أصدع الباقي صدعين، ثم خيره، فأيتها اختار فلا تعرض له، ولا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله فى ماله، فإذا بقى ذلك فاقبض حق الله منه، وإن استقالك فأقله، ثم اخلطها، واصنع مثل الذى صنعت أولاً حتى تأخذ حق الله من ماله...».

بالله عليك! هل يوجد فى الضرائب على وجه الارض كهذه الضريبة - لو صح التعبير -؟ وهل فى شرق الارض وغربها دولة تعترف بكرامة الافراد، كأعتراف الاسلام بها، ان الغنى الذى عليه الزكاة إنسان تحمل المصاعب، واهدر الجهود السخية، حتى استطاع ان يحصل على مال فائض، تفرض فيه الزكاة، فالزكاة اذن ليست الا شطرا من كده وعرقه، واطافة على ذلك فهو واحد من افراد الشعب، الذين وجدت الحكومة لحماية مصالحهم، فليس من الصحيح ان يعنف فى اعطاء الزكاة. وهو مصدق لو قال: اخرجت زكاة اموالى، لانه مؤمن بالله والدار الآخرة، والاسلام قد ارهف عواطفه، حتى ان يتطوع بحر امواله فى سبيل الله، فهو مصدق فى كل ما يقول...

وبعد ذلك فالاسلام لا يسمح لاحد ان يبتز حقوق الفقراء، فلو تمرد شخص على فريضة الزكاة، وابتى ان يدفعها، يشهر الاسلام سيف العذاب فى وجهه، ويذيقه حرارة الحديد فى الدنيا قبل الآخرة. ولكن الاسلام فى تلك التعاليم يحاول ان يربى المجتمع على الامانة، والصدق، ولذلك لا يبتدر باتهام

الناس بالكذب، والخيانة، حتى يقرروا على انفسهم هذه الجريمة البشعة، فينطلقوا فى الارض بتكرارها، وتحقير الجرائم فى اعين الناس، فالاسلام يحاول ان يبرز الجرائم فى صورة نكراء يستقذرها الجميع، كى لا يرتكبوها، اما اذا علموا: انها جريمة يمارسها كل فرد يسمحون لانفسهم بارتكابها.

ص:302

سبعة اشياء تستدرک ما ليس فيه زكاة.. ومقداره عشرون بالمائة وهو اضخم بكثير من اموال الزكاة!

الموارد السبعة:

أ - غنائم الحروب... وما تخلفه جيوش الكفر فى ساحات الحرب وميادين القتال.. سواء اكانت من المنقولات: التى يحويها العسكر ام من العقارات: تنهزم عنها المشركون!

ب - المعادن: التى يتصرف فيها المسلمون.. متى زادت على خمسة عشر مثقالا صيرفيا من النضا... من غير فرق بين ما كان منها على سطح الارض: كالملاح. الياقوت. الزبرجد. العقيق. الكحل. او فى بطونها المغلفة: كالبترول. الغاز. الزفت. الكبريت. المرمر... يخرج الخمس من الفائض الصافى بعد استثناء جميع تكاليف الحفر والاذابة، والعمال المهندسين..!

ج - الكنز.. من الاموال: التى تدخر تحت التراب.. او فى الاسطوانات والسقوف، للحفاظ من الاقارب الفاجرة واللصوص الزاحفة حتى يموت عنها المالك، وتختلف عليها الايدي، وتمحى الآثار، او كانت فى الموات، حيث لا يستدل على مالكة بشىء... اما اذا كانت عليها علامة الاسلام، او كان للارض ملاك، فيجب المراجعة اليهم، حتى يعلم بعدم وجود مالک شرعى لها!

د - ما يستخرج من الارض بالغوص: كاللؤلؤ. المرجان. العنبر. اذا بلغت قيمته الدينار!

ه -- المال المختلط بالحرام.. فيما اذا لم يعلم مقدار الحرام، ولا ملاكه الشرعيون، وعند احتمال معرفة المالك الشرعى يجب الفحص حتى اليأس!

و - العقار: الذى يشتريه الذمى من المسلم!

ز - الفائض من ارباح، بعد اخراج جميع النفقات الواجبة عليه، لنفسه وعياله... بل والتكاليف المستحبة والمباحة... ومصارف الحج والاسفار غير المحرمة.. ومختلف انواع الزينة والكماليات، ما لم تكن من الترف والتبذير!

توزيع الخمس:

تقرر الآية الكريمة ذلك:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ» (1).

فهو اذن يوزع ستة اقسام: ثلاثة لله وللرسول ولذى القربى، وجميعها ترجع الى الامام ومن بعد الى نائبه الخاص، ثم العام.. يصرفها فى شؤون المسلمين... والثلاثة الاخيرة، لليتامى والمساكين وابن السبيل، من ابناء هاشم..

ومتى قصرت حصصهم عن كفاءاتهم، سده الامام عليه السلام من حقه! واذا زادت تلحق بحصة الامام عليه السلام فى تأمين المصالح العامة.

ص:306

والاسلام يفرض الجزية على اهل الكتاب: اليهود، والنصارى، والمجوس: الذين هم فى بلاد الاسلام، ولم يسلموا! ولكنهم يحتمون بالحكومة الاسلامية!.. فالاسلام يفرض على الرؤوس أو الاراضى مقدار من المال - باسم الجزية - وليس لها حد محدود، بل هو موكول الى رأى الامام عندئذ! يقرره على وفق المصالح المشتركة بين المسلمين،

وتلك بدل عن قيام الدولة الاسلامية، بمصالحهم، وكف الاعتداءات عنهم! فالاسلام يقوم بواجبات المسلمين والذميين على حد سواء! فيأخذ الزكاة من المسلمين، والجزية من الذميين... فالاسلام انما يأخذ الجزية لصرفها فى مصالح انفسهم.. فله الفضل عليهم فى ايوائهم، ودفع الاذى عنهم، من الخارج والداخل... وهذا النوع من المحافظة على الاقليات ما لم يعرفه العالم.. لا قبل الاسلام ولا بعده! مع ان اهل الكتاب كانوا من الدّ اعداء الاسلام فى بدء انبثاق الدعوة. حتى اليوم اصبحوا قذى فى عين المسلمين: يكيدون لهم من الف باب..!

الانفال:

«يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ: الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ...» والانفال ملك للنبي صلى الله عليه وآله ثم للامام من بعده.. والنبي والائمة عليه السلام لا يستأثرون بشيء من اموالهم حتى يفرقوه بين المسلمين، او يوفروا به على بيت المال!.. والانفال خمسة:

1 - الاراضى: التى يملكها المسلمون، دون ان يرجعوا عليها بخيل ولا ركاب... ولكن صولحوا عليها من غير زحف وقتال! او ابخل اهلها وسلموها للمسلمين رهبة او طواعية..!

ب - الاراضى الموات القاحلة الجرداء: التى ليست عليها يد، من الفيافى والمفاوز والقفار!.

ج - شواطئ البحار.

د - رؤوس الجبال، وما بها من معادن وكنوز!

ه -- بطون الاودية والآجام وما فيها...

غير ان الائمة عليه السلام أباحوها فى غيبتهم - لشيعتهم...

مال الخراج: (1)

ان الاراضى المفتوحة عنوة وبالسيف، تعتبر ملكا مشاعا لجميع المسلمين، حتى يوم القيامة! ويمثلهم النبى صلى الله عليه وآله ثم من بعده الامام عليه السلام وفى وسعه ان يؤجر السواد والبياض بما يراه مصلحة.. كما فعل النبى صلى الله عليه وآله بخيبر، حين فتحت، فاعطاها اليهود بالنصف فى الحاصل!.

ص: 308

1- (1) نشرت بنود من هذا الكتاب فى نشرة (اجوبة المسائل الدينية) التى تصدرها لجنة الثقافة الدينية فى كربلاء الدورة الثالثة العدد الثانى عشر، وهى كل من العناوين: (مال الخراج. المقاسمة. وظائف بيت المال الهبات الصدقات غصبة وتشكر. حكمة الصدقات صدقات شتى).

هذا هو الخراج ويسمى ايضا ب - (قبالة الارض) فالخراج والقبالة تكونان على الارض اليابسة البيضاء، والبساتين والمزارع..!

المقاسمة:

وتكون فى الارض المفتوحة عنوة - مثل الخراج - ولكن الامام يؤجر الاراضى الزراعية، بقسمة معينة من الحصيد..! والخراج والمقاسمة إنما يكونان بدلا من الزكاة! اما اذا اسلم أهلها عليها - كالتائف - فهم يدفعون الزكاة فقط! اما الذين لا يطالبهم الاسلام بالزكاة، وهو مسؤول عن تأمين حاجاتهم الجماعية، فيطالبهم بالخراج والمقاسمة، لصرْفها فى نفس مصالحهم، فى اطار مصلحة المسلمين، كما ينص عليه النبى صلى الله عليه وآله بقوله: «.. لا يجتمع خراج، وعشر - زكاة - فى ارض مسلم» تلك هى موارد بيت المال!.. اما

وظائف بيت المال:

فهى نفس تلك الثمانية: التى بينها - آنفا - فى مصارف الزكاة وهى.. إعالة الفقراء. والمساكين والموظفين وابن السبيل. والمؤلفة قلوبهم. وإطلاق الغارمين وفى الرقاب!.. وفى سبيل الله، وتلك كلمة تنطبق - فى كل عصر ومصر - على الصالح العام، وتشمل بناء الثغور والشكنات، وتشديد محاكم ومدارس، واستيراد المصانع والمعامل، وارسال البعثات العلمية، واللجان والوفود لجمع المعلومات الحديثة، وانشاء القواعد، وتهيئة العتاد، وتعبئة اللوازم لمكافحة المرض، والمجاعة، والطوفان، والفيضان، والزلازل.. وكل شىء يكون من صالح المسلمين!..

ص: 309

من ذلك كله.. تبدو طريقة الاسلام فى مكافحة الفقر والرأسمالية صريحة صارخة: لا تشوبها الغياهب والتمويهات.. فان تلك الموارد: التى حرمها الاسلام الربا. الاحتكار. المكاسب الحمراء. هى العلقات: التى تمتص دماء الشعوب بصمت وضمود.. لتفرغها فى كؤوس المترفين مرة واحدة.. ولولاها لا ينشب الفقر ولا تتزايد الرأسمالية!

ومن بعد ذلك الحقوق الشرعية الستة: التى يجيها بيت المال من المثرين، ليضيفها على المساكين، كفيلة بتحقيق العدالة الاقتصادية الى حد بعيد..!

ولكن الاسلام يفقه: ان الشاب يقظ الملى لو استخدم جميع مواهبه، واستنجد بطاقات غيره، فى سبيل التجارة خمسين عاما، لحصل على ثروة ربما يخل بالتوازن المنشود، فيلزم بحكم العدالة الاقتصادية: تأسيس:

نظام الارث:

فانه من العوامل الدائبة على توزيع الملكيات الكبرى، وتحطيم كتلتها. اثلاثا، وارباعا، واسباسا، واثمانا..

واول ما يلاحظ الاسلام فى تقسيم التركة: ان يجعله اجباريا بالنسبة للوارث والمورث..! فليس للمورث سلطان على ماله بعد وفاته، ليعمل بنظرته الطائشة، فى ايثار البعض، وحرمان الآخرين، حسب ما تقتضيه احقاده الثائرة وافكاره الهوجاء ساعة الاحتضار..! وحتى معاملاته الغبنية - فى مرض الموت - تعتبر باطلة، لانها - كثيرا ما - تلاحظ فيها المصالح والمفاسد الشخصية، وتبعث

لتناقض التوريث الشرعى! الـ فى الثلث فـللمورث السلطة عليه، ليتدارك تقصيرا دينيا او دنيويا فإنه - فى سورة حياته - ويحاول الان استدراكه.

وكذلك الوارث ليس له الحق فى ان يطلب الزيادة من حقه.. انما هو ملك مقدر، فعليه ان يقبلها طوعا او كرها!.

ويتولى الحاكم الشرعى توزيع التراث كله - ان لم يوص - والثلثين - ان اوصى - بموجب المقررات الشرعية، على نحو لا تخرج التركة عن نفس الاسرة.. الا اذا لم يكن هناك وارث فامواله تنتقل الى بيت المال لجميع المسلمين.

ويولى على حصص الاطفال والسفهاء، وغير الراشدين - من نفس الاسرة او غيرها - من يتولى التصرف على غبطة المتولى عليه، بارشاد الحاكم، ورقابة الناظر!.

توزيع التركة:

ويقرر الاسلام توزيع التركة على فكرة دقيقة عميقة: لم تستعد الامم الاخرى - بعد - لان تتلقى عنه هاته الحكمة..! فبعض دول اليوم تأخذ من مجموع التراث 80%، والبعض الاخر 85%، والثالثة 95% ثم يقسم الباقي فى الورثة بقانون جائر مضطرب.. او يستأثر به الولد الاكبر فقط - كما كان من رسم الجاهلية -.! وذلك ما اثار حزب العمال الانجليزى على ان يطالب فى برنامج الاشتراكى: بتطبيق نظام الاسلام فى الموارىث! واخذت الدولة السوفياتية تطبق ما يشبه نظام الاسلام فى التراث بعد استثناء حصص الدولة.

وتعتمد الفكرة الاسلامية فى توزيع الارث على ثلاثة دعائم.

ص:311

1 - ايثار الاقرب الى المتوفى على غيره، مع ملاحظة تفتيت الثروة فعمود النسب اقرب من الحواشى..! فالاب والام والزوجة.. والاولاد واولاد الاولاد - الاقرب فالاقرب - دون تفرقة بين الصغير والكبير هم الطبقة الاولى..! فان فقدوا جميعا تأتى نوبة الطبقة الثانية، وهم الاجداد والجندات - الاقرب فالاقرب - والاخوة والاخوات، فان فقدوا فالطبقة الثالثة.. وهم الاعمام والعمات، والاخوال والخالات وهكذا...

ب - ملاحظة الاحتياج الى المال - نوعا - ولعل ذلك هو السر في زيادة نصيب الاولاد على حصة الابوين - فالاولاد لا يأخذون اقل من النصف، عندما الأيوان لا- يأخذان اقل من الثلث - فالغالب في الابوين: ان يكون لهما من فضل المال ما يتقوتانه... وحاجتهما ضئيلة جدا، وهما يستدبران الحياة.. بخلاف الذرية الضعاف الذين يستقبلون الحياة بحاجاتهم الكثار، من ضرورات التعليم والولى وعدم الكفاءة.. وذلك ما جعل للذكر ضعف الانثى..! فالذكر يطالب بعيشه وعيشة نفر - فى الغالب - والانثى مكفولة للاخرين..!

وهذه الملحوظة تجعل الحبوقة -: وهى مختصات الاب - لبكر الذكور، جزاء لما تقع عليه من قضاء فوائت الاب: كالصلوة والصيام وتكاليف الاسرة التى يصبح لها أب..!

ج - عدم الاستئثار فى جانب، والحرمان فى جانب، فليس الميراث للولد الاكبر فحسب..! ولا للابناء دون البنات..! ولا للاولاد دون الاباء والازواج..!

هذه لمحات عجلى.. من اقتصاديات الاسلام، اقتطفناها بنظرات عابرة.. كنماذج: تحكى الجرم الرحيب! لنقايسها بشتى الاقتصاديات السائدة - فى انحاء العالم - هل فيها ما يعادل هاته الافكار العادلة..؟ ام انها - جميعا - رملة ميثاء، الى جنب مسابح النجوم.؟؟ والقارىء هو الحكم! وضميره الرقيب! شريطة ان لا يجرفه الجلب، والضوضاء!!!

نهاية المطاف:

ان مهمة النظام الاقتصادى - ايا كان - أن ينشط فى الشعب روح استغلال منابع الثروة، واستنفاد الخامات والطاقات المعطلة الدفينة، ثم يوزع مجموعة الثروات، على مجموع الشعب، بصورة عادلة، وطبيعية - فى نفس الوقت - حتى لا ينقسم المجتمع الى طبقات متباينة، بل يكون اشبه بالطبقة الواحدة، دون ان يتوسل النظام فى سبيل ذلك، الى العنف والارهاب، بل يوقظ فى جميع الافراد حب العمل، ومجافة الترف، ويحسن توجيه الناس، حتى يسيروا بأنفسهم على الخطة المرسومة لهم، دون اى مسير يرغمهم على الانسلاخ من طبائعهم وعواطفهم.. اما النظام الذى يضطهد الشعب ليتبع خطته وبرامجه، فهو نظام فاشل، لن يكتب له الخلود لان النظام الذى يقهر الشعب كل الشعب على معاكسة طبائعه، لا يكون موضع التقديس ومصب الحب والاجلال، بل يعرفه الناس عدوهم الوحيد فلا يتوانون عن محاربته، والنظام الذى يقاومه الشعب كله، ولا يتمتع بولاء الجماهير لن يستطيع من الاستمرار فى تنظيم الاجتماع، ويتحطم على صخرة الحقائق فى اقرب فرصة سانحة تتخلى عنه القوة.

ص:313

تلك هي قضية النظم الاقتصادية، فما كان منها منتزعا من واقع الاجتماع، ومنسجما مع طبائع الاشياء، فهو النظام الصحيح الذى يصلح لتنظيم الحياة الاقتصادية، وما كان منها نسيج احلام واطماع افراد حاقدين من اعداء الانسانية والشعوب، فهو نظام فاشل: يفسد ولا يصلح. لان الفشل فى النظام لا يعنى عجزه عن السيادة والسيطرة، وربما يكون النظام فاسدا يقاومه الشعب بمختلف عناصره ودوافعه، ورغم ذلك يسود طيلة سنين، بواسطة استخدام القوة وخنق الاصوات الناقمة المتحدية له، ولكن سرعان ما تشيب القوة، فيذوب النظام تحت غضبة الشعب ولعائنه الهادرة.

فمقياس النجاح فى النظم الاقتصادية، ليس الا كونه مستلهما من واقع الحياة الاقتصادية، وقادرا على معالجة مشكلة الطبقات واصهارها فى طبقات متقاربة - لا تمايز بينها الا باختلاف الاعمال والافكار - بكل عفوية ومرونة حكيمة. وبالتالي ان لا يدع الثروات تتضخم فى جانب وتخسر عن جانب فيصاب الاغنياء والفقراء بأوبئيات او هنها الانتحار والاعتيال.

وبعد ما اتفقنا: أنا وأنت على هذه الحقيقة نستطيع ان ندرك مدى الفشل فى النظم: الاقتصاد الراسمالي، والاقتصاد الشيوعى، والاشتراكى الروسى اللينينى، والاشتراكى الفاشى، والاشتراكى النازى، والبعثى، والديموقراطى، والبريطانى، والهندي، وسائر الاشتراكيات المختلفة الفاسدة فانها - جميعا - لم تقدر على الغاء الطبقات، وتوزيع ثروات البلاد على كل فرد فرد، توزيعا عادلا حسب معدل عام، قوامه تكافؤ الفرص، وتعادل الجهد والجزاء بل ظلت

الكثرة الهائلة من الطاقات معطلة، تولد وتموت وتقبر فى الارض، دون ان يستغلها النظام، وبقيت الثروات - كطبيعتها الاصلية - تقلص ذبولها بسرعة خيالية، عن الاسواق والايدي والافواه لتتكلمش وتتكدس فى المخازن والبنوك والقاصات، تحت أيدي افراد معدودين هم الاغنياء فى النظام الرأسمالى، والحزب الشيوعى فى النظام الشيوعى والاشتراكى الروسى، وافراد الدولة فى سائر الاشتراكيات.

واضافة على ذلك كله لم تستطع هذه النظم ان تفتح طريقها للتطبيق الا بالغاء الاديان والاخلاق، وابعاد الفساد والاستهتار والمجون، وتحطيم الاسر باستخدام النساء والاولاد، واستعمار البلاد الآمنة الوديعة، واشعال نيران الحروب... كما تكشف هذه الحقائق فى ذلك العرض الموجز لتلك النظم، وما اصاب المجتمع من مآسى وويلات...

أما الاقتصاد الاسلامى فهو النظام الوحيد الذى استطاع - بكل هدوء وحكمة ورزانة - ان يوجه الشعب توجيهها راشدا، يحفزه على استخراج الطاقات وإثارة المواهب والصلاحيات، وتوزيعها على مجموع الافراد: فردا فردا، توزيعا عادلا- عفويا طبيعيا، حتى لم يبق فى الدولة الاسلامية الرحبية، فقير يقبل الصدقات، فانهارت الطبقات بنفسها، واصبح المجتمع الاسلامى الكبير اشبه بالطبقة الواحدة رغم ان الاسلام بنفسه دين، وافر سائر الاديان - فى نطاق عادل - وحث على الالتزام بالاخلاق والفضائل، وحرر النساء عن العمل المضمنى خارج البيت، واعفى الاولاد لينطلقوا فى حياة الطفولة، حتى يرشدوا

ويبلغوا اشدّهم، وتقتل عضلاتهم المفعمة قوة وحرارة، وشوقا الى العمل.

كل ذلك دلالة مجردة على فساد وفشل النظم الاقتصادية الحاضرة والبائدة كلها، ونجاح الاقتصاد الاسلامى، وصلاحيته للعودة الى الحياة التطبيقية.

حسن السيد مهدي الشيرازى

كربلاء 1380 هـ -

ص:316

كان من المقرر أن ننشر كتاب: الاقتصاد، والاسلام أمل الشعوب ولا سلام إلا فى الاسلام فى غلاف واحد هذا وقد كتبت فى الإقتصاد الاسلامى مقالا فادليت قسما منه الى الطبع على ان أتمه ككتيب لا يتجاوز الثمانين صحيفة وكان ذلك قبل دراستى للإقتصاد دراسة عامة فكانت الدراسة والكتابة فى وقت واحد، حتى أصبح الكتاب هذه الصحائف، التى لم تترك مجالاً للكتابين الاسلام أمل الشعوب. ولا سلام الا فى الاسلام ولعل الله يوفقنا لنشرهما فى وقت قريب. وقد صادف تأليف هذا الكتاب فترة مزدحمة بالمعاكسات والاحداث والأرزاء، فقد قارن فترة الثورة، وويل للأبحاث الموضوعية الدقيقة من الثورة. هكذا كان يمر على الاسبوع تلو الاسبوع دون ان أضغ حرفا على ورق. وقد كانت المطبعة تبارينى فى الطبع، وأباريها فى الكتابة، رغم إنها كانت تفوز على، فكانت متى سنحت لى الفرص أكتب بعض الصحائف عفو القلم وجرى الخاطر، ثم أدلى بها الى الطبع من توه، ولست أحاول ان أبرهن بذلك على شىء وإنما أريد ان افتح الباب على مصراعيه للناقدين، كى لا يتهيبوا الموقف.

المؤلف

ص:317

تم بحمد الله

ص: 318

من المصادر

القرآن الكريم

نهج البلاغة

البحار..... الشيخ محمد باقر المجلسي

وسائل الشيعة..... الشيخ محمد حسن الحر العاملي

مستدرک الوسائل..... الميرزا محمد حسن النوري

رأس المال ج 1..... كارل ماركس

رأس المال ج 2..... كارل ماركس

رأس المال ج 3..... كارل ماركس

البيان الشيوعي..... كارل ماركس وفردريك انجلز

الاشتراكية بين الخيال والعلم..... فردريك انجلز

الدولة والثورة..... لينين

حول دور النقابات ومهامها..... لينين

مرض الطفولة في الشيوعية..... لينين

حركة التحرر الوطني في الشرق..... لينين

أسس اللينينية..... ستالين

المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية..... ستالين

بيان اللجنة المركزية الشيوعية في المؤتمر العشرين..... خروشوف

الأرقام التوجيهية لتطوير الاقتصاد الوطني

في الاتحاد السوفيتي لأعوام 1956-1959 م

الحكومة الاتحادية..... ماتوسى تونغ

الزراعة السوفيتية..... أنيسيمون

دستور الاتحاد السوفياتى

التعاليم الشيوعية

النظام الشيوعى ماهر نسيم

الاشتراكية العملية نشونها وتطورها..... إبراهيم حداد

المذهب الاقتصادى بين الشيوعية والاسلام..... محمد سعيد رمضان البوطى

النظام الاقتصادى فى الاسلام..... تقى الدين النبهانى

أسس الاقتصاد بين الاسلام والنظام المعاصر..... ابو على المودودى

تنقيحات..... أبو على المودودى

الحجاب..... أبو على المودودى

الربا..... أبو على المودودى

رسالة الثروة المعدنية..... سعيد محمد عودة

لمحات من تاريخ العالم..... جواهر لال نهرو

العدالة الاجتماعية فى الإسلام..... سيد قطب

الإسلام والطاقات المعطلة..... محمد الغزالى

الإسلام والأوضاع الاقتصادية..... محمد الغزالى

الإسلام والمنهاج الاشتراكية..... محمد الغزالى

شبهات حول الإسلام..... محمد قطب

تنظيم الإسلام للمجتمع..... محمد أبو زهرة

دع القلق وابدأ الحياة..... دبل كارنيجى

الإسلام فى عصر العلم..... فريد وجدى

فهرس محتويات الكتاب

مقدمة الكتاب 13

الاقتصاد 13

تصدير: 15

الرأسماليون 19

الرأسمالية الجديدة 83

الاقتصاد الشيوعي 93

حساب الشيوعية 131

الاقتصاد الاشتراكي 163

مناقضات الاشتراكية 189

مذاهب اشتراكية مبتورة 241

الاقتصاد الإسلامي 247

الجزاء بلا عمل 263

برامج العمل 275

الزكاة 285

الخمس 303

خاتمة 313

إعتذارات 317

من المصادر 319

فهرس محتويات الكتاب 321

ص: 321

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
(التوبة : 41)

منذ عدة سنوات حتى الآن ، يقوم مركز القائمة لأبحاث الكمبيوتر بإنتاج برامج الهاتف المحمول والمكتبات الرقمية وتقديمها مجاناً. يحظى هذا المركز بشعبية كبيرة ويدعمه الهدايا والندور والأوقاف وتخصيص النصيب المبارك للإمام عليه السلام. لمزيد من الخدمة ، يمكنك أيضاً الانضمام إلى الأشخاص الخيريين في المركز أينما كنت.

هل تعلم أن ليس كل مال يستحق أن ينفق على طريق أهل البيت عليهم السلام؟
ولن ينال كل شخص هذا النجاح؟
تهانينا لكم.

رقم البطاقة :

6104-3388-0008-7732

رقم حساب بنك ميلا:

9586839652

رقم حساب شيبا:

IR390120020000009586839652

المسمى: (معهد الغيمية لبحوث الحاسوب).

قم بإيداع مبالغ الهدية الخاصة بك.

عنوان المكتب المركزي :

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 021 - 88318722

قسم البيع 09132000109 شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز
الغمامة
اصبحان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

